JOSH MALERMAN

جوش ماليرمان

رواية رعب

"إياكَ أنْ تفتحَ عينَيك"

صندوق طير



الطبعة الأولى

ترجمة:

د. غسان لطفي



مكتبة | 486

صندوق طير

- صندوق طير
- جوش ماليرمان
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٨

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

بريد إلكتروني :

Dar_Kalemat@hotmail.com

info@darkalemat.com

الموقع الإلكتروني :

http://www.darkalemat.com

مكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2018 /1243

الردمك: 5 - 57 - 95 - 99966 - 978

صندوق طير

BIRD BOX

رواية

جوش ماليرمان

JOSH MALERMAN

د. غسان لطفي

٢٠١٨



مقدمة المترجم:

صندوق الطير هي رواية الكاتب الأمريكي جوش ماليرمان «الأولى» . نكتب «الأولى» هكذا بين مزدوجتين ، لأنه كتب قبلها . . . أربعة عشر رواية ، لكن الرواية التي بين أيدينا هي أول رواية ينشرها ، وكان ذلك سنة ٢٠١٤ ، ومنذ ذلك الوقت ، نشر ماليرمان خمس روايات طويلة وروايتين قصيرتين والعديد من القصص القصيرة . ماليرمان هو أيضا مغن في فرقة روك ويكتب لها أغانيها ، ولقد أمضى سنوات يجوب الولايات المتحدة مع فرقته وكتب الكثير من رواياته في الحافلة على الطريق بين حفلتين . ويقول ماليرمان إنه كان دائما يحلم بنشر رواياته لكنه رغم ذلك كان سعيدا بأنه يكتب . وعن دخوله عالم النشر ، يعترف صاحب صندوق الطير بفضل صديق طفولته عليه ، الذي «هبط من السماء» عليه ليساعده ، وبدور المصادفة . لكن «ما قد يبدو مصادفة لم يكن ليصبح سعدا وتوفيقا لو لم أكن مسلحا بدزينة روايات» ، فهو ربما الحظ إذا ، لكنه "حظ المهارة إذ تجتهد" كما يقول محمود درويش .

صدرت صندوق الطير في السنة نفسها في بريطانيا والولايات المتحدة ، وتلقاها النقاد بالكثير من الاستحسان . والرواية تنتمي لما يسمى بأدب ما بعد نهاية العالم Post-apocalyptic وهو فرع من روايات الخيال العلمي أو الرعب تكون نقطة انطلاقها المحورية هي فكرة أن الحضارة الإنسانية بكل تقدمها التكنولوجي قد انتهت أو على وشك الانتهاء ، مهما يكن السبب . ولن نقول شيئا عن الرواية

لأن وجه المتعة فيها هو تحديدا ما فيها من تشويق وانقلابات تبقي القارئ مشدودا مَشُوقًا إلى النهاية . كل ما يمكن قوله هو أن ماليرمان نجح في كتابة رواية مرعبة عجائبية وفي الوقت نفسه إنسانية إلى أبعد الحدود ، ونجح في الدخول إلى أغوار بطلته وفي إدخالنا إليها نحن أيضا من خلال وصف حسي «سمعي» بدل الوصف البصري الذي اعتدنا عليه . وهكذا يمكننا القول إن الرواية في الكثير من أجزائها مروية لا من خلال ما يعرف عند النقاد باسم «وجهة نظر» البطلة ، بل من خلال ما سنسميه «وجهة سَمعِها» .

و لأجل هذا صارت بعض العبارات شديدة الحساسية ، ولعل أهمها عبارة It sounds التي تكاد تكون مكافئة ، لولا فروق دقيقة ، لعبارات أخرى مثل It seems وIt looks اللتين تترجمان بفعل «يبدو» وهي الترجمة التي نجدها في القواميس لعبارة It sounds أيضا . لكن العبارة ، في سياق هذه الرواية بالذات ، صارت تعني ما تقوله حرفيا ولم يكن ممكنا إذا ترجمتها بعبارة «يبدو» التي يمكن وصفها بالحيادية ، بل بعبارات تشير إلى الصوت والسمع وتبتعد قدر الإمكان عن الرؤية ، وكان علينا إذا أن نناور ونداور في الكثير من المرات في سبيل ذلك . وهكذا هي الترجمة دائما ، مفاوضة بين النص ومترجمه .

د . غسان لطفي

الفصل الأول

مالوري واقفة في المطبخ تفكر .

يداها مبللتان . وهي ترتجف . تضرب أرضية البلاط المتشققة بكعبها بعصبية . لا يزال الوقت باكرا ولعل الشمس الآن تسترق النظر من خلف الأفق . تنظر إلى نورها الهزيل يحول ستائر النافذة الثقيلة إلى غلالة سوداء خفيفة وتفكر .

كان ذلك ضبابا .

الطفلان نائمان تحت سقف من سياج مغطى بقماش أسود هناك في آخر الرواق . ربما سمعاها قبل لحظات وهي تحبو على ركبتيها في الفناء . مهما تكن أصدرت من صوت فلا بد أنه سافر عبر الميكروفونات ، ثم المكبرات القابعة أمام سريريهما .

تنظر إلى يديها وتكتشف على ضوء الشمعة بريقا دقيقا . نعم ، هما مبللتان . ندى الصباح لا يزال عليهما .

الآن ، في المطبخ ، تتنفس مالوري بعمق قبل أن تنفخ في الشمعة لتطفئها . تسرح نظرها في الغرفة الصغيرة منتبهة إلى الأواني الصدئة والصحون المشققة . علبة الكرتون التي صارت سلة مهملات . والكراسي ، وقد جمع بعضها في أزواج . الجدران متسخة . بسبب أقدام الطفلين وأيديهما . ولكن ثمة بقع أقدم كذلك . الجدران في الرواق زالت الألوان من أسفلها ، وكمد لونها الأرجواني فصار مع الزمن بنيا . هذه بقع دم . السجادة في غرفة الجلوس حال لونها هي الأخرى ، مهما فركت مالوري . ولا منظفات في المنزل لتعينها على

ذلك . منذ مدة مديدة ، ملأت مالوري الدّلاء بماء البئر وعملت ، مستعينة بمعطف ، على إزالة البقع من المنزل كله . لكنها أبت أن تزول . وحتى تلك التي لم تقاوم كثيرا ظلت بادية للعيان بشكل مرعب ، وإن تقلص حجمها فصارت أثرا بعد عين . في الردهة علبة للشمع تخفي لطخة ما . الأريكة في غرفة الجلوس وضعت في زاوية غريبة ، نُقلت إليها لتحجب وصمتين بدتا في نظر مالوري كأنهما رأسا ذئبين . في الطابق الأول ، أمام السلالم المؤدية إلى العُلِّيَّة ، تخفي كومة من المعاطف العفنة خدوشا أرجوانية رسخت عميقا في أسفل الجدار . وعلى بعد عشرة أقدام تجد أدكن بقعة في المنزل كله . مالوري لا تستعمل أقصى طرف في الطابق الأول من المنزل لأنها لا تستطيع أن تحمل نفسها على العبور إليه .

كان كل هذا في ما مضى منزلا جميلا في ضاحية جميلة من ضواحي ديترويت . كان في ما مضى منزلا عائليا وآمنا . وقبل خمس سنوات لا أكثر ، كان أي وكيل عقاري لَيفخرُ بعرضه على زبائنه . لكن في هذا الصباح ، النوافذ مغطاة بالورق المقوى والخشب . ولا ماء في الحنفية . وعلى منضدة المطبخ تقبع دلو خشبية كبيرة . رائحة البَوْخ تعبق المكان . ولا لعب كالتي يلعب بها الأطفال . إن هي إلا قطع من كرسي خشبي نحتت لتؤدي دور الجنيات ، ورسمت عليها وجوه صغيرة . الخزائن فارغة . ولا صور معلقة على الجدران . الأسلاك ممدودة من تحت الباب الخلفي حتى غرف النوم في الطابق الأرضي ، حيث تنبه مكبراتٌ للصوت مالوري والطفلين إلى أي صوت قد يرد من خارج المنزل . ثلاثتهم يعيشون هكذا ، فلا يطيلون المكث خارج المنزل ، وعندما يخرجون تكون أعينهم معصوبة .

لم ير الطفلان العالم خارج منزلهما أبدا ، ولا حتى من خلال النوافذ . ومالوري لم تنظر من خلالها منذ ما ينيف عن الأربع سنوات .

أربع سنوات

ليس عليها أن تتخذ قرارا كهذا وأن تحزم أمرها اليوم . إنه أكتوبر في ميتشيغان والجو بارد . وإن رحلة على النهر تمتد عشرين ميلا ستكون قاسية على الطفلين . الطفلان لا يزالان صغيرين على رحلة كهذه . ماذا لو وقع أحدهما في الماء؟ كيف ستتصرف مالوري عندئذ وهي معصوبة العينين؟

حادث ، تقول في نفسها مالوري ، *ما أفظع الأمر . بعد كل هذا الصراع ، كل هذا الصراع من أجل البقاء . أن تموت بسبب حادث .*

تنظر مالوري إلى الستائر وتبكي . تريد أن تصرخ في وجه شخص ما . تريد أن تناشد أي شخص قد يستمع إليها . هذا ظلم ، ستقول له ، هذه قسوة .

تلتفت لتنظر من خلف كتفها ، إلى مدخل المطبخ وإلى الرواق الذي يؤدي إلى غرفة نوم الطفلين . وراء الإطار الذي لا باب فيه ، الطفلان نائمان نوما عميقا ، يغطيهما قماش أسود يحجبهما عن النور والنظر . لا يتحركان ولا يبدو عليهما أنهما مستيقظان . ومع ذلك ، ربما هما الآن يستمعان لها . أحيانا ، لفرط ما طلبت منهما أن ينصتا ولفرط ما اعتمدت على آذانهما ، صارت مالوري تؤمن بأنهما قادران على سماعها عندما تفكر .

يمكنها أن تنتظر سماء مشمسة أكثر ، الدفء ، وأن تدرس القارب أكثر . يمكنها أن تخبر الطفلين وأن تستمع لما سيقولان . لعل رأيهما سيكون سديدا . هما في الرابعة من عمرهما فقط ، لكنهما دربا على الاستماع ، ويمكنهما أن يعيناها على الإبحار بقارب

سيكون عليها أن تسيره دون أن ترى شيئا . لن تقدر مالوري على خوض رحلة كهذه دونهما . هي بحاجة إلى آذانهما ، فهل ستكون بحاجة إلى مشورتهما كذلك؟ هل لهما ، وهما في الرابعة من عمرهما ، ما يقولان عن موعد مغادرتهم المنزل بلا رجعة ومتى الوقت الأمثل لفعل ذلك؟

تتهاوى مالوري على الكرسي وتغالب دمعها . كعبها الحافي لا يزال ينقر على اللينوليوم الباهت . ببطء ، ترفع رأسها لتنظر إلى قمة السلالم المؤدية إلى القبو . هناك تحدثت ذات مرة مع رجل يدعى توم عن رجل يدعى دون . تنظر إلى المغطس الذي ملأه دون ذات مرة من ماء البئر وهو يرتعد خوفا لأنه خرج من المنزل . تنحني إلى الأمام فترى العلية ، حيث كانت شيريل تحضّر الطعام للعصافير . وبينها وبين الباب الرئيسي غرفة الجلوس ، وفيها من الذكريات الكثيرة عن أشخاص كثر ما لا يسعها تحمله .

أربع سنوات ، تقول في نفسها ، وتتملكها الرغبة في أن تضرب الجدار بيدها فتسحقها .

مالوري تعلم أنه ما أسهل أن تصبح السنوات الأربع ثماني سنوات وما أسرع ما تصير الثمانية اثنتي عشرة . وعندئذ سيصبح الطفلان بالغين . بالغين لم يريا السماء قط ، ولم ينظرا من نافذة قط . ما الذي سيفعله بعقليهما عيشهما حبيسين اثنتي عشرة سنة كأنهما عجلان في زريبة؟ هل ثمة مرحلة ، تتساءل مالوري ، تصبح عندها الغيوم في السماء وهمًا والمكان الوحيد الذي سيشعران فيه بالأمن هو خلف القماش الأسود الذي يعصب أعينهما؟

تزدرد مالوري ريقها وتتخيل نفسها تربيهما لوحدها إلى أن يصيرا مراهقين .

هل ستستطيع فعل ذلك ولو أرادت؟ هل ستستطيع حمايتهما لعشرة سنوات أخرى؟ هل ستستطيع حراستهما ما يكفي من الوقت ليحرساها هما ذات يوم؟ ولأجل ماذا؟ أيّ حياة تلك التي تحميهما لأجلها؟

بئس الأم أنت، تقول في نفسها.

لأنها لم تعرف كيف تعلمهما كم هي السماء واسعة. لأنها لم تعرف كيف تطلقهما ليركضا بحرية في الفناء، في الشارع، في الحي المهجورةِ منازلُه والمتآكلةِ سياراتُه المركونة، أو كيف تجعلهما يختلسان نظرة واحدة، لمرة واحدة، إلى الفضاء، عندما تتشح السماء بالسواد فإذا هي تتجمل ببقع من نجوم.

أنت تبقين على حياتهما لعيشة لا تستحق أن تعاش.

بعينين أغشتهما الدموع، تنظر مالوري إلى الستارة وهي ترِق أكثر فأكثر. إن كان هنالك ضباب في الخارج فهو لن يبقى مدة طويلة. وإن كان قادرا على مساعدتها، على إخفائها والطفلين بينما يتوجهون تلقاء النهر، إلى المركب، فعليها أن توقظهما الآن.

تضرب طاولة المطبخ بيدها ثم تجفف عينيها من الدمع.

تقوم مالوري وتغادر المطبخ وتعبر الرواق وتدخل غرفة نوم الطفلين.

«يا صبي!»، تصرخ، «يا بنت! استيقظا»

الغرفة مظلمة. النافذة الوحيدة فيها مغطاة بما يكفي من البطانيات ليمنع النور من دخولها حتى عندما تكون الشمس في كبد السماء. على طرفي الغرفة فراشان، وفوق كل منهما قبة سوداء. فيما مضى، كان السياج الذي يرفع الآن القماش الأسود يُستخدم ليسوِّر حديقة صغيرة جهة البئر في ساحة المنزل الخلفية. لكنه استخدم طوال السنوات الأربع الماضية درعا يحمي الطفلين لا

مما قد يراهما بل مما قد يريانه . تسمع مالوري حركة قادمة من تحته وتنحني لتفك السلك المربوط بمسامير مغروسة في أرض الغرفة الخشبية . وفورا تخرج من جيبها العصابتين بينما ينظر إليها الطفلان بوجهين ناعسين مذهولين .

«ماما؟»

«انهضا . حالا . ماما تريدكما أن تتحركا بسرعة»

يستجيب الطفلان بسرعة . لا يتذمران ولا يحتجان

«إلى أين نحن ذاهبون؟» تسأل البنت .

تناولها مالوري عصابة العينين وتقول «ارتدي هذه . سنذهب إلى النهر»

يأخذان العصابتين ويشدان القماش الأسود بإحكام على عينيهما . هما ضليعان بذلك . خبيران ، إن كان لطفل في الرابعة من عمره أن يكون خبيرا بأي شيء . هذا يفطر قلب مالوري . لا يزالان طفلين ويفترض فيهما أن يكونا فضوليين . يفترض بهما أن يسألا ، لم هم اليوم ذاهبون إلى النهر – إلى نهر لم يذهبوا إليه قط .

لكنهما بدلا من ذلك يفعلان ما يؤمران .

لا ترتدي مالوري عصابتها الآن . ستُعِدُّ الطفلين أولا .

«أحضري مُربكتك» ، تقول للبنت . «و ليحضر كل منكما بطانيته .»

الحماسة التي تتملكها لا توصف . إنها أقرب إلى الهيستيريا . وهي تنتقل من غرفة إلى أخرى ، تتفقد مالوري بعض الأمور والأشياء الصغيرة التي قد يحتاجونها . فجأة ، يتملكها إحساس مرعب بأنها ليست مستعدة . بأنها لم تعد بأمان ، كما لو أن المنزل والأرض تحته اختفيا وتركاها مكشوفة تماما أمام العالم الخارجي .

ومع ذلك ، وفي خضم الحماسة المرافقة للحظة ، تتمسك بفكرة عصابة العينين ولا تريد أن تفلتها . لا يهم ما ستحمله معها من أدوات وما هي الأواني التي قد تستخدمها سلاحا ، فهي تعلم يقينا أن العُصابات هي حصنها الأمنع .

«أحضرا بطانيتيكما» ، تذكرهما وهي تنصت إلى الجسدين الصغيرين يتهيأن ، ثم تدخل إلى الغرفة لتساعدهما . الصبي ، وهو النحيف القصير بالنظر إلى من هم في مثل سنه والقوي مع ذلك قوة تملأ أمه فخرا ، متردد بين قميصين كلاهما واسع عليه . كانا في ما مضى لرجل بالغ رحل منذ زمن . تختار له مالوري وتنظر إلى شعره الفاحم يختفي في الثوب ثم ينبثق من جديد من فتحة العنق . وفي غمرة قلقها ، تدرك مالوري أن الصبي كبر قليلا في المدة الأخيرة .

البنت ، بقامتها المتوسطة بالنظر إلى سنها ، تحاول أن تدخل رأسها في فستان كانت خاطته هي ومالوري من ملاءة قديمة .

«الجو بارد يا بنت . الفستان لا يكفي»

تقطب البنت . شعرها الأشقر مشعث فلقد استيقظت لتوها .

«سأرتدي سروالا أيضا يا ماما . وسنحضر معنا البطانيات»

تحتدم مالوري غيظا . هي لا تريد أي مقاومة . ليس اليوم . حتى ولو كانت البنت على صواب .

«اليوم لا فستان» .

العالم الخارجي ، الأسواق الفارغة والمطاعم ، آلاف السيارات المتروكة ، والسلع المنسية على رفوف المحلات الفارغة ، كل ذلك يحكم حصاره على المنزل . كله يهمس بما ينتظرهم .

تتناول معطفا من الخزانة في غرفة النوم الصغيرة ، ثم تغادر الغرفة وهي تعلم أنها لن تعود إليها أبدا .

«ماما» ، تقول البنت إذ تلتقيان في الرواق ، «هل سنحتاج لأبواق الدراجات؟»

تتنفس مالوري عميقا .

«كلا» ، تجيب ، «سنكون معا ، طوال الرحلة» .

وإذ تعود البنت أدراجها إلى الغرفة ، تقول في نفسها مالوري كم هو الأمر مثير للشفقة ، أن أبواق الدراجات تلك هي أعظم تسلية حظي بها الطفلان . لقد لهَيا بها سنوات طويلة ، طوال حياتهما كلِّها ، يطلقانها من غرفة الجلوس . كان صوتها العالي يشد أعصاب مالوري ، لكنها لم تسلبهما إياها أبدا . ولم تخفها أبدا ، فحتى في غمرة لحظات الأمومة الأولى ونوبات القلق ، فهمت مالوري أنه في عالم مثل هذا ، كلُّ ما سيجعل الطفلين يقهقهان هو أمر حسن .

حتى عندما كانا يخيفان بها فيكتور .

آه ، كم تشتاق مالوري لذلك الكلب! عندما بدأت تربي الطفلين لوحدها ، كانت أحلامها عن ركوب النهر تشمل أيضا فيكتور ، الكولي الأسكتلندي ، رابضا بجنبها في القارب . كان فيكتور سينبهها إن اقترب حيوان ما . كان سيخيف أي شيء ويبعده .

«حسنا» ، تقول ، وجسدها المرن ينتصب في إطار باب غرفة نوم الطفلين ، «يكفي هذا ، سنغادر الآن» .

كانت هنالك مرات ، آصال هادئة ، أمسيات عاصفة ، قالت لهما مالوري فيها إن هذا اليوم قد يأتي . نعم ، لقد حدثتهما من قبل عن النهر . عن رحلة . ولقد انتبهت إلى ألا تسميها أبدا «هروبا» لأنها لم تكن تحتمل أن ينظر الطفلان إلى حياتهما في المنزل على أنها شيء يفران منه . وبدلا من ذلك ، حذرتهما من صباح قادم

ستوقظهما فيه على عجل وتأمرهما بأن يتأهبا لمغادرة المنزل إلى الأبد . كانت تعلم أنهما كانا قادرين على الحدس بما يساورها من شك ، تماما كما كانا قادرين على سماع عنكبوت تزحف على زجاج النافذة المغطاة . ولسنوات ، كان هنالك في الخزانة كيس طعام صغير ، وضع جانبا إلى أن فسد وتغير طعمه ، وظل يستبدل ويملأ من جديد . كان ذلك دليلَ مالوري ، برهانَها على أنها *قد* توقظهما كما أخبرتهما . *أترين* ، ستقول لنفسها ، وهي تتفحص الستائر بعصبية ، *الطعام في الخزانة جزء من خطة مرسومة* .

والآن ، جاء ذلك اليوم . هذا الصباح . هذه الساعة . *الضباب* .

يتقدم الولد والبنت وتركع مالوري أمامهما . تتفقد عصابتيهما . مربوطتان بإحكام . في هذه اللحظة ، وهي تقلب عينيها بين الوجهين الصغيرين ، تدرك مالوري تماما أن الرحلة إلى الخارج قد بدأت أخيرا .

«أنصتا إلي» ، تقول لهما وهي تمسك بذقنيهما ، «اليوم سنبحر في النهر بقارب تجذيف . قد تكون رحلة طويلة ، ولكن المهم هو أن تنفذا كل ما آمركما به بحذافيره . أتفهمان؟»

«نعم» .

«نعم»

«الجو بارد في الخارج . لديكما البطانيتان . ولديكما العصابتان . هذا كل ما تحتاجان إليه الآن . أتفهمان ما أقول؟»

«نعم»

«نعم»

«إياكما أن تخلعا عصابتيكما لأي سبب كان . إن فعل أحدكما ذلك سأوجعه . أتفهمان؟»

«نعم»

«نعم»

«أنا بحاجة لأذانكما . أريد كلا منكما أن ينصت وينتبه ما أمكنه ذلك . على النهر ، أريدكما أن تنصتا لما تحت الماء ، لما وراء الغابة . إن سمعتما صوت حيوان في تلك الغابة ، إن سمعتما أي شيء في الماء ، أخبراني . أتفهمان؟»

«نعم»

«نعم»

«*إياكما* أن تسألاني عن شيء لا علاقة له بالنهر . ستجلس في المقدمة» تقول وتلمس الصبي . ثم تلمس البنت وتقول «و أنت ستجلسين في الخلف . عندما نصل إلى القارب ، سأرشدكما إلى مكانيكما . سأجلس في الوسط وأجذف . لا يكلِّمنَّ أحدكما الآخر وأنتما جالسان على طرفي المركب إلا ليخبره عن شيء سمعه في الغابة ، أو النهر . أتفهمان؟»

«نعم»

«نعم»

«لن نتوقف لأي سبب كان . ليس قبل أن نصل إلى وجهتنا ، وسأعلمكما عندما يحصل ذلك . إن أحسستما بالجوع ، كلا من هذا الكيس»

تقرب مالوري الكيس إلى أيديهما الصغيرة .

«لا تناما . *إياكما* أن تناما . أنا اليوم بحاجة إلى آذانكما أكثر من أي وقت مضى»

«هل سنحمل معنا مكبرات الصوت؟» تسأل البنت .

«كلا»

تنقل مالوري عينيها بين الوجهين المعصوبين وهي تتكلم .

«عندما سنغادر هذا المنزل ، ليمسك أحدكما بيد الآخر واتبعا الطريق إلى البئر . سنعبر البَراح الصغير في الغابة خلف المنزل . الطريق إلى النهر كثيف الأعشاب وقد نضطر إلى أن نفلت أيدينا لخطوة . إن حصل هذا أريدكما أن تمسكا معطفي أو أن يمسك أحدكما معطف الآخر . أتفهمان؟»

«نعم»

«نعم»

هل هما خائفان؟

«أنصتا إلي . نحن ذاهبون إلى مكان لم يذهب أي منكما إليه من قبل . وسنبتعد عن المنزل أكثر مما فعلتما من قبل . ثمة أشياء في الخارج ستؤذيكما وتؤذي ماما إن لم تستمعا إلي ، الآن ، في هذا الصباح»

الطفلان صامتان .

«أتفهمان»

«نعم»

«نعم»

لقد أحسنت مالوري تدريبهما .

«حسنا» ، تقول ، وصوتها يشي بلمحة هيستيريا . «سنغادر . سنغادر حالا . سنغادر» .

تضم رأسيهما إلى جبينها .

ثم تمسك كل طفل من يده ، ويعبرون المنزل بسرعة . في المطبخ ، تمسح مالوري عينيها وهي ترتجف وتستخرج عصابتها من جيبها . تربطها بإحكام على رأسها وشعرها الأسود الطويل . تتوقف

ويدها على مقبض الباب ، الباب الذي يفضي إلى الدرب الذي لطالما سلكته لتملأ بالماء دلاء لم تعد تحصي لها عددا .

هي على وشك أن تخلف المنزل وراء ظهرها ، وحقيقة اللحظة تغمرها .

تفتح الباب ، فيندفع الهواء البارد إلى الداخل . تتقدم مالوري وقد عمّت عيني عقلها المخاوف وصور أشنع من أن تتحدث عنها أمام الطفلين . تتلعثم وهي تتكلم ، ويكاد يكون كلامها صراخا .

«أمسكا يدي ، كلاكما»

يمسك الصبي يدها اليسرى وتدس البنت أصابعها الصغيرة في يدها اليمنى .

معصوبي الأعين ، يخرجون من المنزل .

البئر يبعد عنهم بثلاثين ياردة[١] . ثمة قطع صغيرة من الخشب كانت في ما مضى أجزاء من أطر للصور تحدد الطريق وقد غرست هنالك ليهتدى بها . كلا الطفلين لمسا قطع الخشب بطرف حذائه مرات عديدة ، فلقد قالت لهما مالوري مرة أن ماء البئر هو الدواء الوحيد الذي سيحتاجان له . مالوري تعلم جيدا أنه لأجل ذلك ، لطالما احترم الطفلان البئر ، ولم يتذمرا يوما من جلب الماء معها .

عند البئر الأرض تحت أقدامهم وعرة ، منتفخة انتفاخا غير طبيعي ، رطبة .

«هو ذا البَراح» ، تصرخ مالوري .

تقود الطفلين بحذر . على بعد عشرة ياردات من البئر ، ينشق طريق ثان . مدخله ضيق وهو يشطر الغابة . من هنا ، المسافة إلى

---

(١) الياردة وحدة قياس إنكليزية ، تساوي ٠,٩١٤٤ مترا . [المترجم]

النهر أقل من مائة ياردة . في الغابة ، تفلت مالوري يدي الطفلين للحظة لتتحسس المدخل الضيق .

«تمسكا بمعطفي!»

تتحسس الأغصان إلى أن تجد كنزة مربوطة إلى شجرة على مدخل الدرب . لقد ربطتها هناك بنفسها قبل أكثر من ثلاث سنوات .

يمسك الولد بجيبها وتشعر بأن الفتاة تمسك بجيبه . تناديهما مالوري بينما تتقدم وتسألهما باستمرار إن كانا ممسكين ببعضهما . تخزها أغصان الشجر لكنها لا تصرخ .

بسرعة يصلون إلى العلامة التي غرستها مالوري في الطين . هي عبارة عن شظية من ساق أحد كراسي المطبخ غُرست في وسط الدرب ، لأجلها ، لكي تصطدم بها ، لكي تتعثر بها ، ولكي تعرفها .

اكتشفت المركب منذ أربع سنوات ، راسيا على بعد خمسة منازل فقط من منزلها . لقد مر أكثر من شهر منذ أن تحققت منه آخر مرة ، لكنها تعتقد أنه لا يزال في مكانه . ومع ذلك ، ما أصعب ألا يتوقع المرء أسوأ الاحتمالات . ماذا لو وصل إليه شخص آخر؟ امرأة أخرى لا تختلف كثيرا عنها وتعيش على بعد خمسة منازل في الاتجاه الآخر ، وتحيا كل يوم من سنوات أربع لتستجمع ما يكفي من الشجاعة للهرب . امرأة زلت قدمها ذات مرة في الضفة الزلقة ذاتها ولمست نقطة الخلاص ذاتها ، طرف المركب الفولاذي المدبب .

الهواء يقرص الخدوش على وجه مالوري ، والطفلان لا يتذمران .

هذه ليس طفولة ، تقول في نفسها مالوري وهي تقودهما إلى النهر .

وإذا هي تسمعه . قبل أن تصل إلى الرصيف ، تسمع المركب يتأرجح في الماء . تتوقف وتتحقق من عصابتي الطفلين وتحكم ربطهما ، ثم تقودهما إلى أن يصلا إلى الأرضية الخشبية .

أجل ، تقول لنفسها ،لا *يزال هنا* . كما لا تزال السيارات مركونة في الشارع قبالة المنزل ، وكما لا تزال المنازل في الحي مهجورة .

صار الجو أبرد خارج الغابة ، بعيدا عن المنزل . صوت الماء مخيف بقدر ما هو منشط . تجثو على ركبتيها حيث تتوقع وجود المركب فتفلت الطفلين وتتلمس بحثا عن الطرف الفولاذي . تجد أناملها الحبل وتمسك به أولا .

«يا صبي» ، تقول ، وتجذب طرفَ المركب الباردَ إلى الرصيف ، «إلى المقدمة ، إذهب إلى المقدمة» ، وتساعده . وما أن يتخذ مكانه حتى تمسك وجهه بكلتا يديها وتقول له مرة أخرى ، «استمع ، لما تحت الماء ، استمع» .

تأمر البنت أن تبقى على الرصيف بينما تفك هي الحبل دون أن ترى شيئا قبل أن تصعد بحذر إلى وسط القارب . وهي لا تزال منحنية ، تساعد البنت على الركوب . يهتز القارب بعنف فتمسك مالوري بيد البنت بشدة ، ولا تصرخ البنت .

ثمة أوراق شجر وأغصان وماء في قعر المركب . تبحث مالوري في كل ذلك عن الجذافين اللذين وضعتهما على جانب القارب الأيمن . الجذافان باردان ، مبللان . تفوح منهما رائحة العفن . تثبتهما على الثلمين الفولاذيين . تحسهما ثقيلين قويين إذ تستعمل أحدهما لتدفع المركب عن الرصيف . وعندئذ . . .

هم أولاء على النهر .

المياه هادئة لكن ثمة أصواتا ، حركة في الغابة .

تفكر مالوري في الضباب ، وتأمل أنه قد غطى هروبهم .

لكن الضباب سيزول .

«أنتما» ، تقول مالوري وهي تتنفس بصعوبة ، «أنصتا» .

أخيرا ، وبعد أربع سنوات من الانتظار والتدريب واستجماع الشجاعة لمغادرة المنزل ، هي ذي تجذف بعيدا عن الرصيف ، بعيدا عن الضفة وبعيدا عن المنزل الذي حماها والطفلين لمدة بدت لها وكأنها الدهر .

الفصل الثاني

تسعة أشهر قبل ميلاد الطفلين . مالوري تعيش مع أختها شانون في شقة مستأجرة لم تزينا أي ركن فيها . لقد انتقلتا إليها قبل ثلاثة أشهر ، رغم مخاوف أصدقائهما . مالوري وشانون كلتاهما امرأتان محبوبتان وذكيتان ولكنهما عندما تكونان معا تفقدان صوابهما كما تبين منذ اليوم الأول وهما تنقلان أمتعتهما إلى الشقة .

«أرى أنه من الأقرب إلى المنطق أن أحصل أنا على غرفة النوم الأكبر» قالت شانون وهي تقف على بسطة الطابق الثاني من المبنى ، «لأن خزانتي أكبر .»

«بحقك» ، أجابت مالوري وهي تحمل صندوقا مليئا بكتب لم تقرأها بعد ، «تلك الغرفة لها إطلالة أفضل»

تناقشت الأختان بشأن الغرفة طويلا وكلهما حرص على أن تثبتا لأصدقائهما وأفراد عائلتهما ، بجدالهما منذ أول أمسية لهما معا ، كم كان قلقهم مبررا . في النهاية وافقت مالوري على قرعة جاءت نتيجتها لصالح شانون وهو ما لا تزال مالوري تعتبره حدثا مدبرا بشكل ما .

الآن ، اليوم ، لا تفكر مالوري بكل الأمور التافهة التي تأتيها شانون وتثير جنونها . هي الآن لا تنظف بصمت ما تتركه شانون خلفها ، ولا تغلق أبواب الخزائن ولا تقتفي أثر جواربها وكنزاتها المتناثرة في الرواق . وهي ليست غاضبة باستسلام تهز برأسها وهي

تشغل غسالة الأواني أو تبعد بنفسها ، مع أنه لا يعيق طريقها هي فقط ، صندوقا من صناديق شانون من وسط غرفة الجلوس . بدلا من ذلك ، هي الآن واقفة أمام المرآة في حمام الطابق الأرضي ، عارية ، تتفحص بطنها .

حدث *أن انقطع عنك الطمث مرة* ، تقول لنفسها . لكن هذا لا يعزيها لأن القلق ما فتئ ينتابها منذ أسابيع لأنها تعلم أنه كان ينبغي عليها أن تحتاط أكثر في معاشرتها لهنري مارتن .

شعرها الأسود منسدل على كتفيها ، وشفتاها تقطبان بشكل غريب . تضع يديها على بطنها الضامر وتومئ برأسها ببطء ، فرغم كل ما تبذله من جهد لتجد لنفسها تفسيرا ما للأمر ، هي تشعر بأنها حبلى .

«مالوري» ، تناديها شانون من غرفة الجلوس ، «ما الذي تفعلينه هناك؟»

لا تجيب مالوري . تستدير على جانبيها وتميل برأسها . عيناها الزرقاوان تبدوان رماديتين في نور الحمام الخافت . تتكأ براحتها على المغطس الوردي وتقوس ظهرها تريد أن تجعل بطنها ضامرا أكثر كما لو أن ذلك سيثبت لها أنه لا يوجد كائن صغير في أحشائها .

«مالوري!» تناديها شانون مرة أخرى . «هنالك تقرير آخر في التلفزيون . لقد حدث شيء ما في ألاسكا»

تسمع مالوري أختها ، لكن ما يجري في العالم الخارجي لا يهمها كثيرا في هذه اللحظات .

في الأيام الأخيرة ، تناقلت مواقع الإنترنت بشكل محموم قصة صار الناس يسمونها «التقرير الروسي» . تقول القصة إن رجلا جالسا بجانب مقعد السائق في شاحنة تسير على طريق سريع مغطى

بالثلوج خارج مدينة سانت بترسبورغ طلب من صديقه الذي كان يقود الشاحنة أن يتوقف جانبا ثم هاجمه واقتلع شفتيه بأظافره، قبل أن ينتحر في الثلج بمنشار وجده في مقطورة الشاحنة. قصة مريعة فعلا، لكنها من تلك القصص التي تعزو مالوري انتشارها للطريقة الحمقاء التي يبدو أن شبكة الإنترنت تشهر بها الحوادث العارضة. لكن قصة أخرى ما فتئت أن انتشرت. وفي ظروف مشابهة. هذه المرة في ياكوتسك، على بعد ثلاثة آلاف ميل شرق سانت بترسبورغ. هناك أقدمت امرأة «عاقلة» بلا مراء على دفن أطفالها أحياء في حديقة منزلها قبل أن تنتحر هي الأخرى بشظايا صحون مكسورة. ثم ظهرت قصة ثالثة على الشبكة، من أومسك، بروسيا، على بعد حوالي ألفي ميل جنوب شرق سانت بترسبورغ، وسرعان ما أصبحت أحد أكثر المواضيع إثارة للنقاش على مواقع التواصل الاجتماعي. وهذه المرة، كان هنالك مقطع فيديو. ولقد شاهدت مالوري، بقدر ما استطاعت، رجلا يحمل فأسا، وقد اخضلت لحيته بالدم، يحاول أن يهاجم الرجل الذي لا يُرى في المقطع والذي صوره، وينجح في النهاية. لكن مالوري لم تشاهد ذلك الجزء. ولقد اجتهدت ألاّ تتابع أي شيء عن الموضوع برمته بعد ذلك. لكن شانون، وهي التي لطالما كانت أميل إلى المبالغة وإلى تضخيم الأمور، لم تأل جهدا في أن تنقل إليها الأخبار المرعبة.

«*ألاسكا*»، تكرر شانون من خلف باب الحمام، «*هذا يعني الولايات المتحدة يا مالوري!*»

شعر شانون الأشقر يشي بأصول أمها الفنلندية. أما مالوري فتشبه أباها أكثر: قوية، غائرة العينين وفاتحة البشرة ناعمتها كحال

سكان الشمال . ولأنهما كبرتا في أعالي ميتشيغان ، فكلتاهما كانتا تحلمان بالانتقال إلى وسط المدينة ، قريبا من ديترويت ، حيث تخيلتا أنهما ستجدان الكثير من الحفلات وفرص العمل ، والرجال أيضا .

بالنسبة للرجال ، لم تفلح مالوري كثيرا حتى التقت هنري مارتن .

«اللعنة!» تصيح شانون ، «ربما حصل شيء في كندا أيضا . الأمر جدي يا مالوري . ما الذي تفعلينه هناك؟»

تفتح مالوري الحنفية وتدع الماء البارد يسيل على أصابعها . ترش بعضا منه على وجهها . وهي تنظر إلى المرآة ، تفكر في والديها اللذين لا يزالان في أعالي ميتشيغان . لم يسمعا بهنري مارتن . هي نفسها لم تكلمه منذ ليلتهما اليتيمة . ومع ذلك فهي الآن قد تكون مربوطة به إلى الأبد .

وإذ بباب الحمام يفتح . تمد مالوري يدها لتمسك بمنشفة .

«يا إلهي ، شانون»

«هل سمعتني يا مالوري؟ لقد انتشرت القصة . الناس يقولون الآن إن للأمر علاقة برؤية شيء ما . أليس هذا غريبا؟ سمعت لتوي سي أن أن تقول إن هذا هو القاسم المشترك بين كل الحوادث . وإن الضحايا *رأوا* شيئا ما قبل أن يهاجموا غيرهم ثم ينتحروا . أتصدقين هذا؟»

تستدير مالوري ببطء وتنظر إلى أختها . وجهها جامد لا تعابير فيه .

«مالوري هل أنت بخير؟ لا تبدين على ما يرام»

تبدأ مالوري بالبكاء وتعض على شفتها السفلى . لقد أمسكت

بمنشفة لكنها لم تغط نفسها بعد وهي لا تزال واقفة أمام المرآة وكأنها لا تزال تتفحص بطنها العاري . تنتبه شانون للأمر .

«أوه ، اللعنة» تقول شانون ، «هل تخشين أنك . . .»

تومئ مالوري برأسها أن نعم . تقترب الأختان من بعضهما في الحمام الوردي وتضم شانون مالوري إليها وهي تمسح على شعرها الأسود وتهدئ من روعها .

«حسنا» ، تقول ، «دعنا لا نصب بالذعر ، لنذهب ونحضر اختبارا للحمل . هذا ما يفعله الناس ، أليس كذلك؟ لا تخافي . أراهنك على أن نصف من يخضعن لاختبار الحمل يكتشفن أنهن لسن حوامل»

لا تجيب مالوري ، وتطلق زفرة عميقة .

«حسنا» ، تقول شانون ، «لنذهب»

الفصل الثالث

إلى أي مدى يمكن لأحدنا أن يسمع؟

التجذيف بعينين معصوبتين أصعب حتى مما تخيلته مالوري . لمرات عديدة اصطدم القارب بالضفة وظل عالقا لدقائق طويلة ، حاصرتها خلالها صور أيادي لا تراها تمتد للعصابتين اللتين تغطيان أعين الطفلين ، أصابع تخرج من الماء ومن الطين حيث يلتقي النهر بالأرض . لم يصرخ الطفلان ولم يتذمرا ، فهما أصبر من أن يفعلا ذلك .

ولكن ، إلى أي مدى يمكن لأحدنا أن يسمع؟

ساعدها الصبي في تحرير القارب إذ وقف ودفع بيديه على جذع شجرة مغطى بالطحالب ، وهي ذي الآن مالوري تجذف من جديد . ورغم هذه النكسات التي أصابتها منذ البداية ، إلا أن مالوري تشعر بأنهم يمضون قدما ، وهذا يشحذ همتها . الطيور تشدو بأيكها الآن وقد طلعت الشمس ، والحيوانات تطوف وسط الأغصان الكثيفة في الغابة المحيطة بهم . الأسماك تقفز في الماء محدثة طرطشات صغيرة تكهرب أعصاب مالوري . كل هذا تسمعه ولا ترى شيئا منه .

منذ ولادتهما دَرَّبَ الطفلان على إدراك أصوات الغابة . عندما كانا رضيعين ، كانت مالوري تلف قمصانا على أعينهما وتحملهما إلى طرف الغابة . هنالك ، ورغم علمها أنهما كانا أصغر من أن يفهما ما تقوله لهما ، كانت تصف لهما أصوات الغابة .

أوراق شجر تتكسر ، تقول . *حيوان صغير* ، *يشبه الأرنب* ، مع

علمها أنه قد يكون شيئا أخطر بكثير . أخطر حتى من الدببة . في تلك الأيام والأيام التي تلتها ، عندما كبر الطفلان بما يكفي ليتعلما ، درَّبت مالوري نفسها وهي تدربهما . لكنها لن تبرع أبدا في الإنصات كما سيفعلان هما ذات يوم . كانت هي في الرابعة والعشرين من عمرها عندما استطاعت أن تميز بين صوت قطرة مطر وصوت نقرة على النافذة بالاعتماد على سمعها فقط ، فلقد شبت وتربت على *النظر* . هل جعل ذلك منها معلمة فاشلة؟ عندما جلبت معها إلى المنزل أوراق شجر وطلبت من الطفلين وهما معصوبا الأعين أن يميزا بين الصوت الذي تحدثه عندما تدوس بقدمها على ورقة وذلك الذي تحدثه عندما تسحق الورقة بيدها ، هل أحسنت بذلك اختيار الدرس؟

إلى أي مدى يمكن لأحدنا أن يسمع؟

الصبي يحب الأسماك ، هي تعلم ذلك . كثيرا ما كانت مالوري تصطاد سمكة من النهر باستخدام قصبة صيد صدئة صنعتها من مطرية وجدتها في العلية . كان الولد يستمتع برؤيتها تقفز في ماء الدلو في المطبخ ، ثم اعتاد على رسمها أيضا . مالوري تتذكر كيف فكرت حينها أن عليها أن تمسك بكل ما يدب على سطح الأرض من حشرات أو حيوانات وتجلبها للمنزل ليراها الطفلان ويعرفا شكلها . ما الذي سيحبانه إن سنحت لهما فرصة رؤيته؟ ماذا سيكون رأي البنت في ثعلب؟ أو راكون؟ حتى السيارات كانت بالنسبة لهما شيئا خارقا للعادة ، وهما اللذان لم يريا منها إلا رسومات مالوري البدائية . وكذلك الأمر مع الجِزم والأدغال والحدائق وواجهات المحلات والبنايات والشوارع والنجوم . ولأجل ذلك كانت ستجد نفسها مضطرة لخلق العالم لأجلهما من جديد .

لكن أفضل ما حصلا عليه هو الأسماك ، ولقد أحبها الصبي كثيرا .

هي الآن ، على النهر ، تخشى ، إذ تسمع طرطشة خفيفة أخرى ، أن يدفعه فضوله إلى أن ينضو عنه عصابته .

إلى أي مدى يمكن لأحدنا لأن يسمع؟

مالوري تريد من الطفلين إلى أن ينصتا *إلى الأشجار* ، *إلى الريح* ، *إلى* ضفاف الطين التي تؤدي إلى عالم كامل من الكائنات الحية . النهر مدرج ، ومالوري تتأمل وهي تجذف .

لكنه قبر أيضا .

يجب على الطفلين أن ينصتا .

مالوري لا تستطيع أن تطرد عنها صور الأيدي تنبثق من الظلام وتمسك برأسي الطفلين وتعمد إلى فك العصابتين اللتين تحميهما .

وإذ تتنفس مالوري بصعوبة والعرق يسحُّ منها ، ترجو مالوري أن يكون ممكنا للمرء أن يشق بسمعه طريقه إلى بر الأمان .

الفصل الرابع

مالوري هي التي تقود . الأختان تستعملان سيارتها الفورد فيستيفا ١٩٩٩ لأن خزان البنزين فيها أكبر . ورغم أنهما لم تبتعدا عن المنزل أكثر من ثلاثة أميال ، إلا أن الدلائل على أن الأمور تغيرت ما فتئت تترى .

«أنظري!» تقول شانون وهي تشير إلى عدة منازل «أغطية على النوافذ» .

تحاول مالوري أن تنتبه إلى ما تقوله شانون لكن أفكارها ما تنفك تعود إلى بطنها . صحيح أن انتشار التقرير الروسي المحموم في وسائل الإعلام يقلقها لكنها لا تحمله على محمل الجد بقدر ما تفعل أختها . ثمة أشخاص آخرون على شبكة الإنترنت ، مثل مالوري ، أكثر تشككا . لقد قرأت مدونات ، خصوصا مدونة اسمها حمقى ، تنشر صورا لأناس يأخذون حِذرهم ، ثم تضيف تحتها تعليقات ساخرة . وبينما تشير شانون إلى النافذة ثم تغطي عينيها ، تفكر مالوري في واحدة منها . الصورة لامرأة تعلق بطانية على نافذتها ، وتحت الصورة كتب التعليق التالي : حبيبي ، *ما رأيك في أن ننقل الفراش إلى هنا؟*

«لا يصدق!»

تومئ مالوري بصمت ، وتستدير بالسيارة إلى اليسار .

«بحقك» ، تقول شانون ، «لا تنكري ، لم يعد بالإمكان تجاهل ما يحصل» .

جزء من مالوري يوافق . الأمر فعلا مثير للاهتمام ولم يعد ممكناً تجاهله . على جانب الطريق يمر زوجان يرفعان صحيفتيهما إلى وجهيهما ، وترى بعض السائقين وقد قلبوا مرآة الرؤية الخلفية في سياراتهم . بذهن شارد ، تتساءل مالوري إن كانت هذه علامات على أن الناس بدأوا يعتقدون أن ثمة خطبا ما . وإن كان كذلك ، فما هو؟

«أنا لا أفهم» ، تقول مالوري ، جزء منها يحاول أن يلهيها عما يدور برأسها من أفكار بينما الجزء الآخر قد بدأ يولي اهتماما لما يحدث .

«ما الذي لا تفهمينه؟»

«أيظنون أنه من الخطر أن ينظروا إلى الخارج؟ أن ينظروا إلى *أي* شيء؟»

«نعم» ، تقول شانون ، «هذا هو بالضبط ما يعتقدونه . ما فتئت أخبرك بذلك»

لطالما كانت شانون ، تقول لنفسها مالوري ، تضخم الأمور .

«حسنا ، يبدو لي هذا ضربا من الجنون» ، تقول ، «وانظري إلى ذلك الرجل!»

تنظر شانون إلى حيث تشير مالوري ، ثم تشيح بنظرها . رجل يرتدي بذلة رجال أعمال يسير وفي يديه عصا للعميان وعيناه مغمضتان .

«لا أحد يخجل من أن يتصرف بهذا الشكل .» تقول شانون وهي تنظر إلى موضع قدميها ، «إلى هذا الحد صارت الأمور غريبة»

تتوقفان أمام متجر ستوكيلي دراغز ، وشانون ترفع يديها لتغطي بهما عينيها . تنتبه مالوري لذلك ثم تنظر إلى موقف السيارات فترى أشخاصا يفعلون ما تفعله أختها .

«ما الذي تخشين رؤيته؟» تسأل .

«لا أحد يعلم بعد»

لقد رأت مالوري لافتة المتجر الصفراء الكبيرة مئات المرات ، لكنها لم تبد لها منفرة إلى هذا الحد من قبل .

لنذهب ونشترِ لك اختبارك الأول ، تقول لنفسها وهي تخرج من السيارة . تجتاز الأختان موقف السيارات .

«أعتقد أننا سنجدها في جناح الأدوية» ، تهمس شانون وتفتح باب المتجر وهي لا تزال تغطي عينيها .

«شانون ، كفي عن هذا»

تتقدم مالوري إلى جناح التخطيط العائلي . على الرفوف تجد فيرست ريسبونس ، كليربلوإيزي ، نيوتشويس ، وست ماركات أخرى .

«ما أكثرها» ، تقول شانون وهي تتناول واحدة من على الرف ، «ألم يعد الناس يستخدمون الواقيات؟»

«أيّها آخذ؟»

تهز شانون كتفيها . «كلها تبدو لي متشابهة»

على مقربة منهما في الجناح يفتح رجل علبة ضمادات ويضع أحدها على عينيه .

تجلب الأختان اختبار الحمل إلى طاولة المتجر . أندرو هو من يعمل اليوم . هو شاب في مثل سن شانون وقد طلب منها موعدا مرة . تتمنى مالوري أن تمر هذه اللحظة بأسرع ما يمكن .

«عجبا» ، يقول وهو يمرر العلبة على الآلة الماسحة .

«اخرس يا أندرو» ، تقول شانون ، «هذا لكلبتنا»

«صار عندكما كلبة؟»

«أجل» ، تقول شانون وتتناول الكيس الذي وضع فيه العلبة ، «و هي محبوبة جدا في حيِّنا» .

بالنسبة لمالوري ، العودة إلى المنزل عذاب لا يحتمل . كيس البلاستيك القابع بين مقعديهما يقول لها إن حياتها لم تعد كما كانت .

«أنظري» ، تقول شانون ، وهي تشير إلى زجاج النافذة باليد نفسها التي تغطي بها عينيها .

ببطء تقترب الأختان من إشارة توقف ، وتشاهدان خارج المنزل في زاوية الشارع امرأة تقف على سلم صغير تسمر لحافا على المشربية .

«عندما نعود سأفعل الشيء نفسه» ، تقول شانون .

«شانون»

حيهما ، وهو المكتظ عادة بأطفال الجيران ، فارغ . لا دراجات زرقاء عليها ملصقات ولا مضارب للعب كرة القاعدة .

ما أن تدخلا حتى تتوجه مالوري إلى الحمام وبلا إبطاء تفتح شانون التلفاز .

«أعتقد أن كل ما عليك فعله هو أن تتبولي عليه يا مالوري!» تصرخ شانون .

بإمكان مالوري أن تسمع الأخبار وهي في الحمام .

عندما تصل شانون إلى باب الحمام ، تجد مالوري تحدق في الخط الوردي وهي تهز برأسها .

«يا إلهي» ، تقول شانون .

«علي أن أهاتف بابا وماما» ، تقول مالوري وجزء منها يشد من عزمها فهي تعلم أنها ، رغم أنها عزباء ، ستحتفظ بالطفل .

«علينا أن نخبر هنري مارتن» تقول شانون

تلقي مالوري على أختها نظرة سريعة . لقد أيقنت منذ الصباح أن هنري مارتن لن يساهم بكثير أو قليل في تربية هذا الطفل ، وبطريقة ما ، وطنت نفسها على ذلك . تسير شانون معها إلى غرفة الجلوس ، حيث الصناديق المملوءة بأمتعة لم تفتح بعد مبعثرة أمام التلفزيون . على الشاشة تعرض جنازة ، ومقدم الأخبار في السي أن أن يعلق عليها . تقترب شانون من التلفاز وتخفض الصوت ، بينما تجلس مالوري على الأريكة وتخابر هنري مارتن من هاتفها المحمول .

لا يجيب ، فتكتب له رسالة قصيرة .

أمر هام . اتصل بي حالما تستطيع .

وإذ بشانون تقفز من على الأريكة وتصرخ

«هل رأيت هذا يا مالوري؟ حادث في ميتشيغان! أظنهم قالوا إن الأمر حصل في أعالي ميتشيغان!»

تفكر مالوري مباشرة في والديهما . وإذ ترفع شانون الصوت من جديد ، تسمع الأختان أن زوجين متقدمين في السن من آيرون ماونتن وجدا مشنوقين على شجرة في غابة قريبة من منزلهما . مقدم الأخبار يقول إنهما قد استخدما حزاميهما .

تتصل مالوري بأمها ، التي تجيب بعد رنتين .

«مالوري»

«ماما»

«تتصلين بسبب كل تلك الأنباء ، أليس كذلك؟»

«كلا يا ماما ، أنا حبلى»

«يا إلهي ، مالوري» ، تصمت أمها لبرهة ، ومالوري تسمع صوت تلفازها . «هل أنت على علاقة جادة بأحدهم؟»

«كلا ، حدث ذلك عرضا»

شانون واقفة أمام التلفزيون الآن وعيناها جاحظتان ، تشير إليه كما لتذكر مالوري بمدى خطورة الأمر ، بينما أمها صامتة على الهاتف .

«ماما هل أنت بخير؟»

«حسنا ، أنا الآن قلقة بشأنك أنت يا عزيزتي»

«نعم ، ليس هذا بالوقت المناسب»

«في أي مرحلة أنت من الحمل؟»

«أظنني في الأسبوع الخامس ، أو السادس ربما»

«و ستحتفظين بالطفل؟ هل اتخذت قرارك وانتهى الأمر؟»

«نعم . أعني ، لقد اكتشفت الأمر للتو ، منذ دقائق فقط ، لكن أجل سأحتفظ به .»

«هل أخبرت والده؟»

«كتبت له ، وسأتصل به»

تصمت مالوري ثم تردف قائلة

«ماما ، هل أنت آمنة هناك؟ هل أنت بخير؟»

«لا أعلم ، حقا لا أعلم . لا أحد منا يعلم وجميعنا خائفون جدا . لكني الآن قلقة بشأنك أكثر»

على الشاشة ، تحاول امرأة أن تفسر ما الذي حدث ، مستعينة في ذلك برسم بياني . ترسم خطا من الطريق الفرعية حيث وُجدت سيارة الزوجين ، بينما تخبر مالوري أمُّها أنها تعرف شخصا يعرف الزوجين . تقول إن اسمهما هو ميكونن . المرأة في التلفزيون الآن واقفة على ما يبدو أنه عشب ملطخ بالدم .

«يا إلهي» تقول شانون .

«آه، ليت أباك في المنزل»، تقول أمهما، «وأنت حبلى، أوه مالوري»

تمسك شانون بالسماعة، وتسأل أمهما إن كانت تعلم تفاصيل أكثر مما قيل في نشرة الأخبار. ما الذي يقوله الناس هناك؟ هل هذا هو الحادث الوحيد؟ هل بدأ الناس يحتاطون؟

بينما شانون تتكلم على الهاتف باهتياج، تنهض مالوري من على الأريكة. تتقدم إلى باب المنزل وتفتحه. تنظر إلى طرفي الطريق وتتساءل، *هل الخطب جلل حقا؟ وإلى أي حد؟*

لا جيران في الخارج ولا وجوه على نوافذ المنازل الأخرى. تمر سيارة ومالوري لا تستطيع أن ترى وجه السائق لأنه يغطيه بيده.

على عشب الممشى صحيفة الصباح. تتقدم مالوري نحوها. العنوان الرئيسي يتحدث عن ارتفاع عدد الحوادث ويقول بكل بساطة: واحد آخر. لعل شانون أخبرتها بكل ما ستجده في الصحيفة. تلتقطها مالوري وتقلبها فيستوقفها شيء في الصفحة الأخيرة.

إنه إعلان مبوب. منزل في ريفربريدج يفتح أبوابه للغرباء. «منزل آمن» كما يقول الإعلان. ملاذ. مكان يأمل أصحابه أن يتحول إلى «قدس الأقداس» بينما الأنباء المخيفة تترى كل يوم.

تنظر مالوري إلى الشارع من جديد وتشعر لأول مرة بالذعر يخزها وخزا. تشاهد باب أحد الجيران يفتح ثم يغلق بسرعة. تستدير مالوري والصحيفة لا تزال في يدها لتنظر إلى منزلها حيث صوت التلفزيون لا يزال يزعق. في الداخل، على الحائط في أقصى غرفة الجلوس، شانون تسمر بطانية على إحدى نوافذ الغرفة.

«هيا»، تقول شانون، «ادخلي وأغلقي ذلك الباب.»

الفصل الخامس

ستة أشهر قبل ولادة الطفلين . حمل مالوري بدأ يظهر . البطانيات تغطي كل نوافذ المنزل . الباب الرئيسي دائما موصد ودائما مغلق . التقارير عن حوادث لا يمكن تفسيرها تتوالى بسرعة مقلقة . ما كان خبرا استثنائيا يظهر مرة أو مرتين في الأسبوع صار الآن يأتي كل يوم . المسؤولون يحاورون على التلفزيون . وبسبب القصص القادمة من الشرق وصولا إلى ماين ومن الجنوب وصولا إلى فلوريدا ، صارت الأختان تحتاطان الآن . شانون ، التي تزور عشرات المدونات كل يوم ، تهجس بعدد من المخاوف التي تأتيها من كل ما تقرأ . أما مالوري فلا تعرف ما تصدق . في كل ساعة تظهر قصص جديدة على الشبكة ، وهي شغل الناس الشاغل على شبكات التواصل الاجتماعي والموضوع الوحيد الذي تتحدث عنه الصحف ، وثمة مواقع اجتماعية جديدة مخصصة كليا لتتبع كل ما يجد من جديد عن الموضوع . على أحد هذه المواقع لا ترى إلا خريطة للعالم مع وجوه صغيرة حمراء على المدن التي حصل فيها شيء ما . آخر مرة تفقدت فيها مالوري الخريطة ، كان هنالك أكثر من ثلاثمائة وجه . على الشبكة ، الناس يسمونها «المشكلة» ، وثمة اعتقاد شائع أنه مهما تكن هذه «المشكلة» فهي بالتأكيد تبدأ عندما *يرى أحدهم شيئا ما* .

ولقد حاولت مالوري ما أمكنها ذلك أن تمنع نفسها من تصديق الأمر . وتجادلت الأختان بشأن ذلك باستمرار ، مالوري تستشهد

بالصفحات التي تسخر من الهيستيريا الجماعية بينما تستشهد شانون بكل شيء آخر. لكن سرعان ما اضطرت مالوري إلى أن تخفف من غلوائها عندما راح القائمون على الصفحات التي كانت تزورها ينشرون قصصا عن أحبائهم ثم تقدموا أكثر وأبدوا بعض القلق.

صُدوع، قالت لنفسها مالوري عندئذ، *وقد بدأت تظهر حتى عند أعتى المتشككين*.

مرت أيام عاشت فيها مالوري ما يشبه الحياتين. لم تعد الأختان تغادران المنزل وكلتاهما عملتا على أن تغطى كل النوافذ. وراحتا تشاهدان قنوات سي أن أن وأم أس أن بي سي وفوكس إلى أن يصيبهما الإرهاق من مشاهدة التقارير نفسها مرارا وتكرارا. وبينما ازدادت شانون جدية بل وعبوسا، تمسكت مالوري بخيط رفيع من الأمل في أن يزول كل هذا من تلقاء نفسه.

لكن ذلك لم يحصل، بل ازداد الأمر سوءا.

بعد ثلاثة أشهر من عيشهما كالسجينتين، تحققت أسوأ مخاوف مالوري وشانون عندما لم يعد والداهما يجيبان على اتصالاتهما، ولا على رسائلهما الإلكترونية أيضا.

أرادت مالوري أن تذهب بسيارتها إلى أعالي ميتشيغان لكن شانون رفضت.

«لنأمل أنهما بخير يا مالوري. لنأمل أن هاتفهما قد تعطل. سيكون علينا أن نكتفي بذلك. سيكون من الغباء أن نذهب بالسيارة الآن إلى أي مكان، ولو كان ذلك إلى المتجر، فما بالك بأن نقود السيارة لتسع ساعات، سيكون ذلك انتحارا.»

«المشكلة» تنتهي هي أيضا بالانتحار. ولكثرة ما استعمل

مقدمو الأخبار في فوكس نيوز هذه الكلمة صاروا يستبدلونها بمرادفات . «تدمير الذات» . «التضحية بالذات» . «هارا كاري» . ووصفها أحدهم بعبارة «محو الذات» لكن هذه العبارة لم يكتب لها النجاح . وراحت شاشات التلفزيون تعرض تعليمات الحكومة وفرض حظر تجول على مستوى البلاد . وطلب إلى السكان أن يغلقوا عليهم أبوابهم ويغطوا نوافذهم وفوق كل شيء ألا ينظروا إلى الخارج . وغابت الموسيقى من محطات الإذاعة كليا لتحل محلها النقاشات .

حصار . تقول لنفسها مالوري ، *العالم* ، *كل ما هو بالخارج ، يغلق أبوابه* .

لا أحد يحير جوابا . لا أحد يعلم ما الذي يجري . الناس يرون شيئا ما يدفعهم إلى إيذاء غيرهم . وإلى إيذاء أنفسهم .

الناس يموتون .

ولكن لماذا؟

تحاول مالوري أن تهدئ من روعها بأن تركز تفكيرها على الطفل الذي ينمو في أحشائها . يبدو أن كل الأعراض المذكورة في دليل الحمل ، حبلى ، قد أصابتها . نزف خفيف ، احتقان في الثدي ، وتعب . تلاحظ شانون تقلب مزاج مالوري ، لكن ما يدفعها حقا للجنون هو الوحم . الأختان خائفتان من الخروج ولذلك فهما عالقتان مع ما خزنتاه من أطعمة بعيد شرائهما اختبار الحمل . لكن ذوق مالوري قد تبدل وصار الطعام المعهود ينفرها ، فإذا هي تخلط بين الأطعمة ، كعك شوكولا بالبرتقال ، دجاج مع صلصة كوكتيل ، سمك نيئ مع خبز محمص ، وتحلم بالبوظة . وكم من مرة تنظر إلى باب المنزل وتقول لنفسها ما أسهل أن تجلس خلف مقود السيارة

وتذهب إلى المتجر ، فهي تعلم أن ذلك لن يستغرق أكثر من ربع ساعة . لكنها ما أن تجنح إلى تنفيذ فكرتها حتى يطلع التلفزيون بقصة مرعبة أخرى . ثم ، من يعلم إن كان الموظفون لا يزالون يأتون إلى المتجر؟

«برأيك ما الذي يراه الناس؟» تسأل مالوري شانون .

«لا أدري يا مال . حقا لا أدري»

تسأل الأختان بعضهما هذه الأسئلة باستمرار . ومن المستحيل الإحاطة بكل التفسيرات التي تقدم على الإنترنت . كلها تصيب مالوري بالذعر الشديد . المرض العقلي بسبب أمواج الإذاعة في التكنولوجيا اللاسلكية هو أحد هذه التفسيرات . ثمة تفسير آخر يقول بطفرة خاطئة في تطور الجنس البشري . أما دعاة «العصر الجديد»[1] فيقولون إن الأمر راجع لاتصال الإنسانية بكوكب على وشك الانفجار أو شمس على وشك الأفول .

بعضهم يؤمن بأن ثمة مخلوقات ما تجوس في الخارج .

أما الحكومة فلا تقول شيئا إلا أن أوصدوا أبوابكم .

مالوري جالسة لوحدها على الأريكة ، تدلك بطنها ببطء وتشاهد التلفزيون . ما يقلقها هو أنه لا شيء مبهج لتشاهده وأن الطفل يحس بما تحس به من قلق . لقد أخبرها كتاب حبلى أن ذلك قد يحصل . أن الطفل سيشعر بما تشعر به أمه . ومع ذلك فهي لا تستطيع أن تشيح بوجهها عن الشاشة . الحاسوب خلفها على المكتب بجانب الحائط شغال وصوت الإذاعة خافت . في هذا الجو

---

(١) «العصر الجديد» تيار ديني روحي جديد ظهر في العالم الغربي وهو خليط من معتقدات قديمة وحديثة مختلفة . [المترجم]

مالوري تشعر كأنها في غرفة للعمليات العسكرية ، في المركز ، بينما كل شيء من حولها ينهار . يغمرها هذا الشعور ويرعبها . الإعلانات لم يعد لها مكان على شاشة التلفزيون ، ومقدمو الأخبار يصمتون طويلا ويعبرون بلا خجل عن دهشتهم وحيرتهم عندما تردهم آخر الأخبار أثناء البث المباشر .

أعلى من كل طنين وسائل الإعلام ، تسمع مالوري شانون تروح وتجيء في الطابق الأول .

ثم ، بينما غابرييل تاونز وهو أحد مقدمي الأخبار الرئيسيين في السي أن أن يقرأ بصمت ورقة قدمت له للتو ، إذا مالوري تسمع صوت سقطة قادما من فوق ، فتنتبه .

«شانون» ، تنادي مالوري ، «هل أنت بخير؟»

غابرييل تاونز لا يبدو بخير . لقد ظهر على التلفزون كثيرا في الفترة الأخيرة ، فلقد أعلنت سي أن أن الكثير من صحفييها قد كفوا عن المجيء إلى مقر القناة . أما تاونز فصار يمضي لياليه هناك . «سنجتاز هذه المحنة معا» هو شعاره الجديد . لم تعد تصفيفة شعره مثالية كما في السابق ولم يعد يضع إلا قليلا من المساحيق على وجهه . وصار يلقي الأنباء بصوت أكثر فأكثر نشازا ويبدو كالغريق .

«شانون؟ انزلي . يبدو أن تاونز لديه أخبار جديدة»

لكنها لا تتلقى أي إجابة من فوق . ليس إلا الصمت . تقف مالوري وتخفض صوت التلفزيون .

«شانون؟»

بهدوء ، غابرييل تاونز يناقش حادثة قطع رأس حصلت في توليدو ، أي على بعد أقل من ثمانين ميلا من حيث تشاهد مالوري التلفزيون .

«شانون؟! ماذا تفعلين فوق؟»

لا إجابة . تاونز يتحدث بهدوء على التلفزيون . لا رسوم بيانية . لا موسيقى . ولا إضافات .

تقف مالوري في وسط الغرفة وترفع رأسها للسقف . تخفض صوت التلفزيون أكثر ، ثم تطفئ الراديو وتتجه إلى الدرج .

عند الدرابزين ، ترفع رأسها ببطء لتنظر إلى بسطة الدرج المفروشة بالسجاد ، لكن شعاعا نحيفا يرش الحائط بما يبدو أنه نور الشمس . تضع مالوري يدها على الخشب وتتقدم إلى السجاد . تنظر خلفها ، إلى باب المنزل ، وتتخيل مزيجا من كل ما سمعته من تقارير .

تصعد الدرج .

«شانون؟»

هي الآن في الأعلى ، ترتجف . وإذ تتقدم إلى الرواق ، ترى نور الشمس قادما من غرفة شانون . ببطء تتقدم من الباب المفتوح وتلقي نظرة بالداخل .

جزء من النافذة مكشوف ، وأحد أطراف البطانية يتدلى بعد أن انفك من رباطه .

بسرعة تشيح مالوري بوجهها . ثمة صمت وهدوء ، وهمهمة خافتة من التلفزيون في الأسفل .

«شانون؟»

في آخر الرواق ، باب الحمام مفتوح . النور مضاء . تتقدم مالوري صوبه . تصل إلى هناك ، فتحبس أنفسها وتستدير لتنظر .

شانون ممدة على الأرض ، وجهها إلى السقف ومقص يبرز من صدرها . الدم يحيط بها ويتدفق على البلاط . وكأن الدم أكثر مما يمكن لجسدها أن يحمله .

تصرخ مالوري . تتكأ على إطار الباب وتنزلق إلى الأرض وهي تولول . ضوء الحمام الساطع يكشف كل التفاصيل . عيني أختها الجامدتين ، وقميصَها الذي ينغرز في صدرها مع نصل المقص .

تزحف مالوري إلى المغطس وتتقيأ . دم أختها يلطخها . تحاول أن توقظ شانون لكنها تعلم أن ذلك لن يحصل . تقف مالوري وهي تكلم شانون وتقول لها أنها ستذهب لتحضر المساعدة . تمسح الدم عن يديها وتركض إلى الأسفل لتجد هاتفها المحمول على الأريكة . تتصل بالشرطة . لا من مجيب . تتصل مرة أخرى ، ولا من مجيب ، فتتصل بوالديها . فلا يجيب أحد أيضا . تستدير وتركض إلى الباب . عليها أن تحضر المساعدة . تمسك بمقبض الباب لكنها لا تستطيع أن تديره .

يا إلهي ، تقول مالوري لنفسها ، *لا يمكن أن تقدم شانون على فعل كهذا بإرادتها . يا إلهي ، الأمر حقيقة! ثمة شيء ما في الخارج .*

ومهما يكن ما رأته شانون ، فلا بد أنه قريب من المنزل .

قطعة من الخشب هي كل ما يفصلها عما قتل أختَها ، عما *رأته* أختُها .

تسمع عويل الريح وراء الخشب ، ولا صوت آخر . لا سيارات . لا جيران . لا شيء غير السكون .

وحيدة هي . وفجأة ، تدرك إلى حد الألم أنها بحاجة لشخص إلى جانبها ، أنها بحاجة إلى الأمن . عليها أن تجد طريقة تغادر بها هذا المنزل .

تهرع مالوري إلى المطبخ وصورة شانون تحفر ذهنها . هنالك ، تحت المغطس ، تمد يدها وتخرج رزمة من الجرائد . تفتش فيها بلا

تفكير . تتنفس بصعوبة وعيناها جاحظتان بينما تتفقد الصفحة الأخيرة من كل صحيفة .

أخيرا ، تجده .

الإعلان المبوب . ريفربريدج . غرباء يدعون غرباء إلى منزلهم . تقرأه مالوري مرة أخرى . ثم مرة أخرى . تجثو على ركبتيها وهي تقبض على الصحيفة .

ريفربريدج على مسيرة عشرين دقيقة . لقد رأت شانون شيئا ما بالخارج ، وقتلها ذلك . يجب على مالوري أن توصل نفسها وطفلها إلى بر الأمان .

فجأة ، يجرف سيل عرم من الدموع الحارة أنفاسها الثقيلة . هي لا تعرف ما الذي عليها فعله وهي خائفة كما لم تخف من قبل . كل شيء فيها ساخن ، وكأنها تحترق .

ترفع صوتها بالنحيب . وبعينين مخضلتين بالدمع ، تقرأ الإعلان مرة أخرى .

ودموعها تتساقط على الصحيفة .

الفصل السادس

«ما الأمر يا صبي؟»

«هل سمعت ذلك؟»

«ماذا؟ ما الذي سمعته؟ تكلم!»

«أنصتي»

تنصت مالوري . تكف عن التجذيف وتنصت . هنالك الريح ، والنهر . هنالك زعيق العصافير الحاد في البعيد ومن حين لآخر حركة حيوانات صغيرة على الأشجار . هنالك أيضا نَفَسها وقلبها إذ يخفق . ومن وراء كل هذا الضجيج ، من مكان ما *داخله* ، يأتيها صوت وفورا تخافه .

شيء *ما* على الماء معهم .

«لا تتكلما!» تهمس مالوري

الطفلان صامتان . تضع المجذافين على ساقيها المنثنيتين وتتجمد .

شيء كبير على الماء أمامهما . شيء يرتفع ويرتطم بالماء .

مع كل ما بذلته من جهد لتقي طفليها من الجنون ، تتساءل مالوري إن كانت مستعدة بما فيه الكفاية لتواجه خطوب العالم القديمة .

كالحيوانات المتوحشة التي قد تطالب باسترداد نهر لم يعد البشر يأتونه .

يميل القارب على يسار مالوري ، وتشعر بحرارة شيء يلمس

الحافة الفولاذية حيث أسند المجذافان .

الطيور على الأشجار هادئة الآن . تحبس مالوري أنفاسها وهي تفكر بالطفلين .

ما هذا الذي يعبث بمقدمة قاربهم؟

هل هو مخلوق ما؟ تسأل نفسها مذعورة ، *يا إلهي أرجوك لا ، ليكن حيوانا ، أرجوك!*

مالوري تعلم أنه حتى ولو نضا الطفلان عنهما عصابتيهما ، حتى ولو صرخا قبل أن يفقدا عقليهما ، فهي لن تفتح عينيها .

مالوري لا تجذف ، لكن القارب يتحرك من جديد . تمسك بمجذاف وتستعد لتضرب به .

لكنها تسمع صوت الماء وهو ينشق . الشيء يتحرك . صار صوته بعيدا . مالوري تتنفس بصعوبة حتى أنها تشهق .

تسمع حسيسا بين الأغصان على الضفة إلى يسارها وتتخيل أن الشيء قد زحف إلى الشاطئ .

أو لعله مشى .

هل ثمة مخلوق واقف هناك؟ يتفحص فروع الأشجار والطين عند قدميه؟

تذكرها أفكار كهذه بتوم . توم اللطيف ، الذي أمضى كل ساعة من كل يوم يحاول أن يجد طريقة ما لينجو في هذا العالم الجديد المرعب . تود لو أنه هنا . كان سيعرف أيّ شيء أصدر ذاك الصوت .

إنه دب أسود . تقول لنفسها .

الطيور تغرد من جديد ، وتستمر الحياة على الأشجار .

«أحسنتما صنعا» تقول لاهثة ، والإجهاد يخنق صوتها .

تبدأ بالتجذيف وسرعان ما يأتيها صوت البنت وهي تتلمس

قطع المُربِكة فينضم إلى صوت المجذافين في الماء .

تتخيل الطفلين ، وقد أعمتهما عصابتاهما ، والشمس تعمي عينيهما أكثر والنهر يجرفهما في مجراه . عصابتها مربوطة بإحكام على رأسها ، مبللة ، وتهيج الجلد خلف أذنيها . وهي أحيانا تستطيع أن تتجاهل ، لكن أحيانا أخرى كل ما تستطيع التفكير فيه هو أن تحك جلدها . ولذلك ، فهي تغمس أصابعها بانتظام في النهر رغم البرد وتبلل القماش حيث يحكها . فوق أذنيها مباشرة . في قصبة أنفها وفي قفاها حيث عقدة العصابة . القماش المبلل يخفف عنها بعض الشيء لكن مالوري لن تعتاد أبدا بشكل كلي على الإحساس بالقماش يلامس وجهها . حتى عيناها ، تقول لنفسها وهي تجذف ، حتى *أهدابها* ، صارت تخاف من القماش .

دب *أسود* ، تقول لنفسها مرة أخرى .

لكنها ليست على يقين من ذلك .

لقد خيمت أسئلة مثل هذه على كل فعل أتته مالوري خلال السنوات الأربع والنصف الأخيرة . منذ اللحظة التي قررت فيها أن تجيب على الإعلان المبوب ومنذ لحظة وصولها إلى ريفيربريدج . وكل صوت سمعته منذ ذلك الحين ارتسم في ذهنها صورةً لما هو أسوأ بكثير من مجرد حيوان من تلك التي تدب على وجه الأرض .

«أحسنتما صنعا» ، تقول مالوري للطفلين وهي ترتعد . هي تريد بذلك طمأنتهما لكن صوتها يشي بما ينتابها من خوف .

الفصل السابع

ريفربريدج .

سبق لمالوري أن جاءت إلى هذه المنطقة مرة ، قبل عدة سنوات . كان ذلك لأجل حفلة من حفلات رأس السنة ، وهي لا تكاد تذكر اسم من نظمتها . مارسي . . . ماريبال ، ربما . كانت شانون تعرفها وشانون هي التي قادت السيارة في تلك الليلة . كان الثلج بدأ يذوب في الطرقات وتشكلت على جوانبها ضفاف قذرة منه . وترى المحتفلين يمذقون مشروباتهم بالثلج المتراكم على السقف . وتجرد أحدهم من ملابسه حتى غدا شبه عار وكتب «٢٠٠٩» على الثلج . أما الآن فالصيف في ذروته . شهر يوليو قد انتصف ، ومالوري هي التي تقود . مذعورةً ، وحيدةً ، وحزينةً .

الرحلة إلى ريفربريدج عذاب ما بعده عذاب . وهي تقود بسرعة لا تتجاوز خمسة عشر ميلا في الساعة ، تبحث مالوري باضطراب علها تجد لافتات وسيارات أخرى . تغمض عينيها ، ثم تفتحهما من جديد ، كل هذا وهي تقود .

الشوارع فارغة . كل منزل تمر به نوافذه مغطاة ببطانيات أو بألواح خشبية . واجهات المحلات فارغة . مواقف السيارات أمام المراكز التجارية قاحلة . تثبت عينيها مباشرة على ما يليها من الطريق وتقود ، مقتفية المسلك الذي علّمته على خريطة وضعتها بجانبها . يداها على المقود واهنتان ، وعيناها تؤلمانها من فرط البكاء ، ويستحوذ

عليها شعور جارف بالذنب أنها خلّفت وراءها أختها ، ميتة ، ممددة على أرض الحمام في منزلهما .

لم تدفنها ، بل رحلت وحسب .

لم يرفع أحد في المستشفيات سماعة الهاتف ، وكذلك في الدور الجنائزية . غطتها مالوري ، أو غطت جزءا منها ، بوشاح أزرق وأصفر كانت شانون تحبه .

صوت الراديو يأتي ويغيب . ثمة رجل يتحدث عن احتمال شن حرب . إن تحالف كل البشر ، كما يقول ، ثم يتشوش البث . على جانب الطريق سيارة مهجورة . الأبواب مفتوحة ، وثمة سترة تتدلى من على مقعد السائق وتلامس الأرض . بسرعة تنظر مالوري أمامها ، ثم تغمض عينيها ، ثم تفتحهما .

الراديو يعمل . والرجل لا يزال يتحدث عن الحرب . يتحرك شيء ما من جهة اليمين وتراه بطرف عينها . لا تنظر إليه . تغمض عينها اليمنى . أمامها ، في وسط الطريق ، يحط طائر ثم يطير من جديد . عندما تصل مالوري إلى حيث حط الطائر تكتشف أن ما أثار فضوله كان كلبا ميتا . تمر مالوري فوقه ، فتترنح السيارة ويرتطم رأسها بالسقف ، وتهتز الحقيبة على المقعد الخلفي . تتملكها الرعدة . لم يبد الكلب ميتا وحسب ، بل بدا ملتويا . تغمض عينيها ، ثم تفتحهما .

يصيح طائر ما ، ربما الطائر نفسه ، في السماء . تمر مالوري براوند تري ستريت ، بالام ستريت ، هورتن . هي تعلم أنها اقتربت . يندفع شيء ما على يسارها . تغمض عينها اليسرى . تمر بشاحنة بريد فارغة والرسائل منثورة على الطريق . يحلق طائر منخفضا جدا حتى ليكاد يصطدم بزجاج السيارة الأمامي . تصرخ ، تغمض كلتا

عينيها ، وتفتحهما . وإذ تفعل ، تبصر لافتة الشارع التي تبحث عنها .

شيلينغهام .

تنعطف يمينا ، وتفرمل إذ تدور حول الزاوية إلى درب شنيلينغهام . لا حاجة بها لتفقد خريطتها لتتأكد من أن الرقم هو ٢٧٣ ، فهو لم يغب عن بالها طوال الرحلة .

ما عدا بعض السيارات المركونة مقابل منزل على اليمين ، الشارع فارغ . الحي طبيعي ، حي من الضواحي كما هو العهد به . البيوت في معظمها متشابهة ، وحدائقها كثيفة الأعشاب ، وكل النوافذ مغلفة . متلهفة تنظر مالوري إلى المنزل حيث السيارات مركونة وتدرك أنه المنزل الذي تبحث عنه .

تغمض عينيها وتدوس بعنف على المكابح .

تتنفس بصعوبة إذ تتوقف السيارة ، وصورة المنزل الشاحبة لا تفارق ذهنها .

المرآب إلى اليمين ، وبابه ذو اللون البيج مغلق . يستند سقف خشبي بني اللون على حائط أبيض وعلى الآجر . باب المنزل ذو لون بني أدكن . النوافذ مغطاة وثمة عُلِّية .

مغمضةَ العينين مستجمعةً شجاعتها ، تستدير مالوري وتمسك بمقبض حقيبتها . المنزل يبعد حوالى خمسين قدما من حيث توقفت . تعلم أنها ليست قريبة من الكابح ، ولا يهمها ذلك . تحاول أن تهدئ من روعها ، فتتنفس بعمق وببطء . الحقيبة بجانبها على مقعد الراكب . تنصت وعيناها مغمضتان ، وإذ لا تسمع شيئا خارج السيارة ، تفتح باب السائق وتخرج وهي تحمل متاعها .

الطفل يركل .

تلهث مالوري وتتعثر بأمتعتها . تكاد أن تفتح عينيها لتلقي نظرة على بطنها لكنها بدلا من ذلك تمد يدها إليه وتمسح عليه .

«لقد وصلنا» ، تهمس .

تتناول الحقيبة وتتقدم بحذر وهي لا ترى شيئا إلى حديقة المنزل الأمامية . تشعر بالعشب تحت قدميها فتحث السير وتتقدم بسرعة إلى دغل صغير . تخز الأشواك معصميها ووركيها . تتراجع وتنصت وتتحسس الإسمنت تحت حذائها وهي تتقدم بحذر إلى حيث تعتقد أن باب المنزل موجود .

وتصيب في ظنها . على سقيفة المدخل تلقي بحقيبتها وتمر بيدها على الجدار وتجد جرس الباب ، فتقرعه .

في البداية لا جواب يأتيها . يتملكها شعور قاتل بأنها وصلت إلى نهايتها . هل قادت سيارتها كل هذه المسافة ، وتحدت هذا العالم ، من أجل لا شيء؟ تقرع الجرس مرة أخرى ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، ولا جواب . تطرق الباب وتضربه بجنون .

لا أحد يجيبها .

ثم . . .تسمع أصواتا مكتومة قادمة من الداخل .

يا إلهي! أحدهم بالمنزل! أحدهم بالمنزل!

«مرحبا؟» تنادي بصوت خفيض . صوتها في الشارع المقفر يخيفها . «مرحبا! لقد قرأت الإعلان في الصحيفة!»

الصمت . تنتظر مالوري . ثم يناديها أحدهم .

«من أنت؟» يقول رجل ، «من أين أتيت؟»

يجتاح مالوري شعور بالراحة ، والأمل ، وتتملكها الرغبة في البكاء .

«اسمي مالوري! جئت بالسيارة من ويستكورت!»

لبرهة يحل الصمت . ثم ، «هل عيناك مغمضتان؟»
هذا صوت رجل آخر .
«نعم! عيناي مغمضتان»
«هل ظلتا مغمضتين طويلا؟»
فقط أدخلوني! ، تقول في نفسها . أدخلوني!
«لا» ، تجيب ، «أو نعم . لقد قدت السيارة قادمة من ويستكورت . لقد أغمضتهما ما أمكنني ذلك»
تسمع أصواتا خافتة . بعضها غاضب . القوم يتشاورون هل يدخلونها أم لا .
«لم أر شيئا!» تصرخ ، «أقسم لكم ، لا خطر عليكم مني . عيناي مغمضتان . أرجوكم . لقد قرأت الإعلان في الصحيفة»
«أبقيهما مغمضتين» ، يقول رجل أخيرا . «سنفتح الباب . عندما نفعل ، ادخلي بأسرع ما تستطيعين ، اتفقنا؟»
«اتفقنا . نعم . اتفقنا»
تنتظر . الهواء ساكن ، هادئ ، ولا يحدث شيء . ثم تسمع طقطقة الباب . بسرعة تتقدم . تمتد أيدي وتسحبها إلى الداخل . الباب يصفق وراءها .
«و الآن انتظري» ، تقول امرأة ، «علينا أن نتحسس من حولك . نريد أن نتأكد أنك دخلت لوحدك»
تقف مالوري مغمضة العينين وتنصت . وكأنهم يجسون الجدران بعصي المكانس . تلمس كتفيها ورقبتها وساقيها أيدي عديدة . أحدهم الآن خلفها ، وتسمع صوت أصابع على الباب المغلق .
«حسنا» ، يقول رجل ، «نحن بأمان»

تفتح مالوري عينيها وترى خمسة أشخاص يقفون مصطفين أمامها ، متراصين يملئون البهو . تتفرس فيهم ، ويتفرسون فيها . أحدهم يرتدي خوذة من نوع ما . ذراعاه يغطيهما ما يبدو أنها كُبَّة وأشرطة قطنية . من الكبة تبرز أقلام وأشياء حادة أخرى كأنها تصور طفل عن أسلحة العصور الوسطى . اثنان منهم يحملان عصي مكانس .

«مرحبا» ، يقول الرجل ذو الخوذة . «اسمي توم . طبعا تفهمين لماذا نفتح الباب بهذه الطريقة ، فقد يتسلل أي شيء معك عندما تدخلين»

رغم وجود الخوذة ، ترى مالوري أن لتوم شعرا يميل للشقرة . قسماته تنضح قوة ، وعيناه الزرقاوان تتقدان ذكاءً . هو ليس أطول كثيرا من مالوري ، وشعر ذقنه الذي لم يحلقه منذ عدة أيام يكاد يكون أحمر اللون .

«نعم أفهم» ، تقول مالوري

«ويستكورت» ، يقول توم وهو يتقدم نحوها ، «هذه رحلة طويلة . ما فعلته كان شجاعا للغاية . لم لا تجلسين لكي نتحدث عما رأيته خلال رحلتك؟»

تومئ مالوري لكنها لا تتحرك . تتمسك بحقيبتها وتضمها بشدة إليها حتى تشحب مفاصل أصابعها وتؤلمها . يتقدم منها رجل آخر أطول وأضخم .

«هاتي» يقول ، «دعيني أحمل هذه عنك»

«شكرا»

«اسمي جولز . أنا هنا منذ شهرين ، وكذلك معظمنا . أما توم ودون فلقد سبقانا بقليل»

شعر جولز الأسود القصير يبدو قذرا . كأنه كان يعمل في الخارج . يبدو طيب القلب .

تنظر مالوري إلى رفقاء السكن واحدا واحدا . هم أربعة رجال وامرأة .

«اسمي دون» ، يقول دون . شعره أسود هو أيضا ، وهو أطول قليلا من جولز . يرتدي سروالا أسود ، وقميصا بياقة مزررة شمره إلى المرفقين . يبدو أكبر سنا من مالوري ، سبعة وعشرون ، أو ثمانية وعشرون سنة . «لقد أخفتنا . لم يطرق أحد هذا الباب منذ أسابيع»

«أنا آسفة»

«لا عليك» ، يقول رابعهم ، «كلنا فعلنا ما فعلت . اسمي فيلكس»

فيلكس يبدو متعبا . تقول مالوري لنفسها إنه يبدو شابا . إحدى وعشرون ، أو اثنتان وعشرون سنة ، يكاد يشبه ، بأنفه الطويل وشعره البني الكث ، شخصيات الرسوم المتحركة . هو أطول قامة من جولز لكنه أنحف .

«و أنا اسمي شيريل» ، تقول المرأة وهي تمد يدها ، فتصافحها مالوري .

شيريل تبدو أقل ترحيبا بها من توم وفيلكس . شعرها البني يخفي جزءا من وجهها . ترتدي صدارا ، وهي أيضا تبدو وكأنها كانت تعمل .

«جولز ، هلا ساعدتني على خلع هذا الشيئ؟» يقول توم . يحاول أن يخلع عنه خوذته لكن درعه المرتجل يعيقه ، فيساعده جولز .

وإذ يخلع عنه الخوذة ، يتسنى لمالوري أن تراه أحسن من ذي قبل . شعره الرملي اللون منفوش فوق وجهه الجميل ، ومسحة النمش الخفيفة تسبغ عليه ألوانا . شعر لحيته لا يكاد يرى لكن شاربه أكثر ظهورا . قميصه الأسكتلندي القماش ذو الياقة المزررة وسرواله البني يذكران مالوري بأحد معلميها .

هي تراه لأول مرة ، ولذلك لا تكاد تنتبه إلى أنه ينظر إلى بطنها .

«لا أقصد الإساءة ، ولكن هل أنت حبلى؟»

«أجل» ، تقول بضعف ويتملكها الخوف من أن يكون حَبَلها حِمْلا ثقيلا عليهم .

«اللعنة» ، تقول شيريل ، «قولي إنك تمزحين!»

«شيريل» ، يقول توم ، «ستخيفينها»

«اسمعي يا مالوري ، اسمك مالوري ، أليس كذلك؟» ، تقول شيريل ، «أنا لا أقصد أن أكون لئيمة معك بما سأقول ، لكن استقبال امرأة حبلى في هذا المنزل مسؤولية كبيرة»

مالوري صامتة تقلب نظرها في وجوههم وتسجل ما يرتسم عليها من تعابير . يبدون منهمكين في تفحصها ليقرروا إن كانوا قادرين على إيواء امرأة ستضع مولودها إن عاجلا أم آجلا . وفجأة تدرك مالوري أنها لم تنظر أبدا إلى الأمر بهذا المنظار من قبل ، فلم يخطر لها على بال ، وهي تقود سيارتها إلى هنا ، أنه المكان الذي ستضع فيها حملها .

دموعها على وشك أن تنهمر .

تهز شيريل برأسها ، وتتقدم نحوها وقد رقّت لها .

«يا إلهي ،» تقول ، «تعالي إلي»

«لم أكن دائما وحيدة» ، تقول مالوري ، «أختي شانون كانت معي ، وهي الآن ميتة ، ولقد تركتها»

تبكي ، وبعينيها اللتين غيّمتهما الدموع تراهم ينظرون إليها . يبدو عليهم التعاطف ، وفورا تدرك مالوري أن كل واحد منهم يُحدِّ بطريقته .

«هيا» ، يقول توم ، «لنُرِك المنزل . يمكنك أن تشغلي غرفة النوم عند أعلى الدرج . سأنام هنا في الأسفل»

«كلا» ، تقول مالوري ، «لن أحتمل أن أخرج أيا منكم من غرفته»

«أنا أصر» ، يقول توم ، «شيريل تنام في آخر الرواق فوق . فيلكس يشغل الغرفة المحاذية لتلك التي ستصير غرفتك . في نهاية المطاف ، أنت حبلى . سنساعدك في هذا بقدر ما نستطيع»

يعبرون رواقا . يمرون بغرفة نوم على يسارهم ، ثم بحمام . تبصر مالوري انعكاسها على المرآة وتشيح بوجهها بسرعة . على يسارها ترى مطبخا ، وعلى المنضدة دِلاء كبيرة .

«هذه» ، يقول توم ، «هي غرفة الجلوس . نحن نمضي الكثير من الوقت هنا»

تستدير مالوري لترى يده تشير إلى غرفة كبيرة . ثمة أريكة ، ومائدة صغيرة عليها هاتف ومصابيح ووطيئة وسجاد . على الجدار بين عدد من اللوحات ، رسمت رزنامة على ما يشبه مؤشرا للكتب . النوافذ مغطاة ببطانيات سوداء معلقة .

ترفع مالوري بصرها إذ يدخل كلب إلى الغرفة . هو كولي إسكتلندي . ينظر الكلب إليها بفضول ثم يتقدم إليها ويربض عند قدميها منتظرا أن تداعبه .

«أقدم لك فيكتور» ، يقول جولز ، «عمره ست سنوات . عندما حصلت عليه كان لا يزال جروا»

تداعب مالوري الكلب . تقول لنفسها إن شانون كانت لتحبه . يغادر جولز الغرفة وهو يحمل حقيبتها ويصعد بها على درج مفروش بالسجاد . ثمة صور معلقة على الجدران . بعضها صور شمسية وبعضها لوحات فنية .

يصل إلى أعلى الدرج ، وتراه يدخل غرفة نوم . ويمكنها حتى وهي واقفة هنا في الأسفل أن ترى بطانية تغطي النافذة .

تأخذها شيريل إلى الأريكة . تجلس مالوري وقد أنهكها الحزن والصدمة . يقول شيريل ودون إنهما سيحضّران بعض الطعام .

«أطعمة معلبة» ، يقول فيلكس ، «انقضضنا على المتجر في يوم مجيئي إلى هنا . كان ذلك قبل أن يذاع خبر أول حادثة تحدث في أعالي ميتشيغان . في المتجر ظنوا أن بنا لوثة من جنون . لدينا هنا ما يكفينا لثلاثة أشهر قادمة»

«بل أقل من ذلك بقليل الآن» ، يقول دون ويختفي في المطبخ . تتساءل مالوري هل قصد بقوله أن عدد الأفواه المحتاجة للطعام قد زاد بسبب مجيئها هي .

يجلس توم إلى جانبها إلى الأريكة ويسألها عما رأته في طريقها إلى هنا . التفاصيل كلها تهمه . توم رجل من النوع الذي يستخدم كل ما قد تزوده به من معلومات ، لكن مالوري تشعر بأن التفاصيل التافهة التي تتذكرها لا تفيد في شيء . شاحنةُ البريد . واجهاتُ المحلات الفارغةُ والشوارعُ الخالية ، والسيارةُ المهجورة ذات السترة المعلقة على المقعد .

«ثمة أمور يجب أن أخبرك بها ،» يقول توم ، «أولا ، هذا المنزل

ليس منزل أيٍّ منا . صاحبه مات . سأشرح لك ذلك لاحقا . الإنترنت مقطوع ، ولقد وجدناه على هذه الحال منذ وصولنا إلى هنا . نحن على يقين من أن الذين يشغلون أبراج الترحيل قد كفوا عن الذهاب إلى عملهم . أو ربما ماتوا . لم يعد يصلنا البريد ، ولا الصحف . هل تفقدت هاتفك المحمول في الآونة الأخيرة؟ هواتفنا نحن لم تعد تعمل منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، لكن لدينا هاتف ثابت ، صدقي أو لا تصدقي ، مع أنني لا أعلم بمن يمكننا أن نتصل»

تدخل شيريل الغرفة تحمل صحناً فيه جزر وبازلاء ، وكوبَ ماء صغير .

«الهاتف الثابت لا يزال يعمل» ، يقول توم ،» للسبب نفسه الذي يبقي الأنوار مضاءة إلى الآن ، وهو أن محطة الكهرباء المحلية تعمل بالطاقة المائية . لا أعرف إن كانت ستتوقف عن العمل هي أيضا يوما ما ، ولكن إن ترك العاملون في المحطة البوابات مفتوحة كما يجب ، فقد نحصل على الكهرباء إلى أجل غير مسمى . هذا يعني أن النهر هو الذي يزود المنزل بالطاقة . هل كنت تعلمين أنه ثمة نهرا يجري وراءنا؟ إن لم تحل كارثة ما ، فطالما أن النهر يجري قد يحالفنا الحظ ، وقد نتمكن من النجاة . هل أبالغ في التمني؟ ربما . ولكن عندما ستردين البشر لتجلبي الماء ، وهو الماء الذي نستعمله لكل حاجياتنا ، ستسمعين تدفق النهر على بعد ثمانين ياردة خلفنا . هنا لا ماء في الحنفية ، فلقد انقطع بعد مجيئي إلى هنا بقليل . عندما نريد أن نذهب لقضاء حاجة ، نحن نستعمل الدلاء ونتناوب على حمل دلاء الفضلات إلى الحفر . ثمة فقط حفرتان حفرناهما في الغابة . طبعا كل هذا يجب أن يتم وأعيننا معصوبة .

ينزل جولز ، يتبعه فيكتور ، الكلب .
«كل شيء جاهز» ، يقول وهو يومئ لمالوري .
«شكرا» ، تقول بهدوء .
يشير توم إلى صندوق من الكرتون على طاولة صغيرة بحذاء الجدار .
«عصابات الأعين هناك . استخدمي أي واحدة منها متى تشائين .»
كلهم ينظرون إليها . شيريل جالسة على مِرفق الوطيئة . دون واقف عند مدخل المطبخ . جولز راكع أمام فيكتور أمام الدرج ، وفيلكس واقف أمام نافذة مغطاة .
كلهم حزنوا ، تقول في نفسها مالوري ، *لقد خاض هؤلاء الناس أهوالا* ، *مثلي أنا* .
وهي تشرب من كأس قدمتها لها شيريل ، تستدير مالوري لتوم . لا تستطيع أن تمحو من ذهنها صورة شانون ، لكنها تحاول ، وتكلم توم بصوت متعب .
«ما ذاك الشيء الذي رأيتك ترتديه عندما وصلتُ؟»
«الدرع؟»
«نعم»
«لا أدري بعد» ، يقول توم وهو يبتسم . «أنا أحاول أن أصنع حُلّة ، شيئا لا يحمي عيوننا فقط ، فنحن لا نعرف ما قد يحدث إن لمستنا تلك الأشياء .»
تنظر مالوري إلى رفقاء السكن الآخرين ، ثم إلى توم من جديد .
«أتعتقدون حقا أن ثمة مخلوقات بالخارج؟»

«نعم» ، يقول توم ، «جورج ، الرجل الذي كان يملك هذا المنزل ، رأى واحدا منها ، مباشرة قبل أن يموت .»

مالوري لا تدري بم تجيب ، وترفع يدها ، بحركة غريزية ، إلى بطنها .

«أنا لا أقصد أن أخيفك» ، يقول توم ، «و سأخبرك بقصة جورج قريبا . لكن الإذاعة تقول الشيء نفسه منذ مدة . أعتقد أن الأمر صار متفقا عليه . شيء ما حي يفعل بنا كل هذه الأفاعيل ، ويكفي أن يراه المرء ثانية واحدة ، أو ربما أقل من ذلك» .

يسودُّ كل شيء في الغرفة في عيني مالوري ويصيبها الدوار وتشعر بدوخة .

«أيا تكن طبيعة هذه المخلوقات» ، يقول توم ، «عقولنا غير قادرة على فهمها ، فهي على ما يبدو كاللانهاية ، شيءٌ أعقد من أن ندرك كنهه . أتفهمين ما أعنيه؟»

كلمات توم ، بشكل ما ، تصيب مالوري بالحيرة . فيكتور يلهث بشدة عند قدمي جولز . شيريل تسألها هل هي بخير ، وتوم لا يزال يتكلم .

المخلوقات . . . اللانهاية . . . عقولنا لها حدود ، يا مالوري . . . هذه الأشياء . . . تتجاوز عقولنا . . . تتعالى عليها . . . لا تدرَك . . .لا –

لكن مالوري تغيب عن الوعي . . .

الفصل الثامن

تستيقظ مالوري في غرفتها الجديدة . الظلام دامس . للحظة نعيم واحدة ، آخر لحظة من هذا القبيل ستعيشها ، تستيقظ مالوري وهي تعتقد أن كل تلك الأنباء عن المخلوقات وعن الجنون لم تكن إلا كابوسا . ثم إذ هي شيئا فشيئا وبارتباك تتذكر ريفربريدج ، وتوم ، وفيكتور ، ورحلتها بالسيارة ، لكن لا شيء من ذلك يتضح في ذهنها إلى تنظر إلى السقف وتدرك أنها لم تستيقظ أبدا في هذه الغرفة من قبل .

وشانون لا تزال ميتة .

تجلس على سريرها ببطء وتنظر إلى نافذة الغرفة الوحيدة . ثمة بطانية سوداء مسمرة على الجدار تحميها من العالم الخارجي ، وغير بعيد عنها مغسلة للتبرج قديمة . لونها الوردي بهت لكن المرآة تبدو نظيفة ، وهي على صفحتها شاحبة أكثر من العادة . شعرها الأسود يبدو لأجل ذلك أكثر اسودادا . على قاعدة المرآة مسامير وبراغي ومطرقة ومفتاح صمولة ، وهذا كل ما في الغرفة من أثاث بالإضافة إلى السرير .

تعتدل في جلستها وترفع قدمها فوق طرف الفراش وترى على الأرض المفروشة بسجاد رمادي اللون بطانية سوداء أخرى طويت بإتقان . هذه للاحتياط ، تقول في نفسها . إلى جانبها كومة صغيرة من الكتب .

وإذ تواجه باب الغرفة ، تسمع مالوري أصواتا قادمة من

الأسفل . هي لا تعرف هؤلاء القوم بعد ولا يمكنها أن تميز أصواتهم إلا إن كان المتكلم شيريل ، المرأة الوحيدة بينهم ، أو توم الذي سيهديها صوته لسنوات طويلة .

تقف وإذا السجاد تحت قدميها خشنٌ قديم . تقطع الغرفة وتخرج إلى الرواق . هي على ما يرام . مرتاحة ، ولقد زالت عنها الدوخة . وهي ترتدي الملابس نفسها التي نامت بها بعد أن أغمي عليها الليلة الماضية ، تتخذ مالوري طريقها نزولا عبر الدرج إلى غرفة الجلوس .

قبل أن تطأ قدماها الأرضية الخشبية ، يمر أمامها جولز وهو يحمل كومة من الملابس .

«مرحبا» ، يقول ويهز برأسه . تنظر إليه مالوري يدخل الحمام في آخر الرواق ، وتسمعه يغطس الثياب في ماء الدلو .

تستدير تلقاء المطبخ فترى شيريل ودون أمام المغطس . تدخل مالوري المطبخ بينما يخرج دون كأسا من دلو . تسمعها شيريل وتستدير .

«أخفتنا البارحة» ، تقول ، «هل تشعرين بتحسن؟»

وإذ تدرك مالوري الآن أنها فقدت وعيها الليلة الماضية ، يكتسي وجهها بحمرة خفيفة .

«نعم ، أنا بخير . كل ما في الأمر هو أنه ثمة أمامي الكثير لأستوعبه»

«كذلك كنا نحن جميعا» ، يقول دون ، «لكنك ستعتادين على الأمر ، وقريبا تقولين إننا نحيا حياة ترف»

«دون يتهكم» ، تقول شيريل بلطف .

«صدقا ، كلا» ، يقول دون ، «أنا أحب هذا المكان» .

تنتفض مالوري إذ يلعق فيكتور يدها . تنحني له لتداعبَه وتسمعُ موسيقى قادمة من غرفة الطعام ، فتقطع المطبخ وتدخل إليها . الغرفة فارغة لكن الراديو مشغل .

تنظر من جديد إلى دون وشيريل عند المغطس . على مقربة منهما باب قبو . مالوري على وشك أن تسأل عنه وإذ بصوت فيلكس يأتي من غرفة الجلوس يتلو عنوان المنزل .

«٢٧٣ شيلنغهام . . .اسمي فيلكس . . .نحن نبحث عن أي شخص لا يزال حيا . . .عن أي ناج . . .»

«يتصل بأرقام هاتف لا على التعيين»

تنتفض مالوري من جديد ، هذه المرة إذ تسمع صوت توم وهو يدخل إلى غرفة الجلوس معها .

«أليس لدينا دليل الهاتف؟» تسأل .

«كلا ، وهذا يحبطني باستمرار»

فيلكس يتصل برقم آخر . يسألها توم وفي يده ورقة وقلم ، «هل تريدين أن تأتي معي لتري القبو؟»

تتبعه مالوري عبر المطبخ .

«هل أنت ذاهب لتجري الجرد؟» يسأل دون بينما يفتح توم باب القبو .

«نعم»

«أعلمني بالنتيجة»

«طبعا»

يدخل توم أولا ، وتنزل مالوري الدرج الخشبي خلفه . أرض القبو من تراب . في هذا الظلام الدامس ، مالوري تشعر بالأرض تحت قدميها الحافيتين وتشمها .

تضاء الغرفة فجأة عندما يسحب توم خيط لمبة . ما تراه مالوري يخيفها . المكان أقرب إلى مستودع منه إلى قبو . رفوف خشبية لا تبدو لها نهاية معبئةٌ بمعلبات . المكان ، من السقف إلى الأرضية الترابية ، يشبه ملجأً في زمن الحرب .

«جورج هو من بنى كل هذا» ، يقول توم وهو يسرح يده باتجاه البناء الخشبي . «لقد كان فعلا يحتاط للأمور قبل وقوعها» .

إلى جهة اليسار التي لا ينير الضوء إلا جزءا منها فقط ، تبصر مالوري بساطا شفافا معلقا ، وخلفه غسالة ومنشر .

«ظاهر الأمر أن الطعام كثير» ، يقول توم مشيرا إلى العلب ، «لكنه ليس كذلك . ولا أحد قلق بشأن كمية ما بقي منه أكثر من دون»

«كم مرة تجرون الجرد؟»

«مرة كل أسبوع . لكني أحيانا عندما ينتابني القلق آتي إلى هنا وأتفقد المكان من جديد بعد يوم من واحد من إجرائي الجرد»

«الجو بارد هنا»

«أجل ، قبو نموذجي للتخزين المبرَّد . مكان مثالي»

«ماذا سيحصل إن نفد ما لدينا من طعام؟»

يواجهها توم . قسماته تبدو ناعمة لطيفة في النور .

«عندئذ نذهب لنحضر المزيد منه . نُغِير على محلات البقالة ، على منازل أخرى ، على أي مكان يكون في متناول أيدينا»

«نعم» ، تقول مالوري وتهز برأسها .

بينما توم يكتب على الورقة ، تتفحص مالوري القبو .

«أظنه آأمن مكان في المنزل إذن» ، تقول .

يتوقف توم . هو يقلب الأمر في ذهنه .

«لا أعتقد ذلك . أرى أن العلية آمن» .

«لم؟»

«هل انتبهت للقفل عند دخولنا إلى هنا؟ الباب قديم جدا . نعم ، يُغلق لكنه غير متين . يكاد يبدو الأمر وكأن القبو بُني أولا قبل سنين عديدة ثم أضيف المنزل إليه . أما باب العلية . . .فرتاجه متين متانة لا تصدق . إن احتجنا أن نحمي أنفسنا ذات يوم من خطر داهم ، إن دخل واحد من تلك الأشياء إلى المنزل ، فرأيي هو أن العلية هي المكان الذي علينا أن نتحصن فيه .»

بحركة آلية تنظر مالوري إلى الأعلى وتفرك كتفيها .

إن احتجنا أن نحمي أنفسنا .

«بالنظر إلى ما بقي من المخزون» ، يقول توم ، «لدينا ما يكفينا لثلاثة أو أربعة أشهر . تبدو هذه مدة طويلة لكن الزمن يمر بسرعة هنا ، والأيام يمتزج بعضها ببعض . لأجل هذا بدأنا بتدوين الرزنامة المعلقة على الجدار في غرفة الجلوس . أتعلمين ، الزمن ، بشكل أو بآخر ، لم يعد يعني لنا شيئا ، لكنه أحد الأشياء القليلة التي لا زلنا نملكها وتشبه الحياة التي كنا نعيشها قبل هذا» .

«أتقصد مرور الزمن؟»

«نعم ، وما نفعله به»

تتقدم مالوري إلى إسمكلة خشبية وتجلس . توم لا يزال يدون ملاحظاته .

«سأريك كل المهام عندما نصعد» ، يقول توم . ثم يضيف وهو يشير إلى مكان بين الرفوف والبساط المعلق ، «هل ترين ذاك الشيء هناك؟»

تنظر مالوري لكنها لا تفهم قصده .

«تعالي»

يأخذها توم إلى الجدار، حيث بعض الآجر مكسور والتراب يظهر تحته.

«لا أعلم إن كان هذا يخيفني أو يروق لي»، يقول.

«ما الذي تعنيه؟»

«حسنا، الأرض مكشوفة. هل معنى هذا أنه يمكننا أن نحفر؟ نحفر نفقا؟ نبني قبوا آخر؟ نوسع المكان؟ أم هل هو مدخل آخر إلى المنزل؟»

عينا توم تلمعان ونظراته ثاقبة في ضوء العلية.

«الأمر هو»، يقول توم، «لو أرادت المخلوقات حقا أن تدخل المنزل.. لما وجدت عناء في ذلك. وأعتقد أنها لفعلت.»

تحدق مالوري في رقعة التراب المفتوحة في الجدار، وتتخيل نفسها تحبو داخل نفق وهي حبلى. تتخيل الديدان من حولها.

بعد صمت قصير، تسأله، «ماذا كنت تفعل قبل أن يحدث كل هذا؟»

«تقصدين عملي؟ كنت معلما. أدرس تلاميذ الصف الثامن.»

تهز مالوري برأسها. «الحق أنني تخيلت أنك تبدو كمعلم مدرسة».

«أتعلمين؟ لقد سمعت هذا الكلام من قبل، مرات عديدة! ويسرني سماعه». يتظاهر بإصلاح ياقة قميصه. «أيها التلاميذ»، يقول، «اليوم سنتعلم كل شيء عن الأغذية المعلبة. وإذا، جميعكم، أغلقوا أفواهكم اللعينة.»

تضحك مالوري.

«و أنت ما كان عملك؟»

«لم أكن وصلت إلى تلك المرحلة بعد» تقول مالوري «فقدت أختك ، أليس كذلك؟»

«أجل»

«أنا آسف» ، ثم يردف ، «أنا فقدت ابنتي»

«يا إلهي ، توم» .

يصمت توم ، وكأنه يقلب الأمر في ذهنه ليقرر هل يخبر مالوري القصة كلها أم لا ، ثم يفعل .

«ماتت أم روبين وهي تلدها . أعلم أنه من القسوة من قبلي أن أخبرك بهذا وأنت على هذه الحال ، لكن إن كنا سنتعرف على بعضنا البعض فعليك أن تعرفي هذه القصة . كانت روبين طفلة رائعة . أذكى من أبيها وهي لم تتجاوز الثامنة من عمرها . لم يكن يثير اهتمامها إلا أكثر الأمور غرابة . مثلا دليل استعمال اللعبة أكثر من اللعبة نفسها ، قائمة المشاركين في الفيلم أكثر من الفيلم نفسه . الطريقة التي كُتِب بها شيء ما . تعبير ما يرتسم على وجهي . ذات مرة قالت لي إني أشبه الشمس ، بسبب شعري . سألتها هل أُشرق كالشمس فقالت ، «لا يا بابا ، بل تنير كما ينير القمر عندما يحل الظلام في الخارج»

«عندما بدأت التقارير تذاع على نشرات الأخبار وبدأ الناس يحملونها على محمل الجد ، كنت من أولئك الآباء الذين قالوا إنهم لن يعيشوا في خوف . حاولت جاهدا أن أحافظ على إيقاع حياتنا اليومية كما اعتدنا عليها ، وحرصت أكثر ما حرصت على أن تفهم روبين ذلك . كانت سمعت بعض الأمور في المدرسة ولم أكن أريدها أن تخاف . لكني بعد مدة قصيرة لم أعد قادرا على التظاهر بأن شيئا لم يكن ، فلم يمر وقت طويل حتى راح الآباء يمنعون

أطفالهم من الذهاب إلى المدرسة ، ثم أغلقت المدرسة نفسها أبوابها ، مؤقتا ، أو إلى أن «تستعيد ثقةَ الناس لتستمر في توفير مكان آمن لأطفالهم» . كانت تلك أياما كئيبة يا مالوري . كنت معلما أنا أيضا والمدرسة التي كنت أعمل فيها أغلقت أبوابها في الفترة نفسها تقريبا ، فصار لدينا الكثير من الوقت لنمضيه معا في المنزل ، وتسنى لي أن أرى كم كَبُرت وكم كبر عقلها واتسع . لكنها مع ذلك كانت أصغر من أن تدرك كم كانت مرعبة تلك القصص التي ترويها نشرات الأخبار . ولقد فعلت ما بوسعي لكي لا أخفيها عنها ، لكن نازع الأبوة فيَّ كان يدفعني أحيانا إلى أن أبدل القناة .

«لا شك في أنها لم تعد تحتمل ما تسمعه في الإذاعة لذلك راحت الكوابيس تراود روبين . ولقد أمضيت أوقاتا طويلة أحاول أن أهدئ من روعها . كنت دائما أشعر بأني كنت أكذب عليها . اتفقنا على ألا ينظر أي منا من النافذة ، واتفقنا على ألا تخرج دون إذن مني . كان علي ، بشكل أو بآخر ، أن أجعلها تصدق أن الوضع آمن وخطير جدا في الوقت نفسه .

«و بدأت تمضي لياليها في فراشي ، لكني صحوت ذات صباح ولم أجدها . في تلك الليلة قالت إنها تريد أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه . قالت إنها تريد أمها التي لم ترها قط . وانفطر قلبي وأنا أسمعها تتكلم هكذا ، وهي التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها وتقول لي إن الحياة ظالمة . عندما صحوت ولم أجدها ، قلت لنفسي إنها قد بدأت تعتاد على الأمر . على هذه الحياة الجديدة . لكني أعتقد أن روبين قد تكون فقدت شيئا من طفولتها في تلك الليلة ، عندما أدركت ، قبل أن أفعل أنا ، كم كان خطيرا كل ما كان يحصل خارج المنزل»

يتوقف توم . ينظر إلى أرض القبو .

«وجدتها في مغطس الحمام يا مالوري ، تطفو ، وقد قطَّعت معصميها الصغيرين موسى رأتني أحلق بها آلاف المرات . كان الماء أحمر قانيا والدم يفيض من على جنبات المغطس . دم على الجدران . كانت طفلة ، في الثامنة من عمرها . هل نظرت إلى الخارج؟ أم هل قررت أن تفعل ما فعلته بنفسها؟ لن أعرف الإجابة أبداً»

تقترب مالوري من توم وتحضنه .

لكنه لا يبكي . بدلا من ذلك ، يذهب ،بعد لحظة ، إلى الرفوف ويكتب على الورقة .

تفكر مالوري في شانون . هي أيضا ماتت في الحمام . وهي أيضا أنهت حياتها بنفسها .

ينتهي توم من عمله ويسأل مالوري هل هي جاهزة لتعود إلى الأعلى . يمد يده إلى خيط اللمبة فيراها تنظر إلى بقعة التراب المكشوفة على الجدار .

«أمر مخيف ، أليس كذلك؟»

«أجل»

«فلا تجعليه يكون كذلك . هو فقط أحد أقدم مخاوف العالم يستمر .»

«و ما ذاك؟»

«الخوف من الأقبية»

تهز مالوري برأسها .

ثم يسحب توم خيط اللمبة وينطفئ النور .

الفصل التاسع

«*المخلوقات*» ، تقول لنفسها مالوري ، يا لها من كلمة مبتذلة .

الطفلان صامتان والضفاف هادئة . بإمكانها أن تسمع المجذافين يشطران الماء . إيقاع تجذيفها يتناغم مع دقات قلبها ، ثم إذا هو يضطرب ويتعثر . وعندما يختلف الإيقاعان ، تشعر هي بأنها ستموت .

المخلوقات .

لم تحب مالوري أبدا هذه الكلمة . هذه الكلمة ، بشكل ما ، غير لائقة . الأشياء التي طاردتها لما ينيف عن أربع سنوات ليست مخلوقات في نظرها . البزّاقة في الحديقة مخلوق . الشيهم مخلوق . لكن الأشياء التي تربصت خلف النوافذ المغطاة وأبقتها هي معصوبة العينين ليست من ذلك النوع الذي كان أي مبيد سيقدر على إبادته أبدا .

«بربري» ليست الكلمة المناسبة كذلك . فالبربري طائش متهور . وكذلك *الوحش* .

بعيدا ، يشدو طائر عاليا في السماء . المجذافان يقطّعان الماء ويتحركان مع كل ضربة .

«بهيموث»[1] *وصف لا يمكن إثباته ، فقد تكون أصغر من ظفر* .

---

(١) الكلمة تعني الشيء أو الحيوان هائل الحجم ، أو الوحش الهائل . وأصلها عبري ، من سفر أيوب ٤٠ :١٥ في العهد القديم : «هوذا بهيموث [البهيمة] الذي صنعته معك يأكل العشب مثل البقر» . [المترجم]

رحلتهم على النهر قد بدأت لتوها ، لكن عضلات مالوري تؤلمها من التجذيف . قميصها مبلل من العرق ، وقدماها باردتان ، والعصابة لا تزال تزعجها وتستحكها .

«روح شريرة» ، «شيطان» ، «ماكر» ، ربما تكون هذه جميعا .

أختها ماتت لأنها رأت واحدا من هذه الأشياء ، ولا شك في أن أبويها قد لقيا المصير نفسه .

«عفريت» كلمة لطيفة أكثر مما يجب ، و«همجي» بشرية أكثر مما يجب .

مالوري ليست فحسب خائفة من الأشياء التي قد تتحرك في النهر ، هي أيضا مفتونة بها .

هل تعلم ما تفعل؟ هل تفعل ما تفعله عامدة متعمدة؟

في هذه اللحظة ، تشعر وكأن العالم كله قد مات . وكأن القارب هو آخر مكان لا تزال الحياة فيه ممكنة الوجود . أما باقي العالم فيتفرق ، ابتداءً من طرف القارب ، كوكبا فارغا ، رائعا ومهجورا مع كل ضربة مجذاف .

إن كانت لا تعلم ما تفعل ، فلا يمكن أن نقول عنها « شريرة» .

الطفلان صامتان منذ مدة . تحط تغريدة طائر أخرى من علٍ ، وتقفز سمكة في الماء . مالوري لم تر أبدا هذا النهر . ما شكله؟ هل تحتشد الأشجار على ضفتيه؟ هل ثمة منازل مصطفة على الشاطئ؟

هي وحوش ، تقول مالوري لنفسها . لكنها تعلم أنها أكثر من ذلك بكثير . هي *اللانهاية* .

«ماما» ، يصرخ الصبي فجأة .

ينعق طير كاسر وينتشر صدى نعيقه عبر النهر .

«يا صبي ، ما الأمر؟»
«كأنه صوت محرك»
«*ماذا؟*»
من فورها تكف مالوري عن التجذيف ، وتنصت بانتباه .
من بعيد ، من خلف النهر ودفقه حتى ، يأتي صوت محرك .
تعرفه مالوري فورا . صوتُ قارب آخر يقترب .
بدلا من أن يثير حماسَها احتمالُ لقاء إنسان على هذا النهر ، ينتاب مالوري الخوف .
«انخفضا ، كلاكما» ، تقول .
تضع المجذافين على ركبتيها ، ويطفو القارب .
لقد سمعه الصبي ، تقول في نفسها . سمعه الصبي لأ نك أحسنت تربيته وتدريبه وهو اليوم يحسن السمع كما لن يحسن النظر أبدا .
تتنفس مالوري عميقا ، وتنتظر . صوت المحرك يرتفع أكثر فأكثر . القارب يسبح عكس التيار .
«أخ» يئن الصبي .
«ما الأمر ، يا صبي؟»
«أذني! أصابتني شجرة»
تقول مالوري في نفسها إن هذا أمر حسن . إن لمست الصبي شجرة ، فيحتمل جدا أنهم قريبون من إحدى الضفتين . ربما ، بمعجزة هي تستحقها ، ستحجبهم الأغصان عن الأنظار .
صار القارب الآخر أقرب بكثير . مالوري تعلم أنه لو كان لها أن تفتح عينيها فستراه .
«*إياكما* أن تخلعا عصابتيكما» ، تقول مالوري .

محرك القارب صار الآن على صعيد واحد معهم ، وهو لا يمضي في طريقه .

أيّا يكن ، تقول لنفسها مالوري ، *فهو قادر على رؤيتنا* .

يتوقف محرك القارب فجأة عن الدوران . الهواء يعبق براحة الغازولين . صوتُ خطوات ،تقطع سطح القارب ولا شك .

«مرحبا» ، يقول صوت . لا تجيب مالوري . «مرحبا! لا بأس عليكم ، يمكنكم أن تخلعوا عن أعينكم العصابات! لست إلا رجلا عاديا»

«كلا ،لا *يمكنكما*» تقول مالوري للطفلين بسرعة .

«لا شيء معنا هنا يا آنسة . صدقيني . نحن لوحدنا هنا»

مالوري صامتة . لكنها تدرك أخيرا ألا خيار أمامها فتجيبه «وكيف تعلم؟»

«يا آنسة» ، يقول ، «أنا أنظر الآن . لقد أبقيت عيني مفتوحتين طوال الرحلة اليوم ، وكذلك البارحة»

«لا يمكنك أن تنظر» تقول ، «و أنت تعلم ذلك»

يضحك الغريب .

«صدقا» ، يقول ، «لا شيء يخيف . ثقي بي . ليس إلاّنا أنا وأنت على هذا النهر . شخصان طبيعيان يلتقيان»

«كلا!» تصرخِ مالوري للطفلين .

تفلت الطفلة وتمسك بمقبضي المجذافين من جديد . يتنهد الرجل .

«لا حاجة بك لأن تعيشي هكذا يا آنسة . فكري في الطفلين . هل ستحرمينهما من فرصة مشاهدة يوم جميل منعش كهذا اليوم؟

«إبق بعيدا عن قاربنا» ، تقول مالوري بصرامة

صمت . الرجل لا يجيب . مالوري تتهيأ . يتملكها الشعور بأنها عالقة ، مكشوفة . في هذا القارب القريب من الضفة . في هذا النهر . في هذا العالم .

يقفز شيء ما في الماء ، فتشهق مالوري .

«يا آنسة» ، يقول ، «المنظر رائع ، لولا ضباب قليل . متى كانت آخر مرة نظرت فيها إلى الخارج؟ أكان ذلك منذ سنوات؟ هل رأيت هذا النهر؟ هذا الجو؟ أراهن على أنك لا تتذكرين حتى كيف يبدو الجو ، أي جو»

هي تتذكر العالم الخارجي جيدا . تتذكر كيف كانت تعود إلى منزلها من المدرسة وتسير عبر نفق من أوراق الخريف . تتذكر الأفنية والحدائق والمنازل القريبة من منزلها . تتذكر كيف كانت تستلقي على العشب في الفناء الخلفي مع شانون وتقرر معها أي غيمة تشبه هذا الصبي أو تلك الفتاة من المدرسة .

«سنبقي على عصاباتنا كما هي» تقول مالوري .

«أما أنا فلم أعد أرتديها ، يا آنسة» يقول ، «لقد مضيت قدما بحياتي . ألن تفعلي أنت؟»

«دعنا وشأننا الآن» تأمره مالوري .

يتنهد الرجل من جديد .

«ليس لها أن تطاردك إلى الأبد» ، يقول ، «ليس لها أن تجبرك على أن تعيشي هكذا إلى الأبد . أتعلمين هذا يا آنسة؟»

تضع مالوري المجذاف الأيمن حيث تعتقد أنها تستطيع أن تدفع القارب به بعيدا عن الضفة .

«علي أن أنضو عنك عصابتك بنفسي» يقول الرجل فجأة .

مالوري لا تتحرك .

صار صوته خشنا فظا . كأنه غاضب قليلا .

«نحن شخصان لا أكثر» ، يواصل كلامه ، «يلتقيان على نهر . أربعة إن احتسبت الطفلين . وهما ليسا مَلومَين على طريقة تربيتك لهما . أنا الوحيد هنا الذي يجرؤ على النظر إلى العالم . كل ما تفعله لك مخاوفك هو أنها تبقيك آمنة ما يكفي من الزمن لتخافي أكثر .»

صوته يأتي من مكان مختلف الآن . تتصور مالوري أنه انتقل إلى مقدم قاربه . كل ما تريده هو أن تتجاوزه . كل ما تريده هو أن تبتعد عن المنزل الذي غادروه هذا الصباح .

«و سأقول لك شيئا» ، يقول الرجل فجأة ، وقد صار قريبا بشكل مرعب ، «لقد رأيت أحدها» .

تمد مالوري يدها إلى الصبي وتجذبه إليها من دبر قميصه ، فيصطدم بمؤخرة القارب الفولاذية ويئن .

يضحك الرجل .

«هي ليست بالقبح الذي تظنينه ، يا آنسة»

تدفع بالجذاف على الضفة . تتخبط ، وتجاهد لتجد أي شيء صلب . كأن الضفة كلها غصينات وجذور . وطين .

سيصاب بالجنون ، تقول مالوري لنفسها ، *وسيؤذيك* .

«إلى أين ستذهبين؟» يصرخ ، «هل ستبكين كلما سمعت عودا ينكسر؟»

مالوري لا تستطيع أن تحرر القارب .

«لا تخلعا العصابتين!» تصرخ للطفلين .

الرجل يقول إنه رأى واحدا منها . متى؟ متى؟

«تحسبينني مجنونا ، أليس كذلك؟»

أخيرا يصطدم الجذاف بمكان صلب في الأرض . تدفع مالوري

وهي تنخَر . يتحرك القارب ، فتحسب أنه ربما قد تحرر ، وإذا به يصطدم بمركب الرجل فتصرخ .

لقد حاصرك .

هل سيجبرهم على فتح أعينهم؟

«من المجنون هنا؟ أنظري إلى نفسك . شخصان يلتقيان على نهر . . .»

تهز مالوري القارب جيئة وذهابا . تشعر بوجود فراغ خلف القارب ، فجوةٍ من نوع ما .

« . . . أحدهما ينظر إلى السماء . . .»

تشعر مالوري بالجذاف ينغرس في الأرض .

« . . . والآخر يحاول أن يقود قاربا وهو معصوب العينين .»

القارب يكاد يتحرر .

«فعلي إذاً أن أسأل نفسي . . .»

«*تحرك!*» تصرخ .

« . . .من منهما المجنون؟»

يقهقه الرجل . لكأن ضحكته ترتفع إلى السماء التي يتحدث عنها . تفكر في أن تسأله *منذ متى رأيت أحد هذه المخلوقات؟* لكنها لا تفعل .

«*دعنا وشأننا!*» تصرخ مالوري

يتطاير ماء النهر البارد إلى القارب بفعل صراعها من أجل تحريره ، وتصرخ البنت . تقول مالوري لنفسها ، *سلي الرجل منذ متى رأيتَه* . لعل الجنون لم يتمكن منه بعد . لعل الأمر أبطأُ معه . لعله يصنع معها صنيعا قبل أن يفقد كل إحساس بالواقع .

يتحرر القارب .

قال لها توم مرة إن الأمر يختلف لا محالة من شخص لآخر. قال إن المجنون قد لا يزداد جنونا أبدا، وأن أرجح الناس عقولا قد يمضي عليه وقت طويل قبل أن يبلغ تلك المرحلة.

«افتحي عينيك بحق الرب!»، يصيح الرجل.

لقد تغير صوته. كأنه سكران، مختلف.

«كفي عن الهرب يا آنسة. *افتحي عينيك!*» يناديها.

«لا تنصتا له!»، تصرخ. الصبي ملتصق بها والبنت تنشج خلفها. مالوري ترتجف.

«أمكما هي المجنونة أيها الطفلان. اخلعا عنكما العصابتين.»

فجأة يعوي الرجل ويغرغر. كأن شيئا ما في حلقه قد مات. كم من الوقت سيمضي قبل أن يخنق نفسه بالسلك الحديدي أو يميل بنفسه على مروحة قاربه وهي تدور؟

تجذف مالوري بجنون. عصابتها ليست مربوطة بإحكام.

ما رآه قريب. ما رآه هنا على هذا النهر.

«*لا تخلعا عصابتيكما!*» تصرخ مالوري من جديد. تجذف وتتجاوز القارب. «هل تفهمان ما أقول؟ *أجيبا.*»

«نعم!» يقول الصبي

«نعم!» تقول البنت

يعوي الرجل من جديد لكنه صار بعيدا خلفهما. صوته كمن يحاول أن يصرخ لكنه نسي كيف.

يبتعد القارب أربعين ياردة أخرى، وصوت المحرك خلفهم لا يكاد يسمع، فتمد مالوري يدها أمامها وتلمس الصبي من كتفه.

«لا تقلقي يا ماما»، يقول الصبي.

تمد مالوري عندئذ يدها إلى الخلف وتجد يد البنت، وتشد

عليها ، ثم تتركهما معا وتمسك بالجذافين من جديد .

«هل أنت جافة؟» تسأل البنت .

«كلا» ، تجيب البنت .

«استعملي البطانية وتجففي ، الآن»

رائحة الهواء نقية من جديد ، ورائحة الأشجار ، والماء .

دخان الغازولين صار بعيدا وراءهم .

هل تتذكرين كيف كانت رائحة المنزل؟ تقول لنفسها مالوري .

رغم الرعبِ الذي قذفه في قلبها لقاؤها بالرجل على القارب ، هي تتذكر . هواءَ المنزل الفاسد الخانق . كذلك وجدته يوم وصلت ، ولم يتحسن أبدا .

هي لا تكره الرجل على القارب . الحزن هو كل ما تشعر به .

«أحسنتما صنعا» ، تقول مالوري للطفلين ، وهي ترتجف وتجذف وتوغل قدما في النهر .

الفصل العاشر

مالوري تعيش في المنزل منذ أسبوعين . رفقاء السكن لا يكادون يعيشون إلا الأطعمة المعلبة المخزنة في القبو ، إضافة إلى أي لحم مجمد بقي في الثلاجة . كل صباح ، تتنفس مالوري عندما تجد أن المنزل لا يزال فيه كهرباء . الراديو هو مصدر الأخبار الوحيد الآن ، لكن رودني باريت ، آخر من بقي من مقدمي البرامج ، لم يعد عنده أي جديد ليقوله لهم ، وبدلا من ذلك ، يستطرد ، يغضب ويجدِّف . ولقد حصل أن سمعه رفقاء السكن ينام أثناء البث . لكن رغم ذلك كله ، مالوري تفهم تماما لماذا لا يزالون ينصتون له ، فسواء أكان صوته يأتيهم هادئا بعيدا أم يملأ غرفة الجلوس حيث مكان جهاز الراديو ، هو يبقى آخر رباط يربطهم بالعالم الخارجي .

سرعان ما تشعر مالوري بأنها داخل سرداب . تتملكها الكلوستروفوبيا تملكا مدهشا ، وتخيم عليها وعلى جنينها .

لكن الرفاق اليوم ينظمون شيئا يشبه الحفلة .

ستتهم متحلقون حول طاولة غرفة الطعام . بالإضافة إلى معلبات ، وورق المرحاض وبطاريات وشموع وبطانيات وأدوات من القبو ، ثمة عدد من زجاجات الرُّم تكمل بشكل رائع الحشيش الذي جلبه فيلكس (الذي اعترف ببساطة أنه كان يتوقع لقاءً «هيبِّيًا» وليس فرقة الممثلين الواعين التي التقاها عندما وصل) . نظرا لوضعها ، مالوري هي الوحيدة بينهم التي لا تشرب ولا تدخن . ومع ذلك ، بعض الحالات تنتقل كالعدوى ، وإذ يبث رودني باريت

كعادته بعض الموسيقى الهادئة ، تجد مالوري في نفسها القدرة لتبتسم ، بل وتضحك أحيانا ، رغم الفظائع غير المعقولة التي صارت معتادة .

في غرفة الطعام بيانو ، وككومة الكتب الهزلية التي بجانب الخزانة في غرفتها ، البيانو يبدو زائدا ، يكاد يكون في غير محله وقادما من زمن آخر .

توم هو من يعزف عليه الآن .

«على أي مفتاح تُعزف هذه الأغنية؟» ، يصرخ توم ، وهو يتصبب عرقا ، في غرفة الطعام إلى فيلكس الجالس إلى الطاولة . «هل تعرف المفاتيح؟» .

يبتسم فيلكس ويهز برأسه . «أنى لي بحق الجحيم أن أعرفها؟ لكني سأغني معك من مجلسي هنا يا توم»

أرجوك لا تفعل» ، يقول دون وهو يحتسي الرم من كأسه ويبتسم .

«كلا ، كلا» ، يقول فيلكس ، «أنا بارع حقا في الغناء!»

يتعثر فيلكس إذ يقف . يلتحق بتوم عند البيانو ومعا يرددان أغنية «دي لوفلي» . الراديو على صوان ذي مرآة ، والموسيقى التي يبثها رودني باريت تصطدم بلطف مع أغنية كول بورتر[1] .

«كيف حالك يا مالوري؟» يسألها دون الجالس قبالتها إلى المائدة . «ما رأيك في المكان حتى الآن؟»

«أنا بخير» ، تقول ، «إنما أفكر كثيرا في الطفل» .

---

(٤) فيلم «دي لوفلي» يروي سيرة الملحن وكاتب الكلمات الأمريكي كول بورتر ، وأغنية دي لوفلي من أغانيه . [المترجم]

يبتسم دون ، وإذ يفعل ، تبصر مالوري حزنا في قسماته . هي تعلم أن دون أيضا قد فقد أختا له . كل الرفقاء خبروا الخسارة المدمرة . والدا شيريل تملكهما الخوف فذهبا بسيارتهما جنوبا . وهي لم تكلمهما منذئذ . فيلكس يأمل أن يسمع أخبارا عن إخوته مع كل مكالمة هاتفية عشوائية يجريها . جولز يتحدث كثيرا عن خطيبته ، سيدني ، التي وجدها في المزراب خارج العمارة حيث كانا يسكنان قبل أن يرد على الإعلان نفسه الذي وجدته مالوري . كان عنقها مقطوعا . لكن قصة توم ، برأي مالوري ، هي الأسوأ ، إن عاد لهذه الكلمة من معنى .

الآن ، إذ تشاهدهم وهم خلف البيانو ، قلبها ينفطر لأجلهم .

لبرهة ، عندما تنتهي أغنية «دي-لوفلي» ، يصبح صوت الراديو مسموعا من جديد . الأغنية التي يبثها رودني باريت تنتهي هي الأخرى ، فيبدأ هو بالحديث .

«أنصتوا ، أنصتوا» ، تقول شيريل ، وتعبر الغرفة إلى حيث مكان المذياع . تجثم أمامه وترفع الصوت . «يبدو أكثر اكتئابا من المعتاد .»

يتجاهل توم المذياع . وهو يتصبب عرقا ويحتسي شرابه ، يعزف بارتباك لحن البداية في أغنية غيرشفين «آيف غوت ريتم[1]» .

يلتفت توم ليرى عمَّ تتحدث شيريل . ويلتفت جولز ، الجالس على الأرض متكئا إلى الجدار وهو يلاعب فيكتور ، برأسه إلى المذياع .

«أيتها المخلوقات» ، يقول رودني باريت ، وصوته يتثاقل . «ما الذي أخذته منا؟ ما الذي تفعلينه؟ ألديك أيُّ غاية من كل هذا؟»

---

(١) أغنية جاز شهيرة لجورج غيرشفين [المترجم]

يقوم دون من المائدة ويذهب إلى شيريل بجانب المذياع ، ويكف توم عن العزف .

«لم أسمعه من قبل يخاطب المخلوقات» ، يقول من مجلسه بجانب البيانو .

«فقدنا أمهات وآباءً وأخوات وإخوة لنا» ، يقول رودني باريت ، «فقدنا زوجات وأزواجا ، أحباء وأصدقاء . لكن لا شيء يلدغ كفقدنا الأطفال الذين خطفتِهم منا . كيف تجرؤين على أن تطلبي من طفل أن ينظر إليك؟»

تنظر مالوري إلى توم . توم يستمع . ثمة فراغ في عينيه . تقوم وتذهب إليه .

«لقد كان كئيبا من قبل» ، تقول شيريل عن رودني باريت ، «لكن لم يبلغ هذا المبلغ أبدا» .

«كلا» ، يقول دون ، «كأنه أسكر منا جميعا»

«توم» ، تقول مالوري وتجلس إلى جانبه على المقعد .

«سينتحر» ، فجأة يقول دون .

ترفع مالوري رأسها تريد أن تقول لدون أن يخرس فتسمع ما سمعه دون . الأسى المطبق في صوت رودني باريت .

«اليوم سأخدعك» ، يقول باريت ، «سأسبقك إلى الشيء الوحيد الذي بقي لي وتملكين أن تسلبيني إياه»

«يا إلهي» ، تقول شيريل .

يصمت المذياع .

«أطفئيه يا شيريل» ، يقول جولز ، «*أطفئيه*» .

تمد يدها إلى المذياع ، فيندلع صوت إطلاق نار من مكبرات الصوت .

تصرخ شيريل ، وينبح فيكتور .
«ما الذي حصل للتو بحق الجحيم؟» يقول فيلكس وهو ينظر بحيرة إلى المذياع .
«لقد فعلها» ، يقول جولز بلا هدف ، «لا أصدق أنه فعل» .
ثم يحل الصمت .
يقوم توم من على مقعد البيانو ويطفئ المذياع . فيلكس يحتسي شرابه وجولز جاث على ركبته يهدئ من روع فيكتور .
وفجأة ، كأنه صدى صوت إطلاق النار ، يأتيهم طرق على باب المنزل .
وسرعان ما يتبعه طرق آخر .
يتقدم فيلكس إلى الباب ويمسكه دون من ذراعه .
«لا تفتح الباب يا رجل» ، يقول ، «بحقك ، ما الذي دهاك؟»
«لم أكن لأفعل يا رجل!» يقول فيلكس ويخلص ذراعه .
يأتي الطرق من جديد ، ويناديهم صوت امرأة .
«مرحبا؟»
يصمت الرفاق ويقفون بلا حراك .
«ليجبها أحد» ، تقول مالوري وهي تقوم من على مقعد البيانو لتجيبها بنفسها ، لكن توم يسبقها .
«نعم!» ، ينادي ، «نحن هنا . من أنت؟»
«أوليمبيا! اسمي أوليمبيا! أرجوكم أدخلوني؟»
يتوقف توم . يبدو ثملا .
«هل أنت لوجدك؟» يسأل .
«نعم!»
«هل عيناك مغمضتان؟»

«نعم ، عيناي مغمضتان . أنا خائفة جدا . أرجوكم أدخلوني؟»

ينظر توم إلى دون .

«ليحضر أحدكم عصي المكانس» ، يقول توم . يذهب جولز ليحضرها .

«لا أعتقد أننا نملك أن نطعم أفواها أخرى» ، يقول دون .

«أنت مجنون» ، يقول فيلكس ، «هناك امرأة بالخارج . . .»

«أعلم ذلك يا جولز» ، يقول دون بغضب ، «لا يمكننا أن نستقبل البلاد كلها»

«لكنها بالخارج الآن» يقول فيلكس

«و نحن سكارى» يقول دون .

«بحقك يا دون» ، يقول توم .

«لا تجعلوني الشرير بينكم ،» يقول دون . «أنت تعلم كما أعلم كم من المعلبات بقي في القبو»

«مرحبا؟»

«اصبري!» يجيب توم .

ينظر توم ودون إلى بعضهما . يأتي جولز ويناول توم واحدا من العصي .

«افعلوا ما تريدون» ، يقول دون . «لكننا سنتضور جوعا عما قريب بسبب ذلك»

يلتفت توم إلى الباب .

«جميعكم» ، يقول ، «أغمضوا أعينكم»

تسمع مالوري وقع حذائه على أرضية الردهة الخشبية .

«أوليمبيا؟» ينادي توم .

«نعم!»

«سأفتح الباب الآن . عندما أفعل ، عندما تسمعينه يفتح ، ادخلي بأسرع ما تستطيعين . هل تفهمين؟»

«نعم!»

تسمع مالوري الباب يفتح . ثمة هرج ومرج . تتخيل توم يجذب المرأة إلى الداخل كما فعل الرفاق معها قبل أسبوعين . ثم يُصفق الباب .

«أبقي عينيك مغمضتين!» يقول توم ، سأتحسس من حولك ، لأتحقق من أنه لم يدخل معك شيء»

تسمع مالوري أسلاك المكنسة على الجدار والأرض والسقف والباب .

«حسنا» ، يقول توم أخيرا ، «لنفتح أعيننا» .

تفتح مالوري عينيها فترى امرأة فائقة الجمال شديدة الشحوب ذات شعر أسود فاحم تقف إلى جانب توم .

«شكرا» ، تقول وهي تلهث .

يهم بتوم بسؤالها عن شيء لكن مالوري تقاطعه .

«هل أنت حبلى؟» تسأل .

تنظر مالوري إلى بطن أوليمبيا . وهي ترتجف ترفع عينيها وتومئ أن نعم .

«أنا في الشهر الرابع» تقول

«غير معقول» ، تقول مالوري وهي تقترب منها ، «أنا كذلك تقريبا»

«اللعنة» يقول دون

«أنا جارتكم» ، تقول أوليمبيا ، «أنا آسفة أني أخفتكم بهذا الشكل . زوجي يعمل في القوات الجوية . لم أسمع منه خبرا منذ

أسابيع . ربما يكون ميتا . لقد سمعتكم . البيانو . ولزمني بعض الوقت لأستجمع شجاعتي وأسير إلى هنا . لولا الظروف لأحضرت معي بعض الحلوى»

براءة أوليمبيا ، رغم الفظاعة التي سمعها للتو كلٌ من الغرفة ، تخترق الظلام .

«نحن مسرورون باستقبالك» ، يقول توم ، لكن مالوري تسمع في صوته الإنهاك والضيق من الاعتناء بامرأتين حاملين . «ادخلي»

يقطعون الرواق مع أوليمبيا إلى غرفة الجلوس . على سفح الدرج ، تشهق وتشير إلى صورة معلقة على الجدار .

«أوه!» تقول ، «هل هذا الرجل هنا؟»

«كلا» ، يقول توم ، «لم يعد هنا . أنت تعرفينه ولا شك . اسمه جورج . كان صاحب هذا المنزل»

تهز أوليمبيا برأسها .

«نعم ، رأيته عدة مرات»

يجتمع الرفاق في غرفة الجلوس . يجلس توم مع أوليمبيا على الأريكة . تنصت مالوري بهدوء لتوم وهو يسأل أوليمبيا بكآبة عن ما في منزلها من أشياء . ما تملكه . ما خلفته وراءها .

ما قد يفيدهم هنا .

الفصل الحادي عشر

مالوري تجذف منذ ما يقرب من ثلاث ساعات . عضلات ساعديها تؤلمها . الماء البارد يتماوج في قعر القارب . الماء الذي رشته مع كل ضربة مجذاف . منذ لحظات ، قالت البنت لمالوري إنها تريد أن تتبول . فقالت لها مالوري أن تفعل . الآن بول البنت مختلط مع ماء النهر ومالوري تشعر به دافئا عند حذائها وهي تفكر بالرجل على القارب الذي مروا به .

الطفلان ، تقول لنفسها ، *لم يخلعا عنهما عصابتيهما . كان ذلك أول صوت إنسان غير صوتيهما يسمعانه ، ومع ذلك لم ينصتا له .*

أجل ، لقد أحسنت تدريبهما . لكن هذه ليست بالفكرة المبهجة . تدريب الطفلين معناه أنها أرعبتهما رعبا جعلهما لا يعصيانها تحت أي ظرف كان . عندما كانت طفلة ، كانت مالوري تتمرد على والديها باستمرار . كان السكَّر ممنوعا في المنزل ، فهربته مالوري إليه . كان ممنوعا عليها أن تشاهد أفلام الرعب ، فكانت مالوري تتسلل ليلا إلى الطابق السفلي لتشاهدها على التلفزيون . عندما قال لها والداها إنه لم يكن مسموحا لها بأن تنام على الأريكة في غرفة الجلوس ، نقلت هي فراشها إلى غرفة الجلوس . كانت تلك نشوة الطفولة ، وطفلا مالوري لم يعرفاها .

عندما كانا رضيعين ، دربتهما مالوري على أن يستيقظا وعيونهما مغمضة . كانت تقف أمام الشباك المسيج لسريريهما والمذبة في يدها وتنتظر . وعندما يستيقظان ويفتحان أعينهما ،

تضربهما ضربة شديدة على ذراعيهما فيبكيان . وتنحني مالوري إليهما وتغمض لهما أعينهما بأصابعها . وإن أبقيا عليها مغمضة ترفع قميصها وترضعهما . *مكافأة* .

«ماما» ، تقول البنت ، «هل كان ذلك الرجل نفسه الذي يغني في المذياع؟»

البنت تقصد عن شريط الكاسيت الذي كان فيلكس يستمع له .

«كلا» ، يقول الصبي .

«من كان ذلك إذا؟» تسأل البنت .

تلتفت مالوري لتواجه البنت ويصبح بذلك صوتها أعلى .

«ظننت أننا اتفقنا أنكما لن تسألا أي سؤال لا علاقة له بالنهر . هل ستخرقان الاتفاق؟»

«كلا» ، تقول البنت بهدوء .

عندما كانا في الثالثة من عمرهما ، دربتهما على جلب الماء من البئر . كانت تربط حبلا على خصرها وتربط طرفه الآخر على خصر الصبي ، ثم تأمره بأن يتلمس طريقه بأصابع قدميه وترسله ليفعلها بنفسه . وتنصت مالوري لصوت الدلو تُرفع ببطء شديد ، وتسمع الصبي يكابد وهو يحمل الدلو ليعيدها إليها . ولكم سمعت الدلو تقع من يديه ، فكانت في كل مرة يحصل ذلك ترسله إلى البئر من جديد ليعيد الكرة .

أما البنت فكانت تكره الأمر برمته . كانت تقول إن الأرض من تحتها هناك حول البئر «منتفخة كثيرا» ، كأن هنالك أشخاصا يحيون تحت العشب ، فحرمت مالوري البنت من الغذاء حتى وافقت على أن تذهب إلى البئر .

عندما درج الطفلان ، كانت مالوري تجلسهما على طرفي الغرفة

وتطوف فوق السجاد وعندما تقول «أين أنا؟» يشير الصبي أو تشير البنت . عندئذ تصعد إلى الطابق العلوي ثم تنزل وتسألهما ، «أين كنت؟» فيشير الصبيان ، وعندما يخطئان تصرخ فيهما .

لكنهما قلّما كانا يخطئان . وسرعان ما أصبحا لا يخطئان أبدا .

ماذا كان توم سيقول عن كل هذا؟ تقول في نفسها ، *كان سيقول لك إنك أفضل أم على وجه الأرض ، وكنت ستصدقينه .*

دون توم ، لا ملجأ لمالوري إلاّها هي . وكم جلست وحيدة إلى مائدة المطبخ بينما الطفلان نائمان في غرفتهما وسألت نفسها السؤال الذي لا محيص عنه :

هل أنا أمٌ صالحة؟ هل مازال لشيء كهذا وجود؟

تشعر مالوري بضربة خفيفة على ركبتها . تشهق ، لكنه ليس إلا الصبي ، يريد كيس الطعام . بين تجذيفتين ، تمد مالوري يدها إلى جيب سترتها وتناوله إياه . تسمع أسنانه الصغيرة تقضم جوزا استقر في علبه على رفوف القبو لأربع سنوات ونصف السنة قبل أن تحضره مالوري في هذا الصباح .

تتوقف مالوري عن التجذيف . تشعر بالحر ، بحَرٍّ شديد ، وتتصبب عرقا كما لو كان الوقت صيفا . تنضو عنها سترتها وتضعها إلى جانبها على دكة القارب . تشعر بضربة خفيفة أخرى على ظهرها . البنت جائعة هي الأخرى .

هل أنت أم صالحة؟ تسأل نفسها مرة أخرى ، وهي تناولها كيس طعام آخر .

كيف تتوقع من الطفلين أن يصلا بأحلامهما إلى النجوم إن كانا لا يستطيعان أن يرفعا رأسيهما لينظرا إليها؟

مالوري لا تعرف الإجابة .

الفصل الثاني عشر

توم يصنع شيئا ما من غيتارة قديمة ووسادة. أوليمبيا نائمة في الطابق العلوي في غرفة النوم المحاذية لغرفة مالوري، فلقد تنازل لها فيلكس عن الغرفة كما فعل توم مع مالوري. فيلكس ينام الآن على الأريكة في غرفة الجلوس. الليلة الماضية، سجل توم بدقة كل الأشياء التي أخبرته أوليمبيا بوجودها في منزلها. لكن الحديث الذي بدأ مفعما بالأمل سرعان ما انتهى باتفاق الرفاق على أن تلك الأشياء القليلة التي قد تفيدهم لا تستحق المخاطرة من أجل جلبها. بعض الورق. دلو أخرى. علبة الأدوات الخاصة بزوج أوليمبيا. لكن، كما بيَّن ذلك فيلكس، إن وإذا رجحت كفَّةُ الحاجةِ إلى تلك الأشياء كفَّةَ مخاطرِ جلبها، فيمكنهم الذهاب لإحضارها على كل حال. بعض الأشياء، يقول دون، سيحتاجون إليها عاجلا لا آجلا. جوز معلب، تونة، عجائن، وتوابل. يتطرقون لموضوع الطعام، ويخبر توم الآخرين كم بقي من المخزون في القبو. ولأنه محدود، يستبد بمالوري قلق شديد.

جولز الآن نائم في آخر الرواق في المُختلى، ممددا على فراش على الأرض في طرف الغرفة. فراش فيلكس في الطرف الآخر، وبينهما طاولة خشبية عالية تحمل أغراضهما. فيكتور معهما. جولز يشخر. المذياع يبث موسيقى هادئة. الموسيقى قادمة من غرفة الطعام، حيث فيلكس ودون يلعبان الأوشر[1] بورق لعب من نوع

(١) لعبة ورق. [المترجم]

بيي-وي هيرمان . شيريل تغسل الثياب في دلو بمغطس المطبخ .

مالوري لوحدها مع توم على الأريكة في غرفة الجلوس .

«الرجل الذي كان يملك هذا المنزل» ، تقول مالوري ، «جورج ، هذا هو اسمه؟ هو من نشر الإعلان؟ هل كان هنا عندما جئت أنت؟»

توم يحاول أن يصنع غطاءً مبطّنا واقيا لزجاج السيارة الداخلي . ينظر إلى عينيها ، ويبدو لون شعره رمليا أكثر في ضوء المصباح .

«كنت أنا أول من استجاب للإعلان في الصحيفة» ، يقول توم ، «كان جورج عظيما . دعا الناس إلى منزله عندما أغلق كل الناس أبوابهم . كان تقدميا أيضا ، مفكرا كبيرا . كان لا يكف عن تقديم أفكار جديدة . ربما يمكننا أن ننظر من النافذة من خلال عدسة؟ زجاج محرف؟ تلسكوب؟ منظار؟ كانت تلك فكرته العظيمة . إن كانت المسألة مسألة نظر ، فلعل ما نحتاجه هو أن نحرف خط الرؤية الخاص بنا . أو أن نغير الوسائل المادية التي نرى بها الأشياء . إن نظرنا من خلال شيء ، ربما ستعجز المخلوقات عن إلحاق الأذى بنا . كلانا كان يبحث حقا عن طريقة لحل المشكلة . وجورج لم يكن من أولئك الذين يكتفون بمجرد الكلام ، فأراد أن يجرب تلك الأفكار .

بينما توم يتكلم ، تتخيل مالوري الصورة المعلقة على الجدار عند الدرج .

«عندما جاء دون ، في تلك الليلة جلس ثلاثتنا في المطبخ نستمع إلى المذياع ، عندما قال جورج أن ما يتسبب في كل هذا ربما يكون شكلا من أشكال «الحياة» . كان ذلك قبل أن تطلع علينا قناة «أم أس أن بي سي» بهذه النظرية . وقال جورج إن الفكرة جاءته من

كتاب قديم . *المستحيلات الممكنة* . الكتاب يتحدث عن أشكال الحياة التي لا تجتمع . إن تقاطع عالمان تختلف مكوناتُ أحدِهما اختلافا تاما عن مكونات الآخر فقد يدمر أحدهما الآخر . وإن وجد شكل الحياة المختلف هذا طريقه إلى هنا . . .حسنا ، هذا ما كان جورج يقول إنه حصل . أنهم وجدوا فعلا طريقة ما للسفر إلى هنا ، عن قصد أو عن غير قصد . أحببت الفكرة . لكن دون لم يحببها . كان كثير التردد على الإنترنت في تلك الفترة ، يتعلم عن المواد الكيميائية ، موجات غاما ، وأيِّ شيء لا يرى قد يؤذيك إن نظرت إليه لأنك تحديدا لا تعلم أنك نظرت إليه . أجل ، كان دُون شديدا علينا بهذا الخصوص . دُون شخص متحمس ، بل غَضُوب . لكن جورج كان من أولئك الذين إذا خطرت لهم فكرة نفذوها ، مهما كانت خطيرة .

«عندما وصل جولز وفيلكس ، كان جورج جاهزا لتجربة نظريته عن الرؤية المنحرفة . لقد قرأت معه كل ما استطاع أن يستخرجه من الإنترنت . الكثير من المواقع الإلكترونية عن النظر وعن كيف تعمل العين وعن الخدع البصرية وعن انحراف الضوء ، وكيف يعمل التلسكوب بالضبط وأشياء أخرى كثيرة . كنا نتحدث عن ذلك باستمرار . وعندما ينام دون ، فيلكس وجولز ، نجلس جورج وأنا إلى مائدة المطبخ ونرسم منحنيات . كان يروح ويجيء ثم يقف ويلتفت إلي ويسأل «هل عُرِف عن أيٍّ من الضحايا أنه كان يرتدي نظارات؟ ربما يمكن لنافذة مغلقة أن تحمينا ، إن اعتمدنا زوايا معينة» ، ونتحدث عن ذلك لساعة أخرى .

كان جميعنا يتابع الأخبار باستمرار ، على أمل أن نلتقط دليلا ، معلومةً نستعملها لنساعد الناس على أن يحموا أنفسهم .

لكن تقارير الأخبار سرعان ما راحت تكرر نفسها ، فَنفد صبر جورج ، وكلما تحدث عن تجربة نظريته عن «الرؤية المنحرفة» زادت رغبته في تنفيذ التجربة . أنا كنت خائفا يا مالوري ، أما جورج فكان كربان سفينة تغرق لا يخاف الموت . وماذا لو نجح الأمر؟ حسنا ، ذلك يعني أنه سيكون ساهم في شفاء الكوكب من أشد الأوبئة التي ضربته فتكا .»

يتكلم توم ، ونور المصباح يرقص في عينيه .

«ماذا استعمل؟» تسأل مالوري

«كاميرا فيديو» ، يقول توم ، «كانت عنده واحدة يخبؤها في الطابق العلوي . واحدة من الطراز القديم . فعل ذلك دون أن يخبرنا . ذات ليلة ، وضعها وراء إحدى البطانيات المسدلة في غرفة الطعام . كنت أول المستيقظين في الصباح ووجدته نائما على الأرض هناك . عندما انتبه لي ، قام وهرع إلى الكاميرا . 'توم' ، قال لي ، ' لقد فعلتها . لقد سجلت لمدة خمس ساعات . هاهي ذي هنا ، هنا ، داخل هذه الكاميرا . ربما أمسك هنا بالعلاج لهذا الأمر كله . الرؤية غير المباشرة . *الفيلم* . لا بد لنا من أن نشاهده . '

«قلت له إني لا أظنها فكرة سديدة ، ثم إني ظننت أن خمس ساعات مدة أقصر من أن يلتقط فيها شيئا ذا بال . لكنه كان رسم خطته التي عرضها علينا جميعا . قال إنه يريد أن يربطه أحدنا إلى كرسي في واحدة من غرف الطابق العلوي وإنه سيشاهد الشريط هناك . كما رأى الأمر ، إن شُدَّ وثاقُه إلى كرسي ، فلن يكون قادرا على إيذاء نفسه إن ساءت الأمور . وغضب دون غضبا شديدا وقال لجورج إنه خطر علينا جميعا ، ثم قال بحق إننا لا نعلم أي شيء نواجه ، وأنه إن حدث شيء لجورج فقد يحدث لنا شيء أيضا .

لكن فيلكس وأنا لم نعارض ، فصوّتنا لنفصل في الأمر . كان دون الوحيد الذي لم يرده أن يمضي في تنفيذ فكرته ، وقال إنه سيغادر المنزل فأقنعناه بألا يفعل . أخيرا قال جورج إن المنزل منزله وإنه لم يكن بحاجة لإذن أحد حتى يصنع ما يريد . وقلت له إنني سأوثقه إلى الكرسي .»

«و فعلت؟»

«نعم فعلت»

عينا توم ترتحلان إلى البساط .

«بدأ الأمر مع جورج بالشهيق . كما لو أن شيئا استقر في حلقه . كان أمضى ساعتين هناك ولم نسمع له صوتا ، ثم راح ينادينا . 'توم ، أيها الحقير ، *اصعد إلي* . اصعد إلي' . وبدأ يقهقه ، ثم راح يصرخ ، ثم يعوي ، كأنه كلب . ثم سمعنا الكرسي يسقط بعنف على الأرض . كان يصرخ ويجدف . ووقف جولز يريد مساعدته لكنني أمسكته من ذراعه أمنعه من ذلك . ما كان بوسعنا أن نفعل شيئا إلا أن ننصت . ولقد سمعنا كل شيء . كل شيء إلى أن سمعنا صوت الكرسي يتحطم ثم سكت الصراخ . عندئذ انتظرنا . انتظرنا طويلا . وأخيرا صعدنا جميعا . أطفأنا جهاز الفيديو وأعيننا معصوبة ، ثم فتحنا أعيننا ، فرأينا ما فعل جورج بنفسه . لقد ضغط بشدة على الحبل حتى *اخترق* عضلاتِه إلى العظام . بدا جسده كله كأنه ناطف ودم ولحم التف على الحبل في صدره وبطنه وعنقه ورسغيه وساقيه . تقيأ فيلكس ، وانحنينا أنا ودون بجانب جورج ورحنا ننظف . عندما انتهينا ، أصرَّ دون على أن نحرق شريط الفيديو ، ففعلنا . وبينما هو يحترق ، لم أستطع أن أطرد فكرة أنه يذهب بنظريتنا الحقيقية الأولى . يبدو أنه مهما يكن الموشور الذي

تنظر إليها من خلاله ، هذه الأشياء ستؤذيك .»

مالوري صامتة .

«ولكن ، أتعلمين؟ لقد كان على حق . بوجه ما . لقد خمَّن أنها مخلوقات قبل أن تقول ذلك نشرات الأخبار بكثير . ولا شك في أن جورج كان على شيء . وربما لو أنه مضى فيه على غير ما فعل ، لكان هو الرجل الذي يغير العالم»

عينا توم تغرورقان بالدمع .

«أتعلمين ما أكثر ما يخيفني في هذه القصة يا مالوري؟»

«ماذا؟»

«لم تشغل الكاميرا إلا لخمس ساعات ومع ذلك التقطت شيئا . فكم من هذه الأشياء في الخارج؟»

تنظر مالوري إلى البطانيات التي تغطي النوافذ ، ثم تنظر إلى توم يسوي الواقي الذي يصنعه لزجاج السيارة . الموسيقى تأتي هادئة من غرفة الطعام .

«حسنا» ، يقول توم وهو يرفع الشيء بيديه ، «لنأمل أن يساعدنا هذا الشيء . أتعلمين ، لا يمكننا أن نكف عن المحاولة فقط لأن جورج مات . أحيانا ينتابني شعور بأن ما حصل أخافَ دون . لقد أثَّر فيه بشكل ما ، ما في ذلك شك .»

يقف توم ويمسك بالقطعة الكبيرة أمامه ، ثم تسمع مالوري شيئا يرتطم وإذا بالشيء الذي يصنعه توم يتحطم عند قدميه .

يلتفت إلى مالوري .

«لا يمكننا أن نكف عن المحاولة» .

الفصل الثالث عشر

فيلكس يسلك السبيل المؤدية إلى البئر . واحد من دلاء الرفاق الستة يتدلى من يده اليمنى . الدلو مصنوعة من الخشب ، ويدها الحديدية السوداء تجعلها تبدو قديمة . هي أثقل من الدلاء الأخرى لكن فيلكس لا يكترث لذلك ، بل إن ذلك يعجبه ، فهو يبقي قدمه راسخة في الأرض ، كما يقول .

الحبل يحيط بخصره ، وطرفه الآخر مربوط بوتد من الفولاذ مغروس في الطين ، غير بعيد عن باب المنزل الخلفي . هناك الكثير من قطع الفحم . بعضها يحتك بأسفل سرواله وبحذائه ، وهو يخشى من أن يتعثر بإحداها ، ولأجل ذلك يرفعها بيده اليسرى ويبعدها عن جسده . عيناه معصوبتان . قطع الإطارات الخشبية القديمة التي تحدد الطريق تعلمه إن ابتعد كثيرا بهذا الاتجاه أو ذاك .

«الأمر أشبه بأوبيرايشن!» يرفع صوته مناديا جولز الذي ينتظره عند الوتد معصوب العينين . «أتذكر تلك اللعبة؟ في كل مرة تلمس قدمي الخشب أسمع طنينا ينطلق»

جولز يتكلم منذ أن بدأ فيلكس يمشي باتجاه البئر . هذه هي الطريقة التي ينجز بها الرفاق المهمة . واحد يجلب الماء والآخر يخبره كم ابتعد عن المنزل بواسطة صوته . لم يقل جولز شيئا مهما . ذكر العلامات التي تحصل عليها في الجامعة ، والأعمال الثلاثة الأولى التي عملها بعد تخرجه . فيلكس يسمع بعض الكلمات ولا يسمع أخرى ، لكن ذلك ليس مهما . طالما أن جولز يتكلم ، يخِفُّ شعور

فيلكس بأنه كمن ألقي في عرض البحر .
لكنه لا يخِفُّ كثيرا .
يصطدم بالبئر عندما يصل إليها . حافة الحجر تخدش فخذه . فيلكس يدهشه كيف لذلك أن يؤلمه بكل ذلك القدر رغم أنه يمشي ببطء شديد ، ويتساءل كم كان سيؤلمه لو أنه اصطدم بالحجر وهو يركض .
«أنا عند البئر يا جولز! أنا الآن أحكم ربط الدلو»
جولز لا ينتظر فيلكس لوحده . شيريل تقف وراء باب المنزل الخلفي ، في المطبخ ، تنصت من خلف الباب . الرفيق الذي ينتظر في المطبخ لا يُحتاج له إلا إذا ساءت الأمور في الخارج ، وهي تأمل ألا يكون لدورها «كشبكة أمان» أي معنى في هذا اليوم .
فوق فم البئر الفاغر عارضة خشبية ، وفي كل طرف منها خُطَّاف من الفولاذ . لأجل ذلك يحب فيلكس أن يستخدم الدلو الخشبية عندما يذهب إلى البئر ، فهي الوحيدة التي تلائم الخطافين تماما . يربط حبل البئر بالدلو . يُحكمه وعندئذ يدير المِرفَق ليشدَّ الحبل إلى أقصى حد ممكن . يمسح يديه الخاليتين بسرواله .
وإذ به يسمع شيئا يتحرك هنا .
يلتفت فيلكس بسرعة ، ويرفع يديه أمام وجهه ، لكن لا شيء يحدث . لا شيء يهاجمه . لا يزال بإمكانه سماع جولز أمام الباب الخلفي يتكلم . يقول شيئا عن اشتغاله ميكانيكيا . وعن إصلاح الأشياء .

يصيخ فيلكس .
وهو يتنفس بصعوبة ، يدير المرفق مرة واحدة في الاتجاه الآخر ، بينما يلقي سمعه إلى ما تبقى من الفناء . الحبل مرخى ما يكفي

فقط ليسحب الدلو من الخطافين ويتركها معلقة تتدلى فوق فم البئر الحجري . ينتظر دقيقة أخرى . جولز يناديه .

«أكل شيء على ما يرام يا فيلكس؟»

ينصت فيلكس قليلا بعدُ ثم يجيب ، وإذ يفعل ، يشعر كما لو أن صوته يدل فجأة على مكانه بالتحديد .

«نعم ، ظننتني سمعت شيئا»

«ماذا؟»

«ظننتني سمعت شيئا! سأجلب الماء الآن .»

يدير فيلكس المرفق ويدلي الدلو . يسمع ارتطامها بالجوانب الحجرية داخل البئر . أصوات الارتطام تتبعها أصداء فارغة . فيلكس يعلم أن على المرفق أن يدور عشرين دورة لكي تبلغ الدلو الماء ، وهو الآن يعدها .

«إحدى عشرة ، اثنتا عشرة ، ثلاث عشرة . . .»

عند التاسعة عشرة يسمع طرطشة قادمة من قعر البئر ، وعندما يغلب على ظنه أن الدلو قد امتلأت يرفعها إليه . يحكم ربطها بالخطافين ثم يفك الحبل ويبدأ سيره ليعود إلى جولز .

سيفعل كل هذا ثلاث مرات .

«أنا أجلب الدلو الأولى!» ينادي فيلكس .

جولز لا يزال يتحدث عن تصليح السيارات . يصل إليه فيلكس فيلمسه جولز من كتفه . عادة ، في هذه المرحلة ، يدق الرفيق الواقف أمام الوتد البابَ الخلفي ليخبر من ينتظر بالداخل بأن الدلو الأولى قد استخرجت ، لكن جولز يتردد .

«ما الذي سمعته هناك؟» يسأل .

فيلكس يفكر وهو يحمل دلوه الثقيلة .

«ربما كان ذلك أيّلاً، لست متأكدا»
«هل قدم من الغابة؟»
«لا أعلم من أين جاء»
يصمت جولز، ثم يسمعه فيلكس يتحرك.
«هل تبحث لتتأكد من أننا لوحدنا؟»
«أجل»

عندما يكتفي جولز، يطرق الباب الخلفي مرتين. يحمل الدلو عن فيلكس. بسرعة تفتح شيريل الباب فيناولها إياها جولز. يغلق الباب.

«إليك الثانية»، يقول جولز ويناول فيلكس دلوا أخرى.

يسير فيلكس باتجاه البئر. الدلو التي يحملها الآن مصنوعة من صفائح المعدن. ثمة ثلاثة مثلها في المنزل. في قعر كل منها حجران ثقيلان، وضعها توم بعد ما قرر أن الدلاء لم تكن ثقيلة بما يكفي لتغطس. هي ثقيلة، لكنها ليست بثقل الدلو الخشبية. جولز يتكلم من جديد، وهو الآن يتحدث عن فصائل الكلاب. لقد سمع فيلكس هذا من قبل. كان لجولز في ما مضى كلب لابرادور أبيض، اسمه شيري، كان كما يقول عنه أكثر الكلاب التي عرفها مرحا. يلمس حذاء فيلكس الخشب المنغرس في الطين فيكاد يقع. هو يسير أسرع مما يجب. يبطئ، وهذه المرة، إذ يصل إلى البئر، يتحسس بحثا عنها بيد ممدودة. يضع الدلو على الشفا الحجرية ويشرع في ربط حبل العارضة إلى ذراع الدلو.

يسمع شيئا. مرة أخرى. كأنه صوت خشب يتكسر في البعيد.

يلتفت فيلكس فيصيب الدلو ويرميها عن الحافة فتسقط في

البئر ، ويدور المرفق لوحده . ترتطم البئر بالقعر ويرتفع صدى اصطدام المعدن بالحجر عاليا . يناديه جولز . فيلكس يدور على نفسه ويشعر بأنه ضعيف إلى حد لا يصدق . مرة أخرى هو لا يعلم من أين جاء الصوت . ينصت وهو لا يكاد يستطيع التنفس . ينحني إلى الحجارة وينصت .

الريح تحف الأوراق في الشجر .

ولا شيء آخر .

«فيلكس»

«لقد أوقعت الدلو في البئر!»

«هل كانت مربوطة؟»

يصمت .

يلتفت فيلكس بعصبية إلى البئر . يسحب الحبل المربوط بالعارضة ويكتشف أنه قد ربطه ، أجل ، إلى ذراع الدلو قبل أن يسقطها عرضا . يترك الحبل ويلتفت إلى الفناء . يتوقف ثم يبدأ برفع الدلو الثانية .

وهو يسير عائدا إلى المنزل ، يسأله جولز .

«هل أنت بخير يا فيلكس؟»

«نعم»

«أسقطت الدلو؟»

«صدمتها ، نعم . مرة أخرى ظننتني سمعت شيئا»

«كيف كان الصوت؟ كعود ينكسر؟»

«كلا . أجل . ربما . لا أدري»

يصل فيلكس إلى جولز ويأخذ جولز الدلو منه .

«هل أنت متأكد من أنك قادر على أداء هذا العمل اليوم؟»

«نعم، لقد جلبت دلوين حتى الآن. أنا بخير. كل ما في الأمر هو أنني أسمع أشياء لعينة هناك يا جولز»
«هل تريدني أن أجلب الدلو الأخيرة؟»
«كلا، يمكنني فعل ذلك»
يطرق جولز الباب الخلفي. تفتح شيريل الباب وتستلم الدلو ثم تناول جولز الدلو الثالثة.
«هل أنتما بخير؟» تسأل.
«نعم»، يقول فيلكس، «نحن بخير»
تغلق شيريل الباب.
«إليك الدلو»، يقول جولز، «إن احتجتني، أخبرني. تذكر أنك موصول بهذا.»
يشد على الحبل.
«حسنا»
في رحلته الثالثة إلى البئر، على فيلكس أن يذكر نفسه مرة أخرى بأن يبطئ في مشيه. هو يدرك لم هو مسرع. هو يريد أن يعود إلى الداخل، حيث يمكنه أن ينظر إلى جولز، حيث البطانيات على النوافذ تمنحه شعورا أكبر بالأمان. لكنه رغم ذلك يصل إلى البئر بأسرع مما كان يتوقع. ببطء، يربط حبل العارضة إلى ذراع الدلو، ثم يتوقف.
لا صوت هناك إلا صوت جولز قادما من طرف الحبل الآخر.
العالم يبدو هادئا هدوءا غير عادي.
يدير فيلكس المرفق.
«واحدة، إثنتان...»
جولز يتكلم. صوته يبدو بعيدا. أبعد مما يجب.

«ست ، سبع . . .»

صوت جولز يبدو قلقا . لم بدا كذلك؟ هل يفترض به أن يبدو كذلك؟

«و هذه عشرة ، وهذه إحدى عشرة . . .» .

يتشكل العرق خلف عصابة فيلكس ، ثم يبدأ رحلته ببطء نزولا على أنفه .

سنعود *إلى المنزل بسرعة* ، يقول فيلكس لنفسه . *فقط املأ الدلو الثالثة وعد إلى المنزل اللع –*

من جديد يسمع الصوت . للمرة الثالثة .

لكنه هذه المرة قادر على أن يحدد من أين جاء .

إنه آت من داخل البئر .

يترك المرفق ويتراجع . تقع الدلو وترتطم بالحجر ، قبل أن تحدث بقبقة في الأسفل .

لقد تحرك شيء ما . شيء ما تحرك في الماء .

هل تحرك شيء ما في الماء؟

فجأة يشعر بالبرد ، ببرد شديد . ويرتجف .

جولز يناديه لكن فيلكس لا يريد أن يجيبه . لا يريد أن يصدر صوتا .

ينتظر . ويزداد خوفه كلما امتد انتظاره . وكأن الصمت يصبح أثقل فأثقل . وكأنه على وشك أن يسمع ما لا يريد أن يسمعه . لكن لا صوت يأتيه ، فيقنع نفسه شيئا فشيئا بأنه كان يتوهم . نعم ، قد يكون ذلك شيئا تحرك في البئر ، لكنه قد يكون شيئا تحرك في النهر كذلك ، أو في الغابة ، أو في العشب .

قد يكون الصوت قدم من *أي* مكان .

يتقدم إلى البئر من جديد . وقبل أن يمد يده إلى الحبل ، يلمس الحافة الحجرية . يمرر أصابعه فوقها ، ليقيس عرضها .

هل يسعني أن أدخل إلى هنا؟ هل يسع أيا كان أن يدخل إلى هنا؟

هو ليس واثقا من ذلك . يلتفت إلى ناحية المنزل ، مستعدا لترك الدلو حيث هي . ثم يلتفت إلى البئر ويبدأ بتدوير المرفق . بسرعة .

أنت تسمع أشياء . أنت تفقد صوابك يا صاح . ارفع هذا الشيء . عد إلى الداخل . حالا .

لكن وهو يدير المرفق ، يحس فيلكس بأنه قد بدأ يتملكه خوف قد يتفاقم ويصبح أكبر من أن يعالجه . وكأن الدلو ، يقول لنفسه ، أثقل قليلا مما هي عادة .

هي ليست أثقل! ارفع الدلو وعد إلى الداخل الآن!!

تصل الدلو إلى الحافة فيتوقف فيلكس . ببطء ، يمد يدا واحدة إليها . يده ترتجف . وإذ تلمس أصابعه الفولاذية المبلولة ، يبتلع ريقه مرة ، بصعوبة بالغة . ثم يدخل يده في الدلو .

«فيلكس؟»

جولز يناديه .

فيلكس لا يشعر بشيء في الدلو إلا الماء .

أرأيت؟ أنت فقط تتوهم–

يسمع خلفه وقع أقدام مبلولة على العشب .

يرمي فيلكس الدلو ويركض .

يسقط .

انهض .

ينهض ويركض .

يناديه جولز ، فيرد عليه .

يسقط من جديد .

انهض . انهض .

ينهض من جديد ، ويركض .

يدا جولز تلمسانه .

الباب الخلفي يُفتح . تمسك به يدا رفيق آخر . هو الآن بالداخل . الجميع يتكلمون . دون يصرخ . شيريل تصرخ . توم يصرخ بالجميع أن هدئوا من روعكم . يغلق الباب الخلفي . تسأل أوليمبيا ما الذي يجري . تسأل شيريل ما الذي حصل . يأمر توم الجميع بأن يغمضوا أعينهم . يلمس أحدهم فيلكس . يصرخ جولز بالجميع أن يصمتوا .

فيصمتون .

عندئذ يتكلم توم ، بهدوء .

«دون ، هل تحققت من الباب الخلفي؟»

«وكيف لي بحق الجحيم أن أعرف هل فعلت ذلك كما يجب يا رجل؟»

«أنا فقط أسألك هل فعلت؟»

«فعلت ، نعم فعلت»

يقول توم ، «فيلكس ، ما الذي حصل؟»

يخبره فيلكس . يخبره بكل صغيرة وكبيرة يتذكرها . يسأله توم أن يعيد على سمعه ما حصل في النهاية . يريد أن يعرف أكثر عما حدث عند الباب الخلفي . قبل أن يُدخلوه . وهم يُدخلونه . فيخبره فيلكس من جديد .

«حسنا» ، يقول توم مرة أخرى ، «سأفتح عينيَّ»
تتوتر مالوري .
«أنا بخير» ، يقول توم ، «لا بأس»
تفتح مالوري عينيها . على منضدة المطبخ دلوان مملوءتان بماء البئر . فيلكس واقف معصوب العينين أمام الباب الخلفي . جولز ينضو عنه عصابته .
«أوصدوا هذا الباب» يقول توم
«الباب موصد» تقول شيريل
«جولز» ، يقول توم ، «كدس كراسي غرفة الطعام على هذا الباب ، ثم سد النافذة في غرفة الطعام بالطاولة»
«توم» ، تقول أوليمبيا ، «أنت تخيفني»
«دون ، تعال معي . سنسد الباب الرئيسي بالخزانة . فيلكس ، شيريل ، اقلبا أريكة غرفة الجلوس على ظهرها وسدا إحدى النافذتين . سأجد ما أسد به النافذة الأخرى .»
الرفاق يحملقون بتوم .
«هيا» ، يقول بنفاد صبر ، «انطلقوا!»
وهم يتفرقون ، تلمس مالوري توم من ذراعه .
«ما الأمر؟»
«يمكنني وأوليمبيا المساعدة . نحن حبليان ولسنا كسيحتين . سنضع الفرش في الطابق العلوي على النوافذ .»
«حسنا ، ولكن افعلا ذلك وأعينكما معصوبة . وكونا حذرتين كما لم تكونا في حياتكما»
يغادر توم المطبخ . تمر مالوري وأوليمبيا بغرفة الجلوس فتجدان دون فيها يزحزح الأريكة . في الأعلى ، تضع المرأتان فراش مالوري

بحذر شديد على ظهرها لِصْقَ البطانية التي تغطي النافذة . ثم تفعلان الشيء نفسه في غرفتي أوليمبيا وشيريل .

عند عودتهما إلى الطابق السفلي ، الأبواب والنوافذ كلها مسدودة .

الرفاق مجتمعون في غرفة الجلوس ، وقوفا متراصين .

«توم» ، تقول أوليمبيا ، «أثمة شيء في الخارج؟»

يتريث توم قبل أن يجيب . مالوري ترى في عيني أوليمبيا ما هو أعمق من الخوف ، وتشعر به هي أيضا .

«ربما»

توم يحدق بالنوافذ .

«لكنه قد يكون . . .أيلا ، أليس كذلك؟ أليس من الممكن أن يكون أيلا؟»

«ربما»

واحدا تلو الآخر يجلس الرفاق على أرض غرفة الجلوس المفروشة بالسجاد . الكتف بجانب الكتف ، ظهرا لظهر . هم أولاء ، في مركز الغرفة ، والأريكة على نافذة ، وكراسي المطبخ مكدسة على النافذة الأخرى ، جالسون في صمت .

ينصتون .

الفصل الرابع عشر

ماء النهرِ الباردُ يبقبق بين ساقي مالوري وهي تجذف . وفي كل مرة يفعل تتخيل واحدا من تلك المخلوقات في النهر يقعب أيديه ويرمي بنفسه عليها ، هازئا منها لمحاولتها الهرب . وتتملكها رعدة .

مالوري تتذكر أن كتاب أوليمبيا للحمل والولادة قد علمها أشياء كثيرة . لكن جملة واحدة في كتاب *وأخيرا . . .طفل!* شدَّت انتباهها :

طفلك أذكى مما تظنين .

في البداية ، لم تقبل مالوري هذه الفكرة . في العالم الجديد ، استلزم الأمر أن يدرب الأطفال على أن يستيقظوا وأعينهم مغمضة . أن يتربوا على الخوف . فلم يكن الوضع يحتمل التعامل مع أي مجهول . ومع ذلك ، كانت هناك مرات أدهشها فيها الصبي والبنت .

ذات مرة ، بعد أن نظفت رواق الطابق العلوي من لعب الأطفال المرتجلة ، دخلت مالوري إلى غرفة الجلوس . هنالك ، سمعت شيئا يتحرك في الغرفة آخر رواق الطابق الأول .

«أيها الصبي؟» ، نادت ، «يا بنت؟»

لكنها كانت تعلم أن الطفلين كانا في غرفتهما . لقد أوصدت عليهما مهديهما قبل أقل من ساعة .

أغمضت مالوري عينيها وذهبت إلى الرواق .

كانت تعلم أيٍّ صوت ذاك . كانت تعلم بالتحديد مكان كل

شيء في المنزل . كان ذلك كتابا يقع من على الطاولة التي كان يتشاركها جولز ودون .

عند باب غرفة الطفلين ، توقفت . وسمعت شخيرا خفيفا داخل الغرفة .

ارتطام آخر في الغرفة المهجورة فشهقت مالوري . كان الحمام على بعد خطوات منها والطفلان نائمين . إن استطاعت أن تصل إلى الحمام فستتمكن من الدفاع عن نفسها .

بعينين مغمضتين ، وذراعاها مرفوعتان أمام وجهها ، تحركت بسرعة ، وارتطمت بالجدار قبل أن تجد باب الحمام . دخلت وصدمت وركها بعنف بالمغطس . باضطراب تلمست الجدار وأحست بملمس منشفة معلقة . ربطتها بإحكام على عينيها وعقدتها مرتين . ثم وجدت خلف الباب المفتوح ما كانت تبحث عنه .

فأس الحديقة .

مسلحةً معصوبةَ العينين خرجت من الحمام . وهي تمسك مقبض الفأس بكلتا يديها ، تقدمت ببطء إلى الباب الذي كانت تعلم أنه ظل مغلقا . لكنه الآن مفتوح .

دخلت .

لوحت بالفأس ، كيفما اتفق ، على مستوى عينيها ، وضربت الجدار الخشبي فصرخت مالوري إذ تطايرت الشظايا . التفتت ولوحت من جديد ، هذه المرة في اتجاه الجدار المقابل .

«اخرج! دع طفليَّ وشأنهما!»

لاهثة ، وقفت تنتظر .

إجابة ، حركة ، ذلك الذي ، أياً يكن ، أوقع الكتب هنا .

وإذ بها تسمع الصبي ، عند قدميها ، يئن أنينا خافتا .

«يا صبي؟»

انحنت وقد تملكتها الدهشة ووجدته بسرعة . نضت عنها المنشفة وفتحت عينيها .

في يديه الصغيرتين رأت مسطرة ، وبجانبه الكتب .

حملته وأخذته إلى غرفته . وهنالك وجدت الشباك الذي يغطي المهد مفتوحا . أجلست الصبي على الأرض بجانب المهد ثم أغلقته وطلبت منه أي يفتحه . نظر الصبي إليها ، فأمسكت بالقفل وطلبت منه أن يريها إن كان يستطيع فتحه ففعل .

صفعت مالوري الصبي .

وأخيرا . . . طفل!

تذكرت كتاب أوليمبيا الذي صار كتابها .

وعادت إليها الجملة التي حاولت جاهدة أن تتجاهلها .

طفلك أذكى مما تظنين .

كانت هذه الجملة تقلقها . أما اليوم ، على القارب ، وهي تتخذ من آذانهما دليلا ، فهي تتعلق بها وتأمل أن يكون الطفلان مهيئين لما قد سيأتي بينما هم يتقدمون في النهر .

أجل ، هي تأمل أنهما أذكى مما قد يكون بانتظارهما وانتظارها .

الفصل الخامس عشر

«لن أشرب من هذا الماء» ، تقول مالوري

الرفاق منهكون . لقد ناموا متراصين على أرض غرفة الجلوس ، لكن النوم لم يطل بأيٍّ منهم .

«لا يمكننا أن نبقى أياما دون ماء يا مالوري» ، يقول توم ، «فكري بالطفل»

«الطفل هو من أفكر به»

في المطبخ ، على المنضدة ، الدلوان اللتان ملأهما فيلكس لا تزالان على حالهما لم يمسسهما أحد . الرفاق يلعقون شفاههم الواحد تلو الآخر . مرت أربع وعشرون ساعة واحتمالُ أن يطول الأمر أكثر يلقي بظلاله الثقيلة عليهم .

العطش يستبد بهم .

«أيمكن أن نشرب من ماء النهر؟» يسأل فيلكس .

«البكتيريا» يقول دون

«هذا يتوقف» ، يقول توم ، «على مدى برودة المياه وعمقها وسرعة جريانها»

«وعلى أي حال» ، يقول جولز ، «إن كان شيء دخل إلى البئر ، فلا شك في أنه قد دخل إلى النهر أيضا»

العدوى ، تقول لنفسها مالوري . إنها كلمة الساعة .

في القبو ثلاثة دلاء مملوءة بَولاً وغائطا ، ولا أحد يريد أن يخرجها . لا أحد يريد أن يخرج اليوم على الإطلاق . الرائحة قوية

في المطبخ وتحوم خفيفة في غرفة الجلوس .

«بإمكاني أن أشرب من ماء النهر» ، تقول شيريل ، «يمكنني أن أخاطر بذلك»

«وتخرجين؟» ، تسألها أوليمبيا ، «قد تصادفين شيئا يقف على الجانب الآخر من ذلك الباب!»

«لا أعلم ماذا سمعت» ، يقول فيلكس . لقد قال هذه الجملة مرارا وتكرارا وقال إنه يشعر بالذنب أنه أخاف الجميع .

«ربما كان شخصا ما» ، يقول دون ، «شخصا يريد أن يسرقنا»

«هل علينا أن نتأكد من ذلك الآن؟» يسأل جولز . «لقد مر يوم ، ولم نسمع شيئا ، فلننتظر ، يوما آخر ، ونرى هل ستتحسن الأمور»

«يمكنني أن أشرب حتى من الدلاء» ، تقول شيريل ، «إنها بئر ، بحق الجحيم . الحيوانات تقع في الآبار باستمرار وتموت هناك . لعلنا كنا كل هذا الوقت نشرب ماء فيه جيفة»

«لطالما كان الماء في هذا الحي صالحا للشرب» ، تقول أوليمبيا .

تقف مالوري وتتجه إلى مدخل المطبخ . الماء يتلألأ على حافة الدلو الخشبية ، ويتألق في الدلو المعدنية .

ماذا ستفعل بنا؟ تقول لنفسها .

«ما رأيك في شرب القليل منه؟» يسأل توم

تلتفت مالوري . توم واقف إلى جانبها . كتفه يحتك بكتفها عند الباب .

«لا يمكنني أن أفعل ذلك يا توم»

«لم أكن لأسألك أن تفعلي . لكن يمكنني أن أسأل نفسي»

تنظر مالوري إلى عينيه فتدرك أنه جاد فيما يقول .

«توم»

يلتفت توم ليواجه الآخرين في غرفة الطعام .
«سأشرب أنا» ، يقول
«لسنا بحاجة لبطل» يقول دون
«وأنا لا أسعى لأكون بطلا يا دون . أنا عطشان»
الرفاق صامتون . مالوري ترى في وجوههم نفس ما تشعر به . فرغم أن الأمر يخيفها ، هي تريد أن يشرب أحد الماء .
«هذا جنون» ، يقول فيلكس ، «بحقك يا توم ، يمكننا أن نجد حلا آخر»
يدخل توم إلى غرفة الطعام ، وعند الطاولة ينظر إلى عيني فيلكس .
أوصدوا علي باب القبو . سأشربه هناك»
«ستجن من الرائحة» ، تقول شيريل .
ترتسم على شفتي توم ابتسامة حزينة .
«لدينا بئر ، هنا في حديقتنا الخلفية .» ، يقول ، «إن لم ننتفع بها ، فلن ننتفع بأي شيء آخر . دعوني أمض في الأمر»
«هل تعلم من تشبه وأنت تتكلم هكذا؟» يسأل دون
لا يجيب توم .
«تشبه جورج ، لكن الفرق هو أن جورج كانت لديه فكرة ما»
ينظر توم إلى طاولة غرفة الطعام المسندة إلى النافذة .
«نحن هنا منذ أشهر» ، يقول ، «إن كان شيء دخل إلى البئر أمس ، فمن المحتمل أن يكون دخلها من قبل»
«أنت تلتمس الأعذار لنفسك» ، تقول مالوري
يجيبها توم دون أن ينظر إليها .
«هل أمامنا حل آخر؟ نعم ، ثمة النهر . لكننا قد نمرض ، مرضا

شديدا . نحن لا نملك دواء وكل ما لدينا حتى الآن هو ماء البئر . هو دواءنا الوحيد . ماذا بوسعنا أن نفعل غير هذا؟ نسير إلى البئر التالية؟ ثم ماذا؟ نتمنى ألا يكون دخل إليها شيء؟»

تنظر مالوري إلى الرفاق وهم يوافقون على كلام توم واحدا تلو الآخر . التمرد الذي جُبِل عليه دون يزول من وجهه ليحل محله القلق . الخوف في عيني أوليمبيا يتحول إلى شعور بالذنب . أما عنها ، فهي لا تريده أن يفعل ذلك ، فلأول مرة من وصولها إلى المنزل ، يتجلى لها دور توم فيه ، وكم هو أساسي في كل ما يحدث هنا ، ساطعا .

لكنها بدل أن توقفه تستلهم منه ، وتساعده .

«ليس في القبو» ، تقول ، «ماذا لو فقدت صوابك هناك ودمرت كل مخزوننا من الغذاء؟»

ينظر إليها توم .

«حسنا» ، يقول ، «في العلية إذن»

«القفزة من تلك النافذة أعلى بكثير منها لو قفزت من هنا»

يحدق توم بعيني مالوري .

«سأقبل بحل وسط» ، يقول ، «الطابق الأول . عليكم أن تحبسوني في مكان ما ، ولا مكان هنا»

«يمكنك أن تستخدم غرفتي»

«تلك الغرفة» ، يقول دون ، «هي الغرفة نفسها التي استخدمها جورج ليشاهد شريط الفيديو»

تنظر مالوري إلى توم .

«لم أكن أعلم ذلك»

«لنفعل ذلك» يقول توم .

يتردد ، للحظة فقط ، قبل أن يتجاوز مالوري ويدخل المطبخ ، فتتبعه مالوري ، ويصطف الرفاق خلفهما . وإذ يخرج كأسا من الخزانة ، تمسكه مالوري من ذراعه بلطف .

«اشرب بواسطة هذه» ، تقول وتناوله مصفاة قهوة . «لا أعلم . مصفاة . من يدري؟»

يتناول توم المصفاة ، وينظر إلى عينيها ، ثم يغطس الكأس في الدلو الخشبية .

يخرجه ويرفعه . يتحلق الرفاق حوله على شكل نصف دائرة ، وينظرون إلى ما في الكأس .

تعود تفاصيل ما رواه فيلكس لترعب مالوري من جديد .

يغادر توم المطبخ وبيده الكأس . يجمع جولز بعض الحبال من غرفة المؤونة ويتبعه .

لا يتكلم باقي الرفاق . تضع مالوري يدا على بطنها والأخرى على المنضدة ، ثم ترفعها بسرعة كما لو أنها وضعتها في مادة مميتة .

العدوى .

لكن حيث وضعت يدها لم يكن هناك ماء .

في الأعلى ، يغلق باب غرفتها . تنصت إلى جولز وهو يربط الحبل إلى مقبض الباب ثم إلى الدرابزين .

توم الآن محبوس .

مثل جورج .

يمشي فيلكس جيئة وذهابا . يتكئ دون على الجدار ، شابكا ذراعيه مطرقا محدقا بالأرض . يعود جولز فيذهب معه فيكتور .

يأتي صوت من الأعلى ، فتشهق مالوري ، وينظر الرفاق إلى السقف .

ينتظرون ، وينصتون . يتحرك فيلكس كأنه يريد الصعود ، ثم يتوقف .

«لا شك في أنه قد شربه» يقول دون بهدوء .

تتقدم مالوري إلى مدخل غرفة الجلوس . الدرج هناك ، على بعد عشرة أقدام .

لا شيء غير الصمت .

ثم تسمع طرقة .

ويصرخ توم .

يصرخ توم يصرخ توم يصرخ توم يصرخ .

تتحرك مالوري باتجاه الدرج لكن جولز يعترضها .

«مكانك!» يأمرها .

تنظر إليه يصعد الدرج .

«توم!»

«جولز ، أنا بخير»

وإذ تسمع صوت توم ، تتنفس مالوري الصعداء وتمد يدها إلى الدرابزين لتسند نفسها .

«هل شربت الماء؟» يسأله جولز من وراء الباب .

«نعم شربته ، أنا بخير»

الرفاق يقفون خلفها الآن ، يتكلمون ، بهدوء ، ثم باهتياج . في الأعلى ، جولز يفك الحبل . يخرج توم من الغرفة وهو يرفع في يده الكأس الفارغة .

«كيف كان الأمر؟» تسأله أوليمبيا .

تبتسم مالوري ، وكذلك يفعل الآخرون . مضحكٌ ، مضحك بكئابة ، السؤال الآن عن شرب كأس ماء كيف هو .

«حسنا» ، يقول توم وهو ينزل ، «قد تكون هذه أعذب كأس ماء شربتها في حياتي . . .»

وإذ يصل إلى أسفل الدرج ينظر إلى عيني مالوري .

«أعجبتني فكرة المصفاة» ، يقول . يتجاوزها ويضع الكأس على الرف بجانب الهاتف ، ثم يلتفت إلى الآخرين . «لنعد قطع الأثاث إلى أماكنها . لنعد ترتيب المكان .»

الفصل السادس عشر

على النهر ، تشعر مالوري بحر شمس الظهيرة . وبدلا من أن يجلب لها بعض السكينة ، يذكرها هذا الأمر بأنهم لا محالة مكشوفون إلى أبعد حد .

«ماما» ، يهمس الصبي .

تنحني مالوري إلى الأمام ، وتخز راحةَ يدها شظيةٌ من المجذاف . هذه ثالث مرة .

«ما الأمر؟»

«صه» ، يقول الصبي .

تكف مالوري عن التجذيف وتنصت .

الصبي على حق . شيء ما يتحرك على اليابسة على يسارهم . تنكسر أعواد . ثمة أكثر من واحد .

الرجل على القارب ، يصيح ذهن مالوري ، *رأى شيئا على هذا النهر* .

أيكون هو؟ أيكون في الغابة؟ أيكون قد تبعها وهو الآن ينتظرها حتى تعلق فيخلع عنها عصابتها؟ وعن الطفلين كذلك؟

تنكسر أعواد أخرى . الشيء يتحرك ببطء . تفكر مالوري بالمنزل الذي خلفوه وراءهم . كانوا آمنين هناك . لم غادروا؟ هل سيكون المكان الذي هم متوجهون إليه آمن؟ كيف ذلك؟ في عالم لا يمكن لك أن تفتح عينيك فيه ، أليست عصابة العينين هي كل ما يمكنك أن تأمل يوما في الحصول عليه؟

غادرنا لأنه من الناس من يختار أن ينتظر الأنباء ومنهم من يصنع أنباءه بنفسه .

كما كان يقول توم . مالوري تعلم أنها لن تكف أبدا عن اتخاذه مصدرا للإلهام . ومجرد التفكير فيه ، هنا ، على النهر ، يرفِدها بالأمل .

توم ، تود لو تقول له ، *كانت أفكارك نيرة .*

«يا صبي» ، تهمس وهي تجذف من جديد ويتملكها الخوف من أنهم قد يكونون قريبين من الضفة اليسرى أكثر مما ينبغي لهم . «ما الذي تسمعه؟»

«إنه قريب ، يا ماما» ، ثم ، «أنا خائف»

لبرهة يسود صمت تتخيل خلاله مالوري الخطر على بعد سنتيمترات منها .

مرة أخرى تكف عن التجذيف لتنصت بشكل أفضل ، وتميل بعنقها إلى اليسار .

تلمس مقدمة القارب شيئا يابسا ، فتزعق مالوري ويصرخ الطفلان .

لقد اصطدمنا بالضفة!

تلكز مالوري بمجذاف حيث تعتقد أنها ستجد الطين لكنها لا تلمس شيئا .

«دعونا وشأننا!» تصيح ، وقد تغير وجهها . وإذ بها تشتاق إلى جدران المنزل . لا جدران في هذا النهر . لا قبو تحتهم ولا علية فوقهم .

«ماما!»

في الوقت نفسه الذي تناديها فيه البنت ، يخرج شيء ما من بين الأغصان . شيء ضخم .

تلكز مالوري مرة أخرى بالمجذاف لكنها لا تصيب إلا الماء ، فتمسك بالصبي وبالبنت وتقربهما إليها .

تسمع زمجرة .

«ماما!»

«*اصمتي!*» تصرخ وتقرب البنت إليها أكثر .

أهو رجل؟ مجنون؟ هل تزمجر المخلوقات؟ هل تصدر أي صوت؟

زمجرة أخرى وفجأة تفهم مالوري ما هي . إنها تشبه الكلاب . من فصيلة الكلبيات .

الذئاب .

وقبل أن يتسنى لها أن تتكور لتحتمي يشق مخلبٌ كتفَها .

تصرخ ، وفورا تشعر بالدم دافئا ينهمر كالشلال على ذراعها . الماء البارد يبقبق في قعر القارب .

والبول أيضا .

إنها تشمها فينا ، تقول مالوري لنفسها بهياج متلفتة في كل اتجاه وممسكة بالمجذاف بلا غاية . *إنها تعلم أننا لا نستطيع حماية أنفسنا* .

تسمع زمجرة خفيفة أخرى . إنه قطيع . طرف القارب عالق بشيء ما ، ومالوري لا تستطيع أن تجده باستخدام المجذاف . لكن القارب يدور كما لو أن الذئاب تمسك بالمِرنَحة .

قد تقفز إلى القارب! قد تقفز إلى القارب! ازحفي إلى مقدم القارب . عليك أن تحرريه .

تقف مالوري ملوحة بالمجذاف فوق رأسي الطفلين وهما يصرخان . يميل القارب إلى اليمين . تخشى أن ينقلب بهم القارب فتثبت في مكانها . الذئاب تزمجر . كتفها ملتهبة بألم لم تجربه من

قبل . تمسكها وتلوح بالمجذاف بوحشية وعشوائية باتجاه طرف القارب لكنها لا تصل إليه ، فتتقدم .

«ماما!»

تجثو عند ركبتيها . الصبي بجانبها الآن يمسك بها من قميصها .

«أريدك أن تفلتني!» تصيح به .

يقفز شيء ما إلى الماء .

تلتفت مالوري برأسها إلى مصدر الصوت .

هل المياه ضحلة هنا؟ أيمكنها أن تقفز إلى القارب؟ أيمكن للذئاب أن تقفز إلى القارب؟

تلتفت بسرعة وتزحف إلى مؤخر القارب وتمد يدها إلى الظلمة .

الطفلان يصرخان خلفها . الماء يطرطش . القارب يترنح . الذئاب تنبح . وفي ظلمة عينيها المغمضتين ، تلمس يد مالوري قرمة شجرة .

تصرخ إذ تمد كلتا ذراعيها . كتفها اليسرى تؤلمها . تشعر بهواء أكتوبر البارد على بشرتها الممزقة . وبيدها الثانية تلمس قرمة أخرى .

لقد حشرنا . هذا كل ما في الأمر! حشرنا!

بينما هي تدفع القرمتين بقوة ، يصطدم شيء بالقارب ، وتسمع بوضوح مخالب تخمش وتحاول أن تتسلق .

القارب يحتك بالخشب ويَصِرّ . الماء يحدث طرطشات . مالوري تسمعها من كل مكان . ثمة زمجرة أخرى وحرارة أيضا . شيء ما قريب من وجهها .

تصرخ عاليا وتدفع .

وإذا بالقارب ينفلت .

تلتفت مالوري بسرعة فتتعثر وتقع على الدكة في وسط القارب .

«يا صبي!» تصرخ

«ماما!»

عندئذ تبحث عن البنت فتجدها ملتصقة بالدكة .

«هل أنتما بخير؟ *تكلما!*»

«أنا خائفة!» تقول البنت .

«ماما أنا بخير» يقول الصبي .

مالوري تجد صعوبة في التجذيف . كتفها التي تجاوزت حد الإنهاك تأبى أن تطاوعها ،لكنها ترغمها على أن تعمل .

تجذف مالوري . الطفلان مختبئان عند ركبتيها وقدميها . الماء ينشق تحت الخشب . تجذف . ماذا بوسعها أن تفعل غير ذلك؟ *ماذا بوسعها أن تفعل غير أن تجذف؟* قد تكون الذئاب قادمة . هل مياه النهر ضحلة هنا؟

مالوري تجذف . ذراعها كأنه يتدلى من جسدها . لكنها تجذف . ربما لم يعد المكان الذي هي ذاهبة بالطفلين إليه موجودا . وقد لا تفضي هذه الرحلة المبرحة ، أن تسافر عبر النهر دون أن ترى شيئا ، إلى شيء . وعندما سيصلون إلى هناك ، نحو سافلة النهر ، هل سيكونون بأمان؟ *ماذا لو كان ما تبحث عنه غير موجود؟*

الفصل السابع عشر

«إنهم خائفون منا» ، تقول أوليمبيا فجأة .

«ماذا تعنين؟» تسألها مالوري ، وهما جالستان على الدرجة الثالثة .

«رفاق السكن . هم خائفون من بطنينا . وأنا أعلم لماذا هم خائفون . لأنه سيأتي يوم يكون عليهم فيه أن يولِّدوا هذين الطفلين»

تنظر مالوري إلى غرفة الجلوس . لقد مضى عليها شهران في المنزل . هي الآن في شهرها الخامس من الحمل . ولقد فكرت هي أيضا في هذا الأمر . طبعا فعلت .

«من برأيك سيفعل؟» تسأل أوليمبيا وعيناها الواسعتان البريئتان مصوبتان نحو مالوري .

«توم» ، تقول مالوري .

«حسنا ، لكنني سأشعر بارتياح أكبر لو كان معنا طبيب»

هذه الفكرة لا تنفك تلوح لمالوري . اليوم المحتوم الذي ستضع فيه حملها ، ولا طبيب ، ولا أدوية ولا أصدقاء أو أقرباء . تحاول أن تتخيله تجربة سريعة . أمرا سرعان ما يحدث وتنتهي منه . تتخيل اللحظة التي يبدأ فيها المخاض ثم اللحظة التي تمسك فيها بالطفل . ولا تريد أن تفكر فيما سيحدث بين اللحظتين .

الرفاق مجتمعون في غرفة الجلوس . مهمات الصباح قد انتهت . طوال اليوم ، أحست مالوري بأن توم يعمل على شيء ما . لقد كان متحفظا ، منعزلا مع أفكاره . وهو ذا الآن يقف في مركز

غرفة الجلوس ليسمعه الجميع ، ويكشف عما كان يفكر فيه ، وهو بالضبط ما كانت مالوري تخشاه .

«عندي خطة» ، يقول

«آه؟» ، يسأل دون

«أجل» ، يتوقف توم كما لو أنه يراجع لمرة أخيرة ما هو على وشك أن يقوله . «نحن بحاجة إلى أدِلاًّء»

«ماذا تعني؟» يسأل فيلكس .

«أعني أنني ذاهب لأبحث عن كلاب»

تقوم مالوري من على الدرج وتسير إلى مدخل غرفة الجلوس . مثل البقية ، لقد شدّت فكرة أن توم سيغادر المنزل انتباهها تماما .

«كلاب؟» يسأل دون .

«نعم» ، يقول توم . «كلاب كانت في ما مضى أليفة وهي الآن منفردة . لا شك في أن منها الكثير . طليقة ، أو محبوسة داخل منازل لا يمكنها الخروج منها . إن كنا سنخرج لنتزود ، وجميعنا يعلم أنه سيتعين علينا أن نفعل ، فحريٌّ بنا أن نأتي ببعض المساعدة . الكلاب تستطيع أن تنذرنا .»

«توم ، نحن لا نعلم ما تفعله تلك المخلوقات بالحيوانات» ، يقول جولز .

«أعلم ذلك ، لكن لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي»

يزداد الجو توترا .

«أنت مجنون» ، يقول دون ، «أتفكر حقا في الخروج؟»

«سنحمل معنا أسلحة» يقول توم .

ينحني دون إلى الأمام على كرسيه .

«ما الذي تفكر فيه بالتحديد؟»

«لقد عكفت على صناعة خوذ .» يقول توم ، «لتحمي عصابات

أعيننا . وسنحمل مُدى . يمكن للكلاب أن تدلنا على الطريق . إن مس أحدها الجنون؟ نطلقه . وإن هاجمنا نقتله بمُدانا .»

«ونحن عُمي»

«أجل ، ونحن عمي»

«لا تعجبني هذه الفكرة على الإطلاق» ، يقول دون .

«لم لا؟»

«قد نصادف مجانين في الخارج . مجرمين . لم تعد الشوارع كما كانت من قبل يا توم . لسنا الآن في الضواحي ، نحن في الفوضى العارمة .»

«و إذًا ، لا يمكن أن تبقى الأمور على ما هي عليه .» ، يقول توم ، «علينا أن نمضي قدما ، وإلا فنحن ننتظر أن يجد جديد في عالم لم يعد فيه جديد»

ينظر دون إلى السجاد ، ثم إلى توم .

«هذه مخاطرة كبيرة ، ولا داعي لتحملها»

«بل ثمة أكثر من داع»

«أرى أن ننتظر»

«ننتظر ماذا؟»

«النجدة . أن يحدث شيء ما»

ينظر توم إلى البطانيات التي تغطي النوافذ .

«لن تأتي النجدة يا دون»

«هذا لا يعني أن نهرع إلى الخارج بحثا عنها»

«سنصوت» يقول توم .

ينظر دون إلى وجوه بقية الرفاق . واضح أنه يريد من أحدهم أن يقف إلى جانبه .

«التصويت» ، يقول دون ، «لا تعجبني هذه الفكرة أيضا على الإطلاق»

«لم لا؟» يقول فيلكس

«لأننا يا فيلكس لا نتناقش بشأن الدّلاء أيّها نشرب منها وأيها نتبول فيها . نحن الآن نناقش فكرة أن يغادر المنزل واحد منا أو أكثر من واحد ، بلا سبب وجيه»

«ليس بلا سبب وجيه» ، يقول توم ، «فكر في الكلاب كأنظمة إنذار . لقد سمع فيلكس شيئا عند البئر قبل أسبوعين . هل كان ذلك حيوانا؟ إنسانا؟ مخلوقا من تلك المخلوقات؟ لو كان معنا كلب مناسب لكان نبح . ما أقترحه هو أن نفتش في حينا ، وربما في الحي المجاور أيضا . امنحونا اثنتي عشرة ساعة . هذا كا ما أطلبه» .

اثنتا عشرة ساعة ، تقول لنفسها مالوري ، *جلب الماء من البئر لا يستغرق إلا نصف الساعة* .

لكن الرقم ، لأنه محدد ، يهدئ من روعها .

«لا أرى على الإطلاق سببا يدفعنا لأن نمسك بكلاب ضالة» ، يقول دون ، ويلوح بيده إلى فيكتور الرابض عند قدمي جولز . «لدينا واحد هنا . لندربه»

«مستحيل» يقول جولز وقد انتصب على قدميه .

«لم لا؟»

«لم أحضره إلى هنا لنضحي به . وإلى أن نعرف كيف تتأثر الكلاب بكل هذا ، لن أوافق»

«نضحي به» ، يقول دون ، «اختيارك للكلمات موفق»

«جوابي هو لا» يقول جولز

يلتفت دون إلى توم .

«أرأيت؟ الوحيد بيننا الذي يملك كلبا لا يوافق»

«لم أقل إنني لا أوافق على فكرة توم» ، يقول جولز .

«وإذا ، كلكم موافقون؟ حقا؟ كلكم ترونها فكرة صائبة؟»

تنظر أوليمبيا إلى مالوري بعينين واسعتين ، فتلوح دون بارقة أمل في أن يجد فيها حليفا له ويقترب منها .

«ما رأيك في هذا يا أوليمبيا؟» يسألها .

«أوه! أنا . . .حسنا . . .أنا . . .لا أعلم!»

«دون» ، يقول توم ، «سنجري تصويتا»

«أنا أوافق» يقول فيلكس

تسرح مالوري بصرها في غرفة الجلوس

«أنا أيضا أوافق» ، يقول جولز

«أنا أوافق» ، تقول شيريل

يلتفت توم إلى دون ، وإذ يفعل ، تشعر مالوري بشيء يغور في أعماقها .

المنزل ، تقول مالوري لنفسها ، *بحاجة إليه* .

«سأرافقك» ، يقول جولز ، «إن لم أسمح لك باستخدام كلبي ، فلا أقل من أن أساعدك على جلب كلاب أخرى»

يهز دون رأسه .

«*أنتما وحق الجحيم مجنونان*»

«فلنصنع خوذة لك أنت أيضا» ، يقول توم ، وهو يشد بيده على كتف جولز .

الصباح التالي . توم وجولز يضعان اللمسات الأخيرة على الخوذة الثانية .

سيغادران اليوم . بالنسبة لمالوري ، الأمور تجري بأسرع مما

ينبغي . نعم ، لقد وافقوا لتوهم على أن يغادرا المنزل ، ولكن هل عليهما أن يفعلا ذلك فورا؟

دون لا يكلف نفسه عناء إخفاء مشاعره . أما الآخرون فهم ، مثل مالوري ، متفائلون . مالوري تعلم أنه من الصعب على أي كان أن يقاوم هِمّة توم الجارفة . لو كان دون هو الذي سيغادر ، لكان أملها أقل في أن يعود ومعه كلاب ترى . لكن توم تشع منه طاقة من نوع ما ، وعندما يقول إنه فاعل شيئا ما ، ينتابك الإحساس بأنه تم .

من على الأريكة تشاهد مالوري ما يحدث . كلا الكتابين *حبلى وأخيرا . . .* طفل يذكران «رابط التوتر» بين الأم وطفلها . مالوري لا تريد لطفلها أن يحس بما تحس به الآن من خوف إذ تشاهد توم وهو يستعد لمغادرة المنزل .

ثمة حقيبتا بحارة مسندتان إلى الجدار . كل واحدة منهما نصف مملوءة بأطعمة معلبة ومصابيح محمولة وأغطية . بجانبهما مُدى كبيرة وقوائم كرسي شُحذت لتتحول إلى أوتاد حادة . سيتخذان من عصي المكانس عصيا للمشي .

«ربما» ، تقول أوليمبيا ، «لا يمكن للحيوانات أن تجن لأن عقولها صغيرة جدا»

ترتسم على وجه دون تعابير توحي بأنه سيقول شيئا ما ، لكنه يمسك لسانه .

«من المحتمل أن الحيوانات لا تملك القدرة على أن تصاب بالجنون» ، يقول توم وهو يضبط حزام الخوذة . «ربما يجب عليك أن تكون ذكيا بما فيه الكفاية لتفقد صوابك» .

«حسنا ، ذلك أمر أود معرفته قبل أن أخرج» يقول دون

«ربما» ، يواصل توم ، «ثمة درجات من الجنون . كم أود أن

أعرف كيف تؤثر المخلوقات على المجانين»

«لم لا تحضر عددا منهم أيضا؟» يقول دون بغضب . «أواثق أنت من أنك تريد أن تراهن بحياتك على أن الحيوانات ليست أذكى منا؟»

ينظر توم إلى عيني دون .

«أريد أن أقول لك يا دون إنني أحترم الحيوانات أكثر من هذا بكثير لكن كل ما يشغل بالي الآن هو النجاة»

أخيرا ، يربط جولز خوذته . يدير رأسه ليرى هل هي مناسبة فينقصم ظهرها وتتهاوى كلها عند قدميه .

«اللعنة» ، يقول توم وهو يلتقط القطع . «ظننتني حللت هذه المسألة . لا عليك يا جولز»

يحمل توم القطع ويعيد تجميعها ثم يقوي الرباط برباط ثان ويضع الخوذة على رأس جولز .

«ها هي ، صارت أحسن»

تسمع مالوري هذه الكلمات ، فتشعر بالسَّقَم . . .لقد علمت من الصباح أن توم وجولز مغادران لكن لحظة ذهابهما قريبة في نظرها أكثر مما يجب .

لا تذهب ، تريد أن تقول لتوم ، *نحن بحاجة لك . أنا بحاجة لك* .

لكنها تدرك أن سبب حاجة المنزل لتوم هو أنه من أولئك الذين يفعلون ما هو على وشك أن يفعله اليوم .

أمام الجدار ، يساعد فيلكس وشيريل توم وجولز على تثبيت الحقيبتين على ظهريهما .

توم يلكز بعصاه في الهواء .

تنتاب مالوري نوبة غثيان أخرى . لا شيء يمكن أن يذكرها بهذا العالم الجديد كم هو مرعب أكثر من رؤيتها لتوم وجولز يتهيآن كما يفعلان الآن ، لمجرد جولة في الحي . بأعينهما المعصوبة وأسلحتهما ، صارا يبدوان كجنديين في حرب مرتجلة .

«حسنا» ، يقول توم ، «أخرجونا» .

يتقدم فيلكس إلى الباب الرئيسي . يجتمع الرفاق خلفه في البهو . تنظر إليهم مالوري وهم يغمضون أعينهم ثم تفعل هي كذلك . وفي ظلمتها الخاصة ، قلبها يدق بصخب .

«حظا موفقا» ، تقول فجأة إذ تدرك أنها ستندم لو لم تفعل .

«شكرا» ، يقول توم ، «تذكروا ما قلته . سنعود بعد اثنتي عشرة ساعة . هل أغمض جميعكم عينيه؟»

يجيبه الرفاق أن نعم .

يُفتح الباب . مالوري تسمع صوت الأحذية على سقيفة المدخل . ثم يغلَق الباب .

الأمر بالنسبة مالوري كأن شيئا جوهريا قد حُبس لتوه في الخارج .

اثنتا عشرة ساعة .

الفصل الثامن عشر

بينما القارب ينساب وينزلق ببطء لوحده مع التيار، تغرف مالوري بيدها غرفة من ماء النهر وتغسل كتفها المجروحة.

ليس هذا بالأمر الهين والألم شديد.

«ماما هل أنت بخير؟» يسألها الصبي

«لا أريد أسئلة»، تجيبه. «*أنصت*»

عندما ضربها الذئب، تراءى لمالوري اللون الأحمر وتفجر العالم المظلم خلف عصابة عينيها ألماً يلمع. الآن وهي تغتسل، يتراءى لها الأرجواني والرمادي وتخشى أن يكون ذلك نذيرا بأنها على وشك أن تفقد وعيها. أن يغمى عليها، وتترك الطفلين ليعتنيا بنفسيهما.

لقد خلعت عنها سترتها. قميصها مخضب بالدماء وهي ترتجف، وتتساءل أهو الهواء البارد أم ما فقدته من دم. من جيب سترتها الأيمن، تخرج سكينا حادة وتمزق أحد كمي السترة وتربطه بإحكام على كتفها.

الذئاب.

عندما صار الطفلان في الثالثة من عمرها، أصبحت دروس مالوري أعقد. كانت تطلب منهما أن يحفظا عشرة أصوات، عشرين صوتا، دفعة واحدة قبل أن يقولا أي أصوات هي. كانت مالوري تتكلم وهي تتحرك في المنزل، ثم خارجه ثم في الطابق العلوي وتصدر أصواتا وهي تتحرك. وعندما تعود إليهما، يقول لها الطفلان

ماذا فعلت . لم يطل الوقت بالبنت حتى صارت إجاباتها العشرون كلها صحيحة . لكن الصبي كان يذكر لها أربعين ، خمسين صوتا ، مضيفا إلى الأصوات التي قصدتها كلٌ تلك التي أحدثتها غير عامدة وهي في طريقها .

ماما ، لقد انطلقت من غرفتنا . قبل أن تغادري ، زفرت زفرة . ثم سرت إلى المطبخ وفي طريقك طق كاحلك . جلست إلى طاولة المطبخ في الوسط ، وأسندت مرفقيك إليها . تنحنحت ثم توجهت إلى القبو . نزلت الدرجات الأربع الأولى ببطء ثم أسرعت في الدرجات الست الأخيرة . ونقرت بإصبعك على أسنانك .

لكن الطفلين بالرغم من كل ما علمتهما إياه لا يستطيعان تسمية الحيوانات التي تجوب الغابة هنا بجانب النهر . الذئاب ، تدرك مالوري ، متقدمة عليهم بمراحل . وكذلك كل ما سيواجهونه .

تحكم ربط مِرقَأَتِها أكثر . كتفها تنبض . فخذاها يؤلمانها ، وعنقها يؤلمها . هذا الصباح وجدت في نفسها القوة لتمضي في هذه الرحلة وتجذف لعشرين ميلا . الآن هي جريحة وبحاجة للراحة . تقلب الأمر بينها وبين نفسها . هي تعلم أن قسطا من الراحة هو ما كانت ستنصح به نفسها لو أنها كانت لا تزال تعيش في العالم القديم ، لكن التوقف هنا قد يكون معناه الموت .

تسمع مالوري زعيقا من فوقها فتنتفض . الصوت صوت جارح من الجوارح . كأن طوله مائة قدم . بُعَيد القارب إلى الأمام يغطس شيء ما في الماء محدثا رذاذا . الصوت قصير لكنه مرعب . يتحرك شيء ما في الغابة على يسارها وترتفع أصوات طيور أخرى . هو ذا النهر ينبعث من جديد ومع كل علامة من علامات هذا البعث ، تزداد مالوري خوفا .

بينما تكبر الحياة من حولها ، تشعر مالوري بأنها تتضاءل في داخلها .

«أنا بخير» ، تكذب على الطفلين . «أريدنا أن ننصت الآن ، وفقط . لا شيء آخر»

تجذف مالوري من جديد ، وتحاول ألا تفكر في الألم . هي لا تعلم بالتحديد كم عليها أن تتقدم بعد ، لكنها تعلم يقينا أن المسافة لا تزال طويلة . لا يزال أمامها أن تقطع مثلَ ما قطعته إلى حد الآن ، على أقل تقدير .

منذ سنوات ، لم يكن الرفاق يعلمون يقينا هل يمكن للحيوانات أن تجن . كانوا يتناقشون في الأمر باستمرار . وقد خرج توم وجولز في جولة بحثا عن كلاب تكون لهم بمثابة الدليل . وبينما كانت مالوري والآخرون ينتظرون عودتهما ، اجتاحتها مشاهد مرعبة عن حيوانات مسعورة مجنونة . الأفكار نفسها تخطر لها اليوم . وبينما تنفخ الطبيعة الحياة في النهر ، تتخيل هي وقوع الأسوأ . كما فعلت في السنوات الماضية ، قبل أن يولد الطفلان ، عندما كان سكون الباب الرئيسي يذكرك بأن أمورا من قبيل الجنون تتربص لتعرف هل ثمة أحد ممن أحبائك معها في الخارج أم لا .

الفصل التاسع عشر

الشهر الخامس الآن ، وحمل مالوري يتقدم . إنها نهاية «أشهر الغثيان» لكن بقية شعور بالتقزز تأبى أن تزول . تشعر بحرقة المعدة ، ساقاها تؤلمانها ولثتها تنزف دما . شعر رأسها الفاحمُ أكثف ، وكذا الشعر في كامل جسدها . تحس بأنها صارت مسخا ، بأنها تشوهت وتغيرت . لكن لا شيء من كل هذا يشغل بالها وهي تتنقل في أرجاء المنزل حاملة دلوا من البول ، بقدر معرفة مكان توم وجولز وهل هما بخير أم لا .

مدهش ، تقول لنفسها ، كم صارت تهتم لأمر كل واحد من رفاق السكن . كانت سمعت قبل وصولها قصصا كثيرة عن أناس آذوا غيرهم قبل أن يلحقوا الأذى بأنفسهم . آنئذ ، كانت تلك الفظائع ترعب مالوري بسبب ما قد تعنيه لها ولطفلها . أما الآن ، ما يشغلها هو سلامة من في المنزل كلهم .

مرت خمس ساعات منذ أن غادر الرجلان . ومع كل دقيقة مضت ، زاد مناخ المنزل توترا ، حتى أن مالوري لم تعد تتذكر هل يكرر الرفاق أداء مهامهم أم أنهم يؤدونها لأول مرة .

تضع مالوري الدلو أمام الباب الخلفي . بعد دقائق سيفرغه فيلكس في الخارج . هو الآن جالس إلى طاولة غرفة الطعام يصلح كرسيا . تمر مالوري بجانب المطبخ وتدخل غرفة الجلوس . شيريل تنظف السطوح ، وأطر الصور ، والهاتف . تلاحظ مالوري أن ذراعي شيريل يبدوان شاحبين نحيفين . في الشهرين الماضيين اللذين

عاشتهما هنا ، ساءت صحتهم ، فهم لا يأكلون كما يجب ولا يمارسون ما يكفي من الرياضة ولا أحد منهم يتعرض لأشعة الشمس . توم في الخارج ، يبحث عن حياة أفضل لهم جميعا . ولكن إلى أي حد يمكنه أن يجعلها أفضل؟

ومن سيخبر الرفاق إن اختفيا في الخارج ، إلى الأبد؟

قلقة ، تسأل مالوري شيريل إن كانت بحاجة لمساعدة . تجيب شيريل أن لا قبل أن تتركها ، لكن مالوري ليست لوحدها . فيكتور رابض خلف الكرسي مواجها للبطانيات التي تغطي النوافذ . رأسه مرفوع ، ولسانه يتدلى وهو يلهث لهاثا شديدا . تقول مالوري لنفسها إنه ينتظر ، مثلها ، سيده حتى يعود .

كما لو أنه يدرك أن ثمة من يراقبه ، يلتفت فيكتور ببطء إلى مالوري ، ثم ينظر من جديد إلى البطانيات .

يدخل توم ويجلس على الكرسي ثم يقف ويغادر . تنزل أوليمبيا . تبحث عن شيء ما تحت مغطس المطبخ . تراقبها مالوري إذ تنتبه إلى أن ما تبحث عنها بيدها ، فتعود إلى الطابق العلوي . تعود شيريل وتتفحص إطارات الصور . لقد فعلت ذلك للتو وها هي تعيد الكرة . كلهم يعيدون *الكرة* ، منتقلين في أرجاء المنزل باحثين عما يصرف ذهنهم عن التفكير . لا يكلم بعضهم بعضا إلا قليلا جدا ، ولا يكادون يرفعون أبصارهم . جلب الماء من البئر شيء ، والرفاق يقلق بعضهم بشأن بعض عندما يفعلون ، لكن ما يفعله توم وجولز الآن لا يكاد يحتمل .

تقف مالوري وتتوجه إلى المطبخ . لكن ثمة مكانا واحدا في المنزل لا يكاد يشعر فيه المرء بأنه في المنزل . مالوري تريد أن تذهب إليه . هي بحاجة لذلك . بحاجة للهرب .

القبو .

فيلكس في المطبخ لكنه لا يلقي لها بالا إذ تمر به ، ولا ينبس ببنت شفة إذ تفتح باب القبو وتنزل الدرج إلى الأرضية الترابية .

تسحب الخيط فيضاء المصباح ، منيرا المكان كما فعل عندما أراها إياه توم قبل شهرين . لكنه يبدو الآن مختلفا . علب الطعام أقل . الألوان أقل . وتوم ليس هنا يسجل ملاحظاته ويَعُدُّ بحصص الطعام كم بقي أمام الرفاق من الوقت قبل أن يحل بهم الجوع واليأس .

تتجه مالوري إلى الرفوف وبقلب لاه تقرأ اللصاقات .

ذُرة . *شمندر* . *تونة* . *بازلاء* . *فطر* . *فواكه ممزوجة* . *فاصولياء* . *كرز مر* . *عنب الثور* . *ليمون هندي* . *أناناس* . *فاصولياء مقلية* . *سلطة خضراوات* . *فلفل حار* . *كستناء الماء* . *طماطم مقطعة* . *طماطم إيطالية* . *صلصة الطماطم* . *شوكروت* . *فاصولياء مطبوخة* . *جزر* . *سبانخ* . *أنواع مختلفة من حساء الدجاج* .

تتذكر كيف بدا لها المكان مكتظا مملوءا . بدت العلب آنذاك وكأنها جدار قائم بذاته . الآن هنالك فراغات . فراغات كبيرة . كما لو أن معركة نشبت وكان مخزونهم من الغذاء هو أول ما استهدف فيها . أيوجد من الغذاء ما يكفي إلى أن يولد الطفل؟ إن لم يعد توم وجولز ، هل سيوصلها ما بقي من المخزون إلى ذلك اليوم المخيف؟ ماذا سيفعلون عندما ستنفد أطعمتهم المعلبة؟ يخرجون للصيد؟

يمكن للطفل أن يرضع حليب أمه ، إن تغذت أمه كما ينبغي .

تسير مالوري إلى الإسكملة وهي تمسح على بطنها ، وتجلس .

العرق يتصبب منها رغم أن الهواء بارد هنا . خطوات الرفاق التي لا تتوقف ثقيلة ، والسقف يصرّ .

وهي ترفع عن جبينها شعرها ، تسند مالوري ظهرها إلى الرفوف ، وتبدأ بِعَدِّ العلب . تشعر بجفنيها يتثاقلان . ما أجمل الإحساس بالراحة .

ثم . . . تنزلق إلى النوم .

تستفيق على صوت نباح فيكتور قادما من الأعلى .

تجلس بسرعة .

فيكتور ينبح . علام ينبح فيكتور؟

تعبر القبو مسرعة وتصعد الدرج وتهرع إلى غرفة الجلوس . لقد سبقها الرفاق إلى هنا .

«توقف!» يصرخ دون .

فيكتور ينظر إلى النوافذ وينبح .

«ما الذي يجري هنا؟» تسأل مالوري وقد أدهشتها نبرة الرعب في صوتها .

من جديد ينتهر دون فيكتور .

«كل ما في الأمر أنه متوتر في غياب جولز» يقول فيلكس بعصبية .

«كلا» ، تقول شيريل ، «لقد سمع شيئا» .

«لسنا متأكدين من ذلك يا شيريل» ، يقول دون بحدة .

ينبح فيكتور من جديد . نباحه عال . حاد . غاضب .

الرفاق متراصون في وسط غرفة الجلوس . بلا سلاح . إن كانت شيريل محقة ، وإن كان فيكتور يعتقد أن شيئا ما في الخارج ، فماذا سيفعلون؟

«فيكتور» ، يصيح دون مرة أخرى ، «*سأقتلك أيها اللعين!*»

لكن فيكتور لا يتوقف .

ودون ، رغم كل صراخه ، خائف بقدر ما مالوري خائفة .

«فيلكس» ، تقول مالوري ببطء وهي تنظر إلى النافذة . «أخبرتني أن هنالك حديقة خارج المنزل . هل فيها أدوات؟»

«نعم» . فيلكس ينظر هو أيضا إلى البطانيات السوداء .

«هل هي هنا في المنزل؟»

«أجل» مكتبة t.me/ktabrwaya

«هلا ذهبت وأحضرتها؟»

يلتفت فيلكس إليها ويبقى واقفا للحظة ، ثم يغادر الغرفة .

تستعرض مالوري في ذهنها كل ما في المنزل من أشياء وأدوات . كل شيء يصلح لأن يكون سلاحا حتى أرجل الكراسي . وأي شيء صلب يمكن أن يتخذ ذخيرة .

يستمر فيكتور بالنباح بل يزداد نباحه . وعندما يتوقف ، لبرهة قصيرة ، تسمع مالوري وقع خطى فيلكس القلقة تبحث عن أدوات الحديقة البدائية لعلها تحميهم مما يتربص بهم في الخارج أيا يكن .

الفصل العشرون

زوال اليوم التالي . توم وجولز لم يعودا .

استطالت ساعات توم الاثنتا عشرة إلى الضعف وأكثر . ومع كل ساعة تمر ، يزداد المناخ في المنزل كآبة ويأسا .

فيكتور لا يزال رابضا قرب النافذة المغطاة .

لقد سهر الرفاق إلى ساعة متأخرة ، مجتمعين ينتظرون أن يكف الكلب عن النباح .

سينالون منا في النهاية ، قال دون . *لا يمكننا أن نتوقع شيئا آخر . لقد أزفت الساعة يا أصدقاء . وإن كانت هذه مخلوقات لا نستطيع إدراك كنهها ، فنحن نستحق ما سيحيق بنا . لطالما آمنت بأن النهاية ستأتي بسبب غبائنا .*

في النهاية ، كف فيكتور عن النباح .

الآن ، في المطبخ ، تغمس مالوري يديها في دلو ماء . هذا الصبح ذهب دون وشيريل إلى البئر . وفي كل مرة طرقا فيها الباب ليناولا فيلكس دلوا مملوءة ، كان قلب مالوري يثب ، إذ تأمل ، بل توقن ، بأنه توم .

ترفع الماء إلى وجهها وتخلل بأصابعها المبلولة شعرها الملبد المتعرق .

«اللعنة» ، تقول .

هي بمفردها في المطبخ ، تنظر إلى الملاءات التي تغطي النافذة الوحيدة في الغرفة ، وتتخيل كل الفظائع التي قد تكون حدثت .

لقد قتل جولز توم . رأى أحد المخلوقات فسحب توم إلى النهر من شعره وأبقاه تحت الماء إلى أن غرق . أو ربما رأى كلاهما شيئا في أحد المنازل ، فقضى كل منهما على الآخر . جسداهما التالفان ممددان على أرض خلوة شخص لا يعرفانه . أو ربما توم هو من رأى شيئا ، وحاول جولز أن يوقفه لكن توم أفلت منه . هو في مكان ما في الغابة . يأكل قشور الأشجار ، يأكل الحشرات ، يأكل أصابع قدمه .

«مالوري؟»

تثب مالوري إذ تدخل أوليمبيا المطبخ .

«ماذا؟»

«أما قلقة حقا يا مالوري . لقد قال اثنتا عشرة ساعة»

«أعلم» ، تقول مالوري ، «كلنا قلقون» .

تمد مالوري يدها لتضعها على كتف أوليمبيا وتسمع صوت دون قادما من غرفة الطعام .

«لست مقتنعا بأنه ينبغي علينا أن نسمح لهما بالدخول»

تذهب مالوري بسرعة إلى غرفة الطعام .

بحقك يا دون» ، يقول فيلكس . «أتعني حقا ما تقول؟»

«ما الذي برأيك يجري في الخارج يا فيلكس؟ أتظن أن الحي الذي نعيش فيه حي هادئ؟ إن كان هناك من ناجين في الخارج ، فهم لم ينجوا بفضل دماثة أخلاقهم . وما يدريك أن توم وجولز لم يختطفا؟ ربما هما الآن رهينتان . ولعل مختطفيهما الملاعين يستجوبونهما بشأن طعامنا . *طعامنا* .»

«لتذهب إلى الجحيم يا دون» ، يقول فيلكس ، «إن عادا فسأدخلهما»

«إن كانا هما حقا» ، يقول دون . «وإن كنا على يقين من أنه ما من مسدس مصوب إلى رأس توم من على الجانب الآخر من الباب»

«اخرسا ، كلاكما» ، تقول شيريل وهي تتجاوز مالوري وتدخل غرفة الطعام .

«أنت لا تعني ما تقول يا دون» ، تقول مالوري .

يلتفت دون إليها .

«بل أعنيه وحق الجحيم»

«لا تريدهما أن يعودا إلى المنزل؟» ، تسأل أوليمبيا الواقفة بجانب مالوري .

«ليس هذا ما قلته» ، يرد دون ، «ما قلته هو أنه قد يكون هناك مجرمون في الخارج . أتفهمين كلامي أم أنه يفوق طاقتك على الفهم؟»

«أنت وغد قذر» ، تقول مالوري .

للحظة يبدو دون وكأنه سينقض عليها .

«لا أريد أن أخوض نقاشا كهذا» تقول شيريل .

«لقد مرت أكثر من أربع وعشرين ساعة» يقول دون بنبرة توبيخ .

«اذهب . . .اذهب وافعل شيئا آخر ، هلا فعلت؟» يقول فيلكس ، «أنت تصعب الأمر علينا جميعا»

«علينا أن نبدأ بالتفكير في احتمال أنهما لن يكونا معنا في المستقبل»

«إن هو إلا يوم *واحد*» يقول فيلكس

«أجل ، يوم *واحد* هناك»

يجلس دون إلى البيانو . للحظة ، يبدو وكأنه سيخفف من غلوائه ، ثم يتابع .

«الخبر السار هو أن المخزون سيدوم وقتا أطول»

«دون!» ، تصيح به مالوري

«تنتظرين *مولودا* يا مالوري ، ألا تريدين النجاة؟»

«دون ، سأقتلك» ، تقول شيريل

يقوم دون من على مقعد البيانو . وجهه محمر من الغضب .

«توم وجولز ليسا بعائدين يا شيريل . تقبلي ذلك . وعندما يمتد عمرك أسبوعا آخر لأنك أكلت حصتهم من الطعام ثم أكلت لحم فيكتور أيضا ، *عندئذ* ستدركين أنه لم يعد للأمل من وجود»

تتقدم شيريل تجاهه . قبضتاها مكورتان ، ووجهها يكاد يلتصق بوجهه .

ينبح فيكتور من غرفة الجلوس .

يحول فيلكس بين شيريل ودون ، فيزيحه دون ، وإذ تتقدم مالوري منهما يرفع فيلكس يده .

سيضرب دون .

يخفض فيلكس يده .

ثمة طرق على الباب الرئيسي .

الفصل الحادي والعشرون

مالوري تفكر بدون تحديدا .

«ماما» ، يقول الصبي . «العصابة تؤلمني»

«اغرف من ماء النهر ، بحذر» ، تقول مالوري ، «وافرك مكان الألم ، *وإياك* أن تخلع عصابتك»

ذات مرة ، وبعد أن أنهى الرفاق عشاءهم ، جلست مالوري مع أوليمبيا إلى طاولة غرفة الطعام . تحدثتا عن زوج أوليمبيا ، كيف كان ، وعن رغبته في إنجاب طفل . ثم دخل دون الغرفة لوحده ودون أن يأبه لما كانت تقوله أوليمبيا .

«عليكما أن تعميا ذينك الطفلين» ، قال ، «حالما يخرجان»

كان ذلك كما لو أنه فكلا في الأمر طويلا ، ثم قرر أن يخبرهما بقراره .

جلس معهما إلى الطاولة وشرح وجهة نظره . وبينما هو يفعل ، راحت أوليمبيا تنكمش أكثر فأكثر . بدت لها الفكرة مجنونة ، لا بل أكثر من ذلك ، بدت لها وحشية .

لكن ذلك لم يكن رأي مالوري . جزء في أعماقها تفهّم ما قاله دون . فكل لحظة من لحظات أمومتها المرتقبة ستتركز على حماية عيني طفلها . كم من الأمور سيكون ممكنا إنجازها لو حُلت هذه المشكلة؟ الجدية التي قال بها دون ما قاله أشعرت مالوري بما هو أكثر من الوحشية . لقد فتحت الباب أمام عالم من الاحتمالات المحزنة ، من الأمور التي قد يتوجب عليها إتيانها ، من الأفعال التي قد تضطر

إلى فعلها ولا أحد من العالم القديم مهيأ كما يجب لتحملها . لأجل ذلك لم تغب الفكرة ، رغم كئابتها ، أبدا غيابا تاما عن نظرِ عقلها .

«أنا الآن بحال أحسن يا ماما» ، يقول الصبي

«أصمت» ، تقول مالوري ، «*أنصت*»

قبل أن يبلغ الطفلان شهرهما السادس ، كانت عودتهما على النوم في مهديهما المسيجين . كان الوقت ليلا . كان العالم خارج النوافذ والجدران هادئا ، والمنزل مظلما .

في أيامها الأولى مع الطفلين ، كثيرا ما كانت مالوري تستمع لأنفاسهما وهما نائمان . ما قد تعتبره بعض الأمهات تأملا مؤثرا كان دراسة بالنسبة لمالوري . هل كانت تبدو عليهما أمارات الصحة؟ هل كانا يحصلان على الغذاء الكافي من ماء البئر وحليب أم لم تأكل وجبة كاملة منذ عام؟ كانت صحتهما دائما تشغل بالها . تغذيتهما . نظافتهما . وأعينهما .

عليكما أن تعميا ذينك الطفلين حالما يخرجان .

جالسةً إلى طاولة المطبخ في الظلام ، أدركت مالوري بوضوح أن الفكرة لم تطرح أمامها معضلة أخلاقية بقدر ما قدمت لها احتمالا لم تكن متأكدة من أنها قادرة عمليا على تنفيذه . وهي تنظر إلى الرواق وتستمع إلى أنفاسهما الخفيفة ، آمنت مالوري بأن فكرة دون لم تكن فكرة سيئة .

كل لحظة استيقاظ هي لحظة تمضينها في حمايتهما من النظر إلى الخارج . تتفقدين البطانيات . تتفقدين المهدين . لن يذكرا هذه الأيام عندما يكبران . لن يذكرا الرؤية .

الطفلان ، كانت تعلم ذلك ، لن يحرما من أي شيء في العالم الجديد إن كانا عاجزين عن رؤيته أصلا .

وقفت واتجهت إلى باب القبو . في الأسفل ، على أرضية القبو الترابية ، كانت علبة مخفف للدهان . قبل مدة طويلة ، كانت قرأت الغلاف وعرفت خطورة المادة إن لامست الأعين . كتب على الغلاف أن المرء قد يفقد بصره إن مرت ثلاثون ثانية ولم يغسل عينيه بالماء .

سارت مالوري إلى العلبة . أمسكت بها وحملتها إلى الأعلى .

افعليها بسرعة . ولا تغسلي .

كانا رضيعين . أيمكن أن يتذكرا ذلك؟ هل سيخافانها إلى الأبد أم أن هذا كله سيدفن ذات يوم تحت ركام من الذكريات العمياء؟

عبرت مالوري المطبخ ودخلت الرواق المظلم المفضي إلى غرفتيهما .

كانت تسمعهما يتنفسان في الغرفة .

عند الباب ، توقفت ونظرت في العتمة التي كانا ينامان فيها .

في هذه اللحظة ، ظنت بأنها قادرة على فعلها .

بهدوء ، دخلت مالوري غرفة النوم . وضعت العلبة على الأرض وأزاحت الأقمشة التي تغطي مهديهما المسيجين . لم يتحرك أي من الطفلين . كلاهما استمر يتنفس بانتظام ، كما لو أنهما يحلمان أحلاما سعيدة ، بعيدين كل البعد عن الكوابيس القادمة إليهما .

بسرعة ، فكت مالوري سياج مهد الرضيعة ، وانحنت ورفعت العلبة .

كانت البنت تتنفس ، بانتظام .

مدت مالوري يدها إلى المهد ورفعت رأس الرضيعة . نضت عنها عصابتها . راحت الطفلة تبكي .

عيناها مفتوحتان ، قالت لنفسها مالوري ، *صبيها* .

قربت رأس الطفلة أكثر من حافة المهد وقربت العلبة من الوجه

المحمرّ الباكي . استيقظ الصبي خلفها وراح يبكي هو الآخر .

«كفى!» قالت مالوري وهي تغالب دمعها . «لا حاجة بكما لتريا هذا العالم .»

أمالت العلبة أكثر قليلا وأحست بمحتواها يسيل على يدها قبل أن ينسكب على الأرض قرب قدميها .

إحساسها به على بشرتها جعله حقيقةً .

لم تستطع أن تفعلها .

أفلتت رأس الرضيعة واستمرت البنت بالبكاء .

وضعت مالوري العلبة على الأرض وتراجعت ببطء إلى خارج الغرفة . وراح الطفلان ينوحان في العتمة .

في الرواق ، أسندت مالوري نفسها إلى الجدار لئلا تقع ورفعت يدا إلى فمها . ثم تقيأت .

«ماما» ، يقول الطفل الآن ، على النهر ، «لقد نجح الأمر!»

«أي أمر؟» تقول مالوري وقد انتزعت انتزاعا من ذكرياتها .

«العصابة لم تعد تؤلمني»

«يا صبي» ، تقول ، «لا تتكلم بعد الآن . إلا إذا سمعت شيئا»

تتنفس مالوري بعمق وتشعر بما يشبه الخجل . الألم في كتفها يشتد . لقد دوخها التعب ، وسكنها إحساس عميق بالتيه . كأن شيئا ما بداخلها قد فسد . لكنها تسمع الطفلين : الصبي يتنفس أمامها والبنت تلعب بقطع المربكة في مؤخر القارب . هما ليسا أعميين خلف عصابتيهما . وقد ينتهي هذا اليوم باحتمال عالم جديد تماما ، عالم يرى فيها الطفلان ما لم يرياه من قبل .

إن استطاعت أن توصلهما إليه .

الفصل الثاني والعشرون

تسمع مالوري شيئا يتحرك على الجانب الآخر من الباب . وتسمع لهاثا أيضا . شيء ما يخمش الخشب . هي والآخرون في البهو . نادى فيلكس لتوه وسأل مَن بالباب . وفي اللحظة الفاصلة بين سؤاله وحصوله على الجواب ، يبدو الأمر وكأن الخمش قد يكون صادرا عن أي شيء .

المخلوقات . تقول في نفسها .

لكن ليست المخلوقات من بالباب . إنه توم وجولز .

«فيلكس! إنه توم!»

«توم!»

«لا نزال نرتدي خوذتينا . لكننا لسنا بمفردنا . لقد وجدنا كلابا»

يتنهد فيلكس بعمق وهو يتصبب عرقا . وبالنسبة لمالوري ، الشعور بالارتياح غامر إلى حد الألم .

فيكتور ينبح . ذنبه يهتز . يناديه جولز .

فيكتور ، يا صديقي! لقد عدت!»

«حسنا» ، يقول فيلكس للرفاق في المنزل ، «أغمضوا أعينكم»

«انتظروا» ، يقول دون .

«ننتظر ماذا؟» يقول فيلكس

«ما يدرينا أنهما بمفردهما؟ ما يدرينا ألا أحد يتبعهما؟ من يدري ما قد يدخل معهما؟»

يتمهل فيلكس . ثم ينادي توم .

«توم! هل أنتما بمفردكما؟ أنتما فقط والكلاب؟»

«أجل»

«هذا لا يعني أن الأمر كذلك حقا» يقول دون

«دون» ، تقول مالوري وقد عيل صبرها ، «لو أراد أحد أن يدخل إلى المنزل عنوة ، فيمكنه أن يفعل متى يشاء»

«أنا أحاول أن أتوخى الحذر يا مالوري»

«أعلم»

«أنا أيضا أعيش هنا»

«أعلم ذلك ، لكن توم وجولز على الجانب الآخر من الباب . لقد نجحا في العودة ، فعلينا أن ندعهما يدخلان الآن .»

يحدجها دون بنظرة ثاقبة ثم يشيح ببصره وينظر إلى أرض البهو .

«يوما ما ستتسببون بمقتلنا» يقول .

«دون» ، تقول مالوري إذ تدرك أنه يتراجع أخيرا ، «سنفتح الباب الآن»

«نعم ، أعلم أنكم ستفعلون . مهما أقُل»

يغمض دون عينيه .

تتبعه مالوري .

«هل أنتما جاهزان يا توم؟» ينادي فيلكس

«أجل»

تسمع مالوري الباب يفتح . أصوات الخطى على بلاط البهو تعطي الانطباع بأن عددا كبيرا من الناس قد دخلوا دفعة واحدة .

يغلق الباب بسرعة .

«إليّ بمكنسة» ، يقول فيلكس .

تسمع مالوري الأسلاك على الجدران والأرض والسقف .

«حسنا» ، يقول فيلكس ، «نحن جاهزون .»

ما بين اتخاذك القرار بفتح عينيك وتنفيذه لحظةٌ هي أخوف ما يمكن أن يخافه المرء في هذا العالم الجديد .

تفتح مالوري عينيها .

ينفجر البهو بالألوان . يتحرك كلبا هسكي بسرعة ، وهما يتشممان الأرضية ، ويتفحصان الأشخاص الجدد عليهما ، ويتفحصان فيكتور .

شعور مالوري بالفرحة لرؤية توم غامر . لكن توم لا يبدو بخير . يبدو منهكا . متسخا ، وكمن خاض تجربة أقصى ما بوسع مالوري هو أن تتخيلها .

بيده شيء ما . لونه أبيض . إنه صندوق . كبير بما يكفي ليحمل تلفازا صغيرا . ثمة أصوات تنبعث منه . قرْق .

تندفع أوليمبيا إلى الأمام وتعانق توم الذي يضحك وهو يحاول أن يخلع عنه خوذته . يخلع جولز عنه الخوذة ويركع ليحضن فيكتور . تبكي شيريل .

تعابير دون خليط من الدهشة والخجل .

كدنا نقتتل ، تقول مالوري لنفسها ، لم يغب توم إلا يوما ونصف اليوم فكدنا نقتتل .

«حسنا ، يا إلهي» ، يقول فيلكس وهو ينظر بعينين واسعتين إلى الكلبين الوافدين . «لقد نجح الأمر!»

تلتقي عينا توم بعيني مالوري . لقد خمدت تلك الشعلة التي كانت تتقد فيه عندما غادر المنزل .

أيّ خطب خاضاه في الخارج؟

«هذان كلبا هسكي» ، يقول جولز ، ملوحا بيده تجاه الكلبين . «إنهما ودودان لكنهما يستغرقان بعض الوقت لينطلقا»

ثم إذا به يبكي بارتياح عميق .

مثل قدماء المحاربين عندما يرجعون إلى منازلهم ، تقول في نفسها مالوري . *من رحلة في أرجاء الحي* .

«ماذا يوجد في الصندوق؟» تسأل شيريل .

يرفعه توم أعلى . عيناه جامدتان . شاردتان .

«في الصندوق يا شريل» ، يقول وهو يحمله بيد ويرفع الغطاء بالأخرى ، «توجد طيور» .

يتحلق الرفاق حول الصندوق .

«من أي نوع هي؟» تسأل أوليمبيا .

يهز توم رأسه ببطء .

«لا نعلم . وجدناها في مرآب صياد . لا نعلم كيف نجت . نعتقد أن أصحابها تركوا لها الكثير من الغذاء . وكما ترون ، أصواتها عالية ، عندما نقترب منها فقط . لقد جربنا الأمر . كلما اقتربنا منها ارتفعت أصواتها .»

«وإذاً ، هذا عشاؤنا الليلة؟» يسأل فيلكس

يبتسم توم ابتسامة تَعِبة .

«نظام إنذار»

«نظام إنذار؟» يسأل فيلكس .

يقول جولز ، «سنعلق الصندوق في الخارج ، أمام الباب الرئيسي ، وسنكون قادرين على سماع الطيور من الداخل»

إن هو إلا صندوق طيور ، تقول مالوري لنفسها . ومع ذلك ، يبدو الأمر حقا تقدما .

يعيد توم الغطاء ببطء .

«عليكما أن تخبرانا بكل ما حصل معكما» ، تقول شيريل .

«سنفعل» ، يقول توم ، «و لكن لنذهب إلى غرفة الطعام ، كلانا يود لو يجلس لدقيقة»

يبتسم الرفاق .

إلا دون .

دون الذي قال إنهما ميتان . دون الذي لم يبرح أن ضم حصتيهما من الطعام إلى حصته .

في الرواق ، يضع توم صندوق الطير على الأرض مسندا إياه إلى الجدار . يجتمع الرفاق في غرفة الطعام . يأتي فيلكس ببعض الماء لتوم وجولز . يوضع كأسا الماء أمامها ، فيبدآن برواية قصة ما خاضاه في الخارج .

الفصل الثالث والعشرون

ما أن يغلق الباب وراءهما ، حتى ينتاب توم خوف أكبر مما كان يتوقعه .

هنا ، المخلوقات أقرب .

عندما سنصل إلى الشارع ، يقول توم لنفسه ، *ونبتعد عن المنزل ، هل ستهاجمنا؟*

يتخيل أيدٍ باردةً تقبض على يديه . رقبتَه تُقطع . رأسَه يُدق . عقلَه يُخرَّب .

لكن توم يدرك تماما أنه لم يُسمع أبدا عن شخص هاجمته المخلوقات .

هكذا يجب أن تفكر ، يقرر وهو لا يزال واقفا على السقيفة . وهو يغرس هذه الفكرة عميقا في عقله باحثا لجذورها عن تربة تضرب فيها ، يأذن توم لنفسه بالتنفس ، ببطء . وإذ يفعل ، تنبعث فيه مشاعر أخرى .

أولا ، ذلك الشعور المنفلت بلا عقال ، الطائش قليلا ، بالحرية .

لقد خرج توم مرات من المنزل منذ وصوله إليه . وجلب الماء من البئر بقدر ما فعل باقي الرفاق . وحمل البول والبراز إلى الحفر . لكن الأمر هذه المرة مختلف . *الهواء* مختلف . قبل أن يقرر هو وجولز أن ينطلقا ، تهب عليهما نسمة . تلامس عنقه ومرفقيه وشفتيه . إنه واحد من أغرب الأحاسيس التي خبرها في حياته . يهدئ ذلك من روعه . وبينما تربض المخلوقات في مخيلته المستثارة خلف كل شجرة

وخلف كل إشارة ، ينفحه الهواء النقي الطلق بنفحة طيش .

ولو للحظة .

«هل أنت جاهز يا جولز؟» يقول .

«أجل»

كأعميين حقيقيين ، يضرب كل منهما الأرض أمامه بعصاه . يتقدمان من السقيفة . وبعد ثلاث خطوات ، يشعر توم بأنه لم يعد يسير على الإسمنت . كأنه ، إذ يشعر بالعشب تحت قدميه ، بالمنزل قد اختفى وعفى رسمه . هو الآن في *عرض البحر* ، ضعيف ، وللحظة ، ليس متأكدا من أنه قادر على أن يمضي في الأمر .

فيفكر بابنته .

روبن . أنا ذاهب فقط لإحضار بعض الكلاب .

هذا حسن . يساعده .

تمر العصا على ما يبدو أنه حافة الرصيف ويطأ توم إسفلت الطريق . يتوقف هنا ويركع . وهو على ركبتيه ، يبحث عن زاوية عشب المنزل . يجدها . عندئذ يخرج عودا خشبيا صغيرا من حقيبته ويغرسها في الأرض .

«جولز» ، يقول ، «لقد علّمت عشب منزلنا . ربما سنحتاج إلى بعض المساعدة لنجد طريق العودة» .

يقف توم ويدور ، فيصطدم بسيارة .

«توم» ، يقول جولز ، «هل أنت بخير؟»

يتمالك توم نفسه .

«أجل» ، يقول ، «أظن أنني اصطدمت لتوي بسيارة شيريل الواغونير . أنا ألمس الألواح الخشبية» .

تقود أصوات جزمة جولز وعصاه توم ويبتعد عن السيارة .

في ظروف أخرى ، ترسل فيها الشمس أشعتها على جفنيه ، ولا عصابة أو خوذة لتحجبها ، يعلم توم أنه سيكون مارا بعالم خوخي اللون ، وسترى عيناه المغمضتان الألوان تتبدل مع الغيوم ، وتتحول مع ظلال الأشجار والسقوف . لكنه اليوم لا يرى إلا الأسود . وفي مكان ما من السواد يتخيل روبن ، ابنته . صغيرة ، بريئة ، ذكية . تحثه على السير ، سر يا بابا ، أبعد عن المنزل ، إلى أشياء قد تساعد أولئك الذين لا يزالون بداخله .

«اللعنة!» ، يقول جولز . يسمعه توم يسقط في الطريق .

«جولز!»

يتسمر توم في مكانه .

«جولز ، ما الذي حدث؟»

«تعثرت بشيء ما . هل تشعر به؟ كأنه حقيبة»

بمكنسته ، يرسم توم قوسا كبيرة . تتوقف الأسلاك عند شيء ما . يحبو توم إليه . يضع العصا بجانبه على الرصيف الساخن ويستخدم كلتا يديه ليتعرف على هذا الشيء الممدد في وسط الطريق ، ولا يطول به الأمر قبل أن يعرف ما هو .

«هذه جثة يا جولز» .

توم يسمع جولز إذ يقف .

«إنها امرأة على ما أعتقد» ، يقول توم ، ثم يرفع يده عن وجهها بسرعة .

يقف ويواصل الاثنان طريقهما .

يبدو الأمر كله سريعا ، والأحداث تتسارع . في العالم القديم ، كان اكتشاف جثة هامدة في وسط الطريق العام سيستلزم منهما ساعات ليهضماه .

لكنهما يواصلان .

يعبران حديقة حتى يصلا إلى بعض الشجيرات . وخلف الشجيرات منزل .

«هنا» ، يقول جولز ، «ثمة نافذة . أنا ألمس زجاج نافذة»

يتبع توم صوت جولز فيلحق به إلى النافذة . يتلمسان آجر الجدار إلى أن يصلا إلى باب المنزل . يطرق جولز الباب . ينادي . يطرق الباب من جديد . ينتظران . يتكلم توم . هو خائف من أن صوته قد يجذب إليهما في عالم الصمت هذا شيئا ما . لكنه لا يملك خيارا آخر . يشرح لمن قد يكون في المنزل أنهما لا ينويان شرا وأنهما هنا ليتزودا ببعض المؤن ، بأي شيء يمكن أن يساعدهما . ينتظران قليلا بعد . ولا حركة تسمع من المنزل .

«لندخل» ، يقول جولز

«حسنا»

يعودان أدراجهما إلى النافذة . من حقيبته ، يخرج توم منشفة صغيرة . يلفها على معصمه ثم يكسر الزجاج فلا تصطدم يده ببطانية ولا بورق مقوى ولا بخشب . توم يعلم جيدا أن هذا يعني أن من عاش هنا عاش دون حماية .

لعلهم غادروا المدينة قبل أن تسوء الأمور . لعلهم بأمان في مكان ما .

ينادي توم من خلال النافذة المكسورة .

«هل من أحد هنا؟»

وإذ لا يرد أحد ، يزيح جولز الزجاج ثم يعين توم على المرور من النافذة . بالداخل ، يطيح توم بشيء ما فيسقط محدثا صوتا مكتوما . يتسلق جولز خلفه إلى الداخل من خلال النافذة .

وإذ بهما يسمعان صوت موسيقى ، بيانو ، في الغرفة نفسها .
يرفع توم عصاه ليدافع عن نفسه لكن جواز يكلمه .
«هذا أنا يا توم!» ، يقول ، «أنا آسف ، عصاي أصابت البيانو»
يتنفس توم بصعوبة . وبينما يهدئ هو من روعه ، يصمت كلاهما .
«لا يمكننا أن نفتح أعيننا هنا» ، يقول جولز بهدوء .
«أعلم هذا» ، يقول توم ، «ثمة نسمة هواء ، هنالك نافذة أخرى مفتوحة»
كم يتمنى أن يكون قادرا على أن يفتح عينيه ، لكن المنزل غير آمن .
«ومع ذلك ، نحن هنا» ، يقول توم ، «لنحمل ما نستطيع حمله» .
لكن الطابق الأرضي كله ليس فيه شيء يصلح . يفتشان خزائن المطبخ . يتلمس توم بيده على رف ليجد بطاريات ، وشموعا صغيرة ، وأقلاما . يخبئها في حقيبته ويخبر جولز عنها تباعا .
«لنتحرك» ، يقول توم .
«و ماذا عن الطابق العلوي؟»
«لا يعجبني المكان . ولو كان في المنزل أغذية ، لكانت هنا في الأسفل» .
باستخدام العصي ، يشقان طريقهما إلى باب المنزل ، فيفتحانه ويخرجان . لا يعودان أدراجهما إلى الطريق ، بل يعبران الحديقة إلى منزل الجار ، وهاهما على بعد منزل آخر من منزلهما .
يمارسان الطقس نفسه وهما عند المدخل . يطرقان الباب . يستأذنان . ينتظران . وإذ لا يسمعان أي حركة في الداخل ، يكسران نافذة . هذه المرة جولز هو من يفعل .

تصطدم قبضته بحماية ضعيفة . يعتقد أنها ورق مقوى .
«قد يكون أحد ما بالداخل» ، يهمس .
ينتظران ردا على الجلبة التي أحدثاها . ولا رد يأتي . ينادي توم . يقول للمنزل إنهما جاران وإنهما يبحثان عن حيوانات ويقدمان المأوى في مقابل ذلك . ولا إجابة . يزيح جولز الزجاج ويعين توم على المرور من النافذة .
بالداخل ، يعيدان الورق المقوى الذي يغطي النافذة إلى مكانه .
يتفحصان المكان كل منهما بعصاه . يستغرق هذا الأمر ساعات طويلة . يتحركان وظهرهما إلى ظهر بعض ويلوح كل منهما بعصاه راسما أقواسا . توم يقود العملية ويخبر جولز إلى أين يجب أن يذهب . عندما ينتهيان ، وعندما يقتنعان بأن المنزل فارغ وبأن النوافذ مغطاة وبأن الأبواب موصدة ، يعلن توم المنزل منطقة آمنة .
كلاهما يدرك ما الذي يجب أن يحصل بعد ذلك .
سيخلعان عنهما خوذتيهما وعصابتيهما ويفتحان أعينهما .
لأشهر طويلة ، لم ير أي منهما منزلا من الداخل غير منزلهما .
يبادر جولز . يسمعه توم وهو يفك رباط خوذته ، ثم يفعل مثله . بعد أن يرفع عصابته إلى حد شعره ، يلتفت توم مغمض العينين ويواجه جولز .
«مستعد؟»
«مستعد»
يفتح الرجلان أعينهما .
ذات مرة ، عندما كان طفلا ، تسلل توم مع صديق له إلى منزل أحد الجيران من الباب الخلفي الذي لم يكن موصدا . لم يرسما خطة ولم تكن لهما غاية محددة . كل ما أراداه هو أن يريا هل

يستطيعان فعلها أم لا . لكنهما حصلا على أكثر مما أراداه عندما وجدا نفسيهما مختبئين في خزانة للملابس ومجبرين على الانتظار إلى أن تفرغ العائلة من عشائها . وعندما خرجا أخيرا ، سأله صديقه كيف أحس بنفسه حيال الأمر .

«قذرا» ، قال حينئذ .

عيناه مفتوحتان الآن ، داخل منزل غير منزله ، والإحساس نفسه ينتابه .

هذا ليس منزلهما . لكنهما داخله . ليست هذه أشيائهما ، لكنها قد تكون كذلك . لقد عاشت عائلة هنا ، وكان لها طفل ، فتوم يعرف لعبة أو لعبتين . وتقول له صورة إنه كان صبيا . شعره الفاتح وابتسامته الصغيرة تذكران توم بروبن . وبشكل ما ، كل ما صادفه توم منذ موت روبن ذكره بها . وبوجوده هنا في منزل غير منزله ، هو يتذكر كيف عاشا فيما مضى . الطفل إذ يروي لماما وبابا ما سمعه في المدرسة . بابا إذ يطالع التقارير الأولى في الصحف . ماما إذ تنادي الطفل ليدخل إلى المنزل . جميعهم إذ هم جالسون على الأريكة يشاهدون الأخبار وقد تملّكهم الرعب ، بينما يمد بابا يده ويمسك بيد ماما وابنهما بينهما .

روبن .

لا دليل على وجود حيوان أليف . لا لعبة للحيوانات منسية . لا فراش للقطط ولا رائحة كلب . لكن غياب أهل المنزل هو ما يشغل بال توم .

«توم» ، يقول جولز ، «تفقد الطابق العلوي ، سأكمل ما بقي هنا»

«حسنا»

عند سفح الدرج ، ينظر توم إلى الأعلى . يسحب عصابته من جيبه ويحكم ربطها حول عينيه من جديد ، فرغم أنهما تفحصا المنزل ، توم لا يستطيع حمل نفسه على صعود الدرج وعيناه مفتوحتان .

هل تفحصا المنزل كما يجب؟

يرقى الدرج ويستخدم عصاه ليجد طريقه . تلمس كتفه صورا معلقة . يفكر بصورة جورج المعلقة على جدار المنزل . يتعثر طرف حذائه بدرجة فيقع . ثمة سجادة تحت يديه . يقف . لا تزال أمامه درجات أخرى . درجات كثيرة حتى ليبدو الأمر مستحيلا ، وكأنه قد اخترق سقف المنزل .

أخيرا ، يخبره الصوت بأنه قد وصل . لكن عقله متأخر عن عصاه فيتعثر ويسقط ، ويصطدم هذه المرة بالجدار . الصمت يلف المكان هنا . يركع ويضع عصاه بجانبه ، ثم يتناول حقيبته ويفتحها بحثا عن مصباح الجيب . هو ذا بين يديه . يقف من جديد ويستخدم عصاه ليستهدي بها . يدور إلى اليمين فيصيب معصمه شيئا باردا وقاسيا . يتوقف ويتحسسه . هذه كأس ، يقول لنفسه . زهرية . ثمة رائحة كريهة . هو لم يشمها من قبل . تلمس يداه كومة من أوراق الشجر الميتة الجعدة . وإذ يتلمس السويقات ببطء ، يدرك أنها أزهار . ربما ورود . ميتة منذ زمن طويل . يدور إلى اليسار ، فتزول رائحة الورود الميتة إذ تلفحه رائحة أقوى بكثير .

يتوقف في الرواق . كيف فاتته وجولز هذه الرائحة؟

«مرحبا؟»

لا جواب . يسد توم أنفه وفمه بيده الخالية . رائحة النتانة لا تطاق . يتقدم في الرواق . وإذ يصل إلى باب على يمينه ، يدخل توم

إلى غرفة . هي حمام . صوت العصا يصدي على البلاط . ثمة رائحة رطبة عفنة لأدوات صرف صحي غير مستعملة . يكز رداء الحمام ويتفحص المغطس بعصاه . ثم يجد خزانة الدواء . ثمة قارورات حبوب . يضعها توم في جيبه . يركع ويفتش الخزائن تحت المغطس . يسمع شيئا خلفه ويلتفت .

هو الآن يواجه مغطس الاستحمام .

لقد تفحصته لتوك . لم يكن فيه شيء .

يد على المنضدة خلفه . والأخرى ببطء ترفع العصا . يشهرها أمامه وعيناه معصوبتان .

«هل من أحد هنا معي؟»

يتقدم قليلا نحو المغطس .

يلوح بالعصا مرة ، ثم مرة أخرى .

نفسه تغثي . حارةً الرائحة .

يندفع قدما ويلوح بعصاه بعنف أمام المغطس . يتفحص السقف فوقه ، ثم يتراجع ويفلت العصا فتقع أرضا وتصيب شيئا محدثة الصوت نفسه الذي سمعه وهو راكع قرب الخزائن .

بسرعة يجد قارورة من البلاستيك . القارورة فارغة .

يتنفس توم الصعداء .

يغادر الغرفة ويواصل تقدمه في الرواق ، فما يلبث أن يصل إلى باب آخر . هذا الباب مغلق . يسمع حركة جولز خافتة في الأسفل . يتنفس توم بعمق ويفتح الباب . الجو بارد هنا . تنبئه العصا بأن شيئا ما أمامه . يتحسس بيده فيكتشف فراشا . هو سرير صغير . دون أن يفتح عينيه ، يدرك أنها غرفة الصبي . يغلق الباب ، ويفتش الغرفة كلها بعصاه ، ثم يشعل النور .

ثم ينضو عنه عصابته ويفتح عينيه .

على الجدار رايات مسدلة . لفرق رياضية محلية . واحدة لحديقة الحيوانات . غطاء السرير سباق سيارات الفورميولا ١, الجو خانق هنا . لم يتبدل . ولأن الكهرباء تعمل ، يعيد المصباح إلى حقيبته . يدرك بعد تفتيش سريع ألا شيء هنا قد يفيده . ويفكر بغرفة روبن .

يغمض عينيه ويغادر .

إذ يتقدم أكثر في الرواق تزداد الرائحة خبثا . لا يمكنه ألا يغطي فمه . وفي آخر الرواق ، يصل إلى جدار . يدور فتلمس العصا بابا خلفه . يتجمد توم إذ ينفتح الباب ببطء .

هل تفقدت أنت وجولز هذه الغرفة؟ هل فعلتما؟!

«مرحبا؟»

لا إجابة . يدخل توم ببطء . يشعل النور ويفتش في الجدران عن نوافذ . يجد اثنتين . كلتاهما محصنة بالخشب . الغرفة كبيرة .

هذه غرفة النوم الرئيسية .

يعبر الغرفة . الرائحة هنا نفاذة حتى أنه يشعر بها مادية ، كأنه يستطيع لمسها . تقوده العصا إلى ما يبدو أنه خزانة كبيرة . ملابس . معاطف . يفكر في أن يأخذها . يفكر في الشتاء الذي سيواجهونه قريبا .

يدور فيكتشف بابا آخر أصغر . حمام آخر . من جديد يفتش في خزانة الأدوية وفي الأدراج . قارورات حبوب أخرى . معجون الأسنان . فُرَش الأسنان . يبحث عن نافذة . يجد واحدة ، مغطاة بالخشب . يستخدم العصا ليخرج من الحمام . يغلق الباب وراءه .

مطمئنا إلى أنه قد تفحص النوافذ ، ومعتقدا أنه بأمان ، يفتح

توم عينيه وهو يقف أمام الخزانة .

على السرير طفل جالس ينظر إليه .

يغمض توم عينيه .

هل هذا هو شكل المخلوقات؟

لم تأخذ حذرك! لم تأخذ حذرك!

قلبه يَهزِم كالرعد . ما الذي رآه؟ كان ذلك وجها . أهو وجه مسن؟ كلا ، كان وجه شاب . شاب؟ لكنه متهدم . يريد أن ينادي جولز . لكن الصورة تتضح له أكثر فأكثر إذ يبقي عينيه مغمضتين .

إنه الصبي . الصبي الذي رآه في الصور في الأسفل .

يفتح عينيه من جديد .

الصبي يرتدي حلة . مستندا إلى لوح رأس السرير ، وجهه ميمم بشكل غريب تجاه توم . عيناه مفتوحتان . فمه يتدلى . يداه مضمومتان إلى حجره .

تصورت جوعا هنا ، يقول توم في نفسه ، *في غرفة والديك* .

يتقدم توم إليه وهو يغطي فمه وأنفه ويقارنه بالصور . الصبي يبدو محنطا . منكمشا .

متى مِتّ؟ كم كنتُ قريبا من إخراجك من هنا؟

يحدق في عيني الصبي الميتتين .

روبن ، يقول لنفسه ، *أنا آسف جدا* .

«توم!» يصرخ جولز من الأسفل .

يلتفت توم .

يعبر الغرفة ويدخل الرواق .

«جولز! هل أنت بخير؟»

«أجل! أجل! تعال بسرعة! لقد عثرت على كلب»

توم تتنازعه رغبتان . أبوته تأبى عليه أن يترك هذا الصبي . روبن ترقد في قبر خلف المنزل الذي غادره منذ زمن بعيد .

«لو أني أعلم أنك هنا» ، يقول توم وهو يلتفت إلى غرفة النوم الرئيسية ، «لكنت جئت قبل اليوم»

ثم يدور ويهرع إلى الدرج .

لقد عثر جولز على كلب .

يجد جولز في الحمام . وقبل أن يتسنى لتوم أن يخبره عن الصبي ، ينطلق جولز إلى المطبخ وهو يتكلم عما وجده . وعند أعلى درج القبو ، يشير جولز بيده ويطلب من توم أن ينظر . أن يمعن النظر .

عند أسفل الدرج ، ممددين على ظهريهما ، الأبوان ، وقد لبسا كمن يتأهب للذهاب إلى الكنيسة . ثيابهما ممزقان عند أكتافهما . على صدر المرأة ورقة من دفتر . وبقلم لباد ، كتب أحدهم ، مخطئا في الإملاء : ارقدا بسلام .

«لقد عثرت لتوي على الصبي الذي كتب هذا» ، يقول توم ، «الصبي الذي سجاهما هنا»

«لا شك في أنهما ماتا جوعا» ، يقول جولز . «لا طعام هنا ، ولا أعلم كيف نجا هو»

يشير جولز بيده إلى ما وراء الأبوين . يفِزُّ توم ويرى كلب هسكي منثنيا بين معاطف من الفراء معلقة على مشجب .

هو إلى الهزال أقرب . يتخيل توم أنه كان يتغذى على لحم الأبوين الميتين .

يخرج جولز بعض اللحم من حقيبته ، يقطع قطعة ويرميها إلى الكلب . يخرج الكلب ببطء ثم ما يلبث أن يلتهم قطعة اللحم .

«هل هو ودود؟»

«لقد اكتشفت» ، يقول جولز ، «أن الكلب يصادق بسرعة من يطعمه» .

يرمي جولز بحذر قطعا أخرى من اللحم إلى الأسفل ، ويخاطب الكلب محاولا طمأنته .

لكن الكلب يحتاج جهدا . ووقتا .

يمضي الرجلان ما تبقى من النهار في المنزل . يستخدم جولز اللحم ليَشِج رباطا بينه وبين الكلب . وبينما يفعل ، يفتش توم حيث فتش جولز من قبل . قليلة هي الأشياء التي وجدها هنا ولا يملكونها في منزلهم . ولم يجد دليل هاتف ولا طعاما .

يقول جولز لتوم ، وهو الذي يعرف الكلاب أفضل منه ، إنه لم يحن الوقت بعد ليغادرا . وإن الكلب لا يزال متقلب المزاج وإنه لا يزال لا يثق به .

يفكر توم بمهلة الساعات الاثنتي عشرة التي حددها لرفاق السكن وقال إنهما سيعودان خلالها . يبدو أن ساعة ما قد بدأت تدق .

أخيرا ، بقول جولز لتوم إنه يعتقد أن الكلب صار جاهزا لمغادرة المنزل .

«فلننطلق إذا» يقول توم . «سنضطر إلى أن نواصل ما بدأناه معه بينما نحن نسير في طريقنا . لا يمكننا أن نبيت ليلتنا هنا ، مع رائحة الموت هذه .»

يوافقه جولز . لكنه يحاول ربط الكلب بالزمام عدة مرات دون جدوى . يمر الوقت ، وعندما ينجح جولز أخيرا ، يقرر توم أن على الساعات الاثنتي عشرة اللعنة . فإن كانت عشية واحدة منحتهما كلبا ، فمن يدري ما قد يأتي به صباح غد .

لكن الساعة لا تزال تدق .

عند بهو المنزل ، يربطان عصابتيهما ويلبسان خوذتيهما . ثم يفتح توم الباب ويخرجان . توم يستخدم عصاه ، لكن جولز يستخدم الكلب الآن . الهسكي يلهث .

وإذ يعبران الحديقة من جديد ، مبتعدين أكثر فأكثر عن مالوري ودون وشيريل وفيلكس وأوليمبيا ، هما ذا يصلان إلى منزل آخر .

هذا المنزل ، يمني نفسه توم ، هو المنزل الذي سيبيتان فيه ليلتهما . إن كانت نوافذه محمية ، إن اطمأنا بعد تفتيشهما إياه ، وإن لم تستقبلهما فيه رائحة الموت .

الفصل الرابع والعشرون

الألم في كتف مالوري دقيق ومفصل حتى أنها لترى شكله في ذهنها، وتراه يتحرك كلما تحرك كتفها. هو ليس ألما حادا كما كان عندما حدث الأمر. صار الآن عميقا فاترا ونابضا. ألوانَ تعفن صامتةً بدلا من تلك الألوان الصارخة التي تتفجر عند الصدمة. تتخيل كيف يبدو قعر القارب الآن. بول. ماء. دم. لقد سألها الطفلان هل هي بخير. وقالت لهما إنها بخير. لكنهما يعلمان متى تكذب عليهما. لقد دربتهما مالوري على سماع ما وراء الكلمات.

هي الآن لا تبكي، لكنها بكت آنفا. دموعا صامتة خلف عصابة عينيها. صامتة بالنسبة لها. لكن الطفلين قادران على قطف الأصوات من الصمت.

حسنا يا رفاق، كانت تقول لهما، وثلاثتهم جالسون إلى طاولة المطبخ. *أغمضا أعينكما*.

فيفعلان.

ما الذي أفعله؟

تبتسمين.

أحسنت يا فتاة. كيف علمت؟

تتنفسين بشكل مختلف عندما تبتسمين يا ماما.

وفي اليوم التالي يعيدون الكرة.

أنت تبكين يا ماما!

هذا صحيح. وما يبكيني؟

أنت حزينة .

ليس هذا السبب الوحيد .

أنت خائفة!

هذا صحيح . لنجرب واحدة أخرى .

الماء يزداد برودة الآن . مالوري تشعر برذاذه مع كل ضربة مجذاف مرهقة .

«ماما» ، يقول الصبي .

«ماذا؟»

تتيقظ حالما يأتيها صوته .

«هل أنت بخير؟»

«سبق أن سألتني هذا السؤال»

«لكن صوتك لا ينبئ بأنك بخير»

«قلت لك أنا بخير ، هذا يعني أني كذلك ، فلا تجادلني»

«لكنك» ، تقول البنت ، «تتنفسين بشكل مختلف!»

هذا صحيح . وهي تعلم أنه كذلك . مجهد ، تقول لنفسها .

«هذا لأني أجذف» ، تكذب .

كم مرة شكت في أمومتها وهي تدرب الطفلين ليصبحا آلتي إنصات؟ كانت رؤيتهما يتقدمان تفزع مالوري أحيانا . وكأنها تُركت لتعتني بطفلين متحولين . وحشين صغيرين . مخلوقين قائمين بذاتهما قادرين على سماع ابتسامة . قادرين على أن يخبراها بخوفها قبل حتى أن تعلم به هي ذاتها .

جرح كتفها غائر . لسنوات خشيت مالوري من أن تتعرض لجرح بهذا العمق . لقد كانت هنالك حالات أخرى . نجت فيها بأعجوبة . سقطة من على درج القبو عندما كان الطفلان في الثانية .

عشرة وهي تحمل الدلو في طريق عودتها من البئر ، فوقعت على الأرض واصطدم رأسها بحجر . في مرة من المرات اعتقدت أن معصمها كسر . سن مكسورة . من الصعب عليها أن تتذكر كيف تبدو ساقاها دون كدمات . والآن هي تشعر بلحم كتفها يتقشر وينفصل عن جسدها . تريد أن توقف القارب . تريد أن تجد مستشفى . أن تركض في الشوارع وتصرخ . *أريد طبيبا ، أريد طبيبا ، أريد طبيبا وإلا فسأموت ومن غيري سيموت الطفلان!!*

«ماما» ، تقول البنت .

«ما الأمر»

«نحن نتقدم في الاتجاه الخاطئ»

«*ماذا؟*»

تمكن منها الإنهاك فاعتمدت أكثر على ذراعها الأقوى ، وهي الآن تجذف عكس التيار دون حتى أن تشعر .

فجأة ، تمسك يد الصبي بيدها . تنكمش ، ثم تفهم . يضع أصابعه فوق أصابعها ، ويحرك ، معها ، وكأنه يدير مرفق البئر .

في خضم هذا العالم البارد المؤلم ، هو ذا الصبي ، وقد سمع كفاحها ، يعينها على التجذيف .

الفصل الخامس والعشرون

الهسكي يلعق يد توم . جولز يشخر إلى يساره على الأرض المفروشة في غرفة النوم . خلفه يقبع جهاز تلفزيون ضخم على منصَب من خشب السنديان . وأمام الجدار علب ملئى بالأسطوانات . مصابيح . فرشة مربعة . ومدفأة حجرية ، تملأ الفراغ فوق رفها لوحة كبيرة لشاطئ ما . يخمن توم أنه شاطئ في شمال ميتشيغان . وفوقه هو ، على السقف ، مروحة .

الكلب يلعق يده لأنه وجولز احتفلا الليلة الماضية وأكلا بعض رقائق البطاطا البائتة .

لقد كانت الزيارة مثمرة أكثر في هذا البيت منها في سابقه . جمع الرجلان بعض المعلبات وورقا وزوجي أحذية للأطفال وسترتين صغيرتين ودلوا بلاستيكية قوية قبل أن يغلبهما النوم . ومع ذلك ، لم يجدا دليل الهاتف ، ففي العصر الحديث الذي يملك فيه كل الناس هاتفا محمولا ، يبدو أن دليل الهاتف قد أكل عليه الدهر وشرب .

ثمة دلائل على أن أهل المنزل غادروا المدينة عن سابق تدبير . توجيهات للوصول إلى مدينة صغيرة في تكساس على الحدود المكسيكية . دليل للنجاة في الأزمات معلَّم عليه بقلم . قوائم طويلة من المؤن تضم البنزين وقطع غيار السيارات . الفواتير تقول إنهم اشتروا عشر مصابيح وثلاث قصبات للصيد وستة سكاكين ومياه ووقود البروبان وجوزا معلبا وثلاثة أكياس نوم ومولدا كهربائيا وقوسا

آلية وزيتا للطهو وبنزينا وحطبا للتدفئة . وبينما يلعق الكلب يده ، يفكر توم بتكساس .

«كوابيس» يقول جولز

ينظر توم فيرى جولز وقد استيقظ .

«حلمت بأننا لم نجد أبدا طريق العودة للمنزل» ، يقول جولز «و بأني لم أر فيكتور مرة ثانية»

«تذكر الوتد الذي غرسناه في الحديقة» ، يقول توم .

«لم أنسه» ، يقول جولز ، «حلمت بأن أحدهم أخذه»

ينهض جولز ويفطر الرجلان على الجوز . ويحصل الهاسكي على علبة تونة .

«لنعبر الشارع» يقول توم .

يوافقه جولز . يحزم الرجلان أمتعتهما ويغادران .

في الخارج ، يحل الإسفلت محل العشب . هما ذا في الشارع من جديد . الشمس حارقة والهواء البارد منعش . توم على وشك أن يقول شيئا وإذ بجولز يناديه .

«ما هذا؟»

يلتفت توم .

«ماذا؟»

«إنه موقع يا توم ، يشبه . . .أعتقد أنها خيمة»

«في وسط الشارع؟»

«نعم . *في وسط شارعنا*»

يقترب توم من جولز . تلمس أسلاك مكنسته شيئا كأنه صنع من معدن . بحذر يمد يده في العتمة ويلمس ما وجده جولز .

«لا أفهم» ، يقول توم .

يضع مكنسته على الأرض ، ويستخدم كلتا يديه ليتلمس فوق رأسه على طول قاعدة غطاء الخيش . هذا يذكره بمعرض في الشارع اصطحب ابنته إليه ذات مرة . سدت الشوارع بمخروطات برتقالية ، وباع مئات من الفنانين لوحاتهم ومنحوتاتهم ورسوماتهم . كانوا يجلسون جنبا إلى جنب ، وكانوا أكثر من أن يحصوا أو يعدوا . وباع كل منهم أعماله وهو يجلس تحت خيمة من خيش .

يدخل توم إلى الخيمة . يستخدم مكنسته ليرسم قوسا عريضة في الهواء فوق رأسه . لا شيء هنا إلا الأوتاد الأربعة التي تقيم الغطاء .

عسكرية ، يقول توم لنفسه . الصورة أبعد ما تكون عن معرض في الشارع .

عندما كان طفلا ، كانت أم توم تتباهى أمام صديقاتها بأن ابنها «يأبى أن تبقى مشكلة بلا حل» . *دائما يحاول أن يعالجها* ، كانت تقول . *لا يوجد شيء في المنزل لا يثير اهتمامه* . يتذكر توم كيف كان ينظر إلى وجوه صديقات أمه ، وكيف كن يبتسمن عندما كانت تقول هذا الكلام . *اللعب*؟ تقول أمه . *توم لا يحتاج للعب . غصن الشجرة لعبة . الأسلاك خلف جهاز الفيديو ألعاب . كيف تفتح وتغلق النوافذ* . طوال حياته كان يوصف هكذا . *هو من أولئك الذين يحبون أن يعرفوا كيف تعمل الأشياء . اسألوا توم . إن كان لا يعرف ، فسيتعلم . يصلح الأشياء . يصلح كل شيء* . لكن توم لم يكن ينتبه لكل هذا ، حتى رزق بروبن . عندئذ تسلط عليه افتتان الطفل بطريقة عمل الأشياء . والآن إذ يقف تحت هذه الخيمة ، توم لا يدري هل هو الطفل الذي يريد أن يعرف ما قصتها أم الأب الذي ينصحه بأن يبتعد عنها .

يفحص الرجلان الشيء ، بعمى ، لعدة دقائق .

«قد يفيدنا هذا الشيء» يقول توم . لكن جولز لم يعد بقربه وهو الآن يناديه .

يعبر توم الشارع ويتبع صوت جولز إلى أن يلتقيا على العشب .

المنزل الأول الذي يدخلانه أبوابه غير موصدة . يتفقان على ألا يفتحا أعينهما فيه ويدخلان .

تيارات الهواء تملأ المكان . يعلم الرجلان أن النوافذ مفتوحة حتى قبل أن يتفقداها . مكنسة توم تقول له إن الغرفة الأولى التي يدخلانها مليئة بالصناديق . هؤلاء الناس ، يقول لنفسه ، كانوا يتأهبون للرحيل .

«جولز» ، يقول توم ، «تفقد هذه . سأذهب للبحث في أرجاء المنزل» .

لقد مرت أكثر من أربع وعشرين ساعة على مغادرتهم المنزل .

الآن ، والسجاد تحت قدميه ، توم يمشي ببطء في منزل شخص آخر . يصادف أريكة وكرسيا وجهاز تلفزيون . جولز والهسكي لا يكادان يسمعان الآن . الريح تهب خلال النوافذ المفتوحة . يصل توم إلى طاولة . يتلمس سطحها إلى أن تتوقف أصابعه عند شيء ما .

قدح . يقول لنفسه .

يرفعه فيسمع شيئا يقع على الطاولة . يبحث عنه ويجده ، فيكتشف أنه وعاء لم يكن يتوقعه .

ملمسه كملمس مغرفة المثلجات إلا أنه أصغر .

يمر توم بيده على المغرفة . ثمة مادة كثيفة فيها .

تتملكه رعدة . هذه ليست مثلجات . لقد سبق له مرة أن لمس شيئا مشابها .

على حافة مغطس الحمام . عند معصمها الصغير . كان الدم كثيفا هكذا . كثيفا . ميتا . دم روبن .

وهو يرتجف ، يقرب القدح من صدره ويضع المغرفة . يمسح بيده ببطء على سطح الوعاء الأملس الخزفي إلى أن يلمس شيئا في قعره . يشهق ويسقط الوعاء على السجاد .

«توم؟»

لا يجيب توم فورا . هذا الشيء الذي لمسه لتوه ، لقد سبق له وأن لمس شيئا مشابها له أيضا .

أحضرته روبن معها من المدرسة . من درس العلوم . واحتفظت به في علبة قهوة مفتوحة ومملوءة بقطع النقود . وجده توم عندما كانت روبن في المدرسة . عندما كان يبحث في المنزل عن مصدر *تلك الرائحة* .

علم أنه قد وجدها عندما رأى ، داخل حرف العلبة ، على قمة كومة من قطع النقود ، كرة صغيرة حال لونها . بحركة غريزية أمسكها ، فانسحقت بين أصابعه .

كانت تلك عين خنزير . مشرحة . كانت روبن ذكرت أنها فعلت ذلك في القسم .

«توم؟ ما الذي حصل هناك؟»

جولز يناديك *. أجبه .*

«توم؟»

«أنا بخير يا جولز! كل ما في الأمر أني أوقعت شيئا»

وهو يتراجع ليغادر هذه الغرفة ، لكزت يده شيئا .

هو يعرف هذا الشعور أيضا .

كانت تلك كتفا ، يقول لنفسه . *ثمة جثة جالسة على الكرسي إلى هذه الطاولة* .

يتخيلها توم . جالسة . بلا عينين .

في البداية ، لا يستطيع الإتيان بحركة . هو الآن يقف مقابلا للمكان الذي لا بد أن الجثة جالسة فيه .

يسرع بمغادرة الغرفة .

«جولز» ، يقول ، «لنخرج من هنا»

«ماذا حصل؟»

يخبره توم . وخلال دقائق يصبحان خارج المنزل . لقد قررا أن أن يشقا طريق العودة إلى منزلهما . كلب واحد يكفي . وبين الخيمة وما وجده توم في القدح ، لم يعد أي منهما يريد أن يبقى في الخارج بعد الآن .

يعبران قطعة عشب . ثم ممشى . ثم عشبا ثانيا . الكلب يسحب جولز . توم يصارع لمجاراتهما . ينتابه شعور بأنه تائه هنا في عتمة عصابة عينيه . ينادي جولز .

«أنا هنا!» يجيبه جولز .

يتبع توم صوته ويلحق به .

«توم» ، يقول جولز ، «الكلب يحدث جلبة كبيرة بسبب هذا المرآب» .

وهو لا يزال يرتعد مما اكتشفه في المنزل ، وأكثر من ذلك خائفا من العبثية التي يمثلها وجود الخيمة في وسط الشارع ، يقول توم إنه يجدر بهما أن يواصلا طريقهما . لكن جولز يريد أن يعرف ما الذي يشد اهتمام الكلب بهذا القدر .

«إنه مرآب مستقل» ، يقول جولز ، «الكلب يتصرف وكأن هنالك شيئا حيا بالداخل» .

ثمة باب جانبي وهو موصد . يجد جولز نافذة واحدة فقط ، فيكسرها . يقول لتوم إنها محمية . ورق مقوى . النافذة صغيرة ، لكن يمكن لشخص أن يمر منها . يقول جولز إنه سيفعل . يقول توم إنه سيفعل كذلك . يربطان الكلب إلى مزراب ويزحفان عبر النافذة .

حالما يدخلان ، يزمجر شيء ما في وجههما .

يلتفت توم إلى النافذة . يناديه جولز .

«كأنه صوت كلب آخر!»

توم أيضا يعتقد ذلك . قلبه ينبض بسرعة ، أسرع مما يجب ، يقول لنفسه ، ويقف وإحدى يديه على حد النافذة ، متأهبا ليقفز إلى الخارج .

«لا أصدق هذا ،» يقول جولز

«ماذا؟»

«إنه هسكي آخر»

«ماذا؟ كيف علمت؟»

«لأنني ألمس وجهه»

يبتعد توم عن النافذة ببطء . بإمكانه أن يسمع الكلب يأكل . جولز يطعمه .

عندئذ ، قرب مرفق توم ، يسمع صوت آخر .

لأول وهلة ، يبدو الصوت وكأنه لأطفال يضحكون ، ثم وكأنه لأغنية .

ثم صوت الزقزقة واضحا لا لبس فيه .

«طيور»

بلطف يتراجع توم مبتعدا . تهدأ الزقزقة . يتقدم من جديد . يرتفع صوتها .

طبعا ، يقول لنفسه توم ، وهو يشعر بالحماسة التي كان يبحث عنها عندما غادرا المنزل في اليوم الماضي .

بينما جولز يكلم الكلب بهدوء ، يقترب توم من الطيور إلى أن يبلغ صوت زقزقاتها حدا لا يمكن احتماله . يتلمس سطح أحد الرفوف .

«توم» ، يقول جولز في العتمة ، «كن حذرا»

«إنها داخل علبة» يقول توم

«ماذا؟»

«لقد كبرت مع رجل كان أبوه صيادا . كان طيوره تصدر الصوت نفسه . وكلما اقتربت منها علا صوتها»

يدا توم على العلبة .

يفكر .

«جولز» ، يقول ، «لنعد إلى المنزل» .

«أريد أن أمضي وقتا أطول مع الكلب»

«سيكون عليك أن تفعل هذا في المنزل . يمكننا أن نحبسهما في غرفة إن وقع خطب ما ، لكننا وجدنا ما خرجنا نبحث عنه ، فلنعد إلى المنزل .»

يربط جولز الهسكي الثاني . هذا الكلب أسهل انقيادا من سابقه . وهما يغادران المرآب من الباب الجانبي ، يسأل جولز توم «ستجلب معك الطيور؟»

«أجل ، خطرت ببالي فكرة»

يخرجان فيستعيدان الهسكي الأول وينطلقان إلى المنزل . جولز يمشي مع الكلب الثاني وتوم مع الأول . يعبران أعشابا ومماشي إلى أن يصلا إلى العلامة التي وضعاها قبل يوم .

على سقيفة المدخل ، وقبل أن يطرق الباب ، يسمع توم الرفاق وهم يتجادلون بالداخل . ثم يخيل إليه أنه يسمع صوتا آتيا من الشارع خلفه .

يلتفت .

ينتظر .

يتساءل ما مدى قرب الخيمة من حيث هو واقف .

ثم يطرق الباب .

بالداخل ، يتوقف الجدال . يناديه فيلكس . يرد توم .

«فيلكس ، إنه توم!»

الفصل السادس والعشرون

سيكون عليك أن تفتحي عينيك . . .

«عليك أن تأكلي يا بنت» ، تقول مالوري بعناء . صوتها ضعيف .

الصبي أكل بعض الجوز من الكيس . أما البنت فلا تريد .

«إن لم تأكلي» ، تقول مالوري بين تكشيرتين ، «سأوقف هذا القارب وأتركك هنا» .

تشعر مالوري بيد البنت على ظهرها . تكف عن التجذيف وتخرج لها بعض الجوز من الكيس . حتى هذا يؤلم كتفها .

لكن ، فوق الألم ، تحوم فكرة . حقيقة تأبى مالوري أن تواجهها .

أجل ، العالم خلف عصابة عينيها رمادي باهت . أجل ، هي تخشى أنها قد تفقد وعيها . لكن واقعا أظلم بكثير يشق طريقه عبر حشد مخاوفها ومشاكلها ، ملتويا ، أريبا . يطفو ثم يحوم ثم يحط على خطوط خيالها الأمامية .

هو أمر ظلت تحفظه ، تخفيه عن نفسها طوال الصباح .

لكنه كان قطب الرحى في كل القرارات التي اتخذتها لسنوات .

تقولين لنفسك إنك انتظرت أربع سنوات لأنك كنت تخافين من أن تفقدي البيت للأبد . تقولين لنفسك إنك انتظرت سنوات لأنك كنت تريدين أن تدربي الطفلين أولا . لكن لا هذا ولا ذاك هو الحقيقة . لقد انتظرت أربع سنوات لأنك ستضطرين هنا ، في هذه

الرحلة ، على هذا النهر ، حيث تكمن الذئاب ويتربص المجانين ، وحيث المخلوقات قريبة بلا شك ، اليوم ستضطرين إلى فعل ما لم تفعلي منذ أكثر من أربع سنوات .

اليوم سيكون عليك أن تفتحي عينيك .

في الخارج .

هذا صحيح ، وهي تعلم أنه كذلك . لطالما علمت بذلك ، على ما يبدو . وما الذي يخيفها أكثر من أي شيء آخر - احتمال أن يكون مخلوق واقفا في مجال رؤيتها؟ أم لوحة الألوان الغامضة التي ستنفجر أمامها عندما ستفتح عينيها .

ما شكل العالم الآن؟ هل ستعرفينه؟

هل هو رمادي؟ هل جُنَّت الأشجار؟ والأزهارُ ، ونباتُ القصب ، والسماءُ؟ هل فقد العالم كله عقله؟ هل يحارب بعضه بعضا؟ هل ترفض الأرض محيطاتها؟ الريح تزداد سرعتها . هل رأت شيئا ما؟ هل جنت هي أيضا؟

فكري ، كان سيقول توم . *ها أنت تفعلينها . تجذفين . واصلي التجذيف وحسب . كل هذا يعني أنك ستنجحين . سيكون عليك أن تفتحي عينيك . يمكنك أن تفعليها . لأنه عليك ذلك .*

توم . توم . توم . توم . توم .

تشتاق إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى .

حتى في هذا العالم الجديد ، هنا على النهر ، والريح يرتفع عويلها ، والماء البارد يبل سروالها ، والحيوانات المفترسة تلاحق الضفاف ، وجسدها محطم ، وعقلها أسير اللون الرمادي ، حتى هنا تتذكر توم مشرقاً ، صحيحاً ، حسناً .

«أنا آكل» ، تقول البنت .

هذا حسن أيضا . تجد مالوري في نفسها القوة لتشجعها .

«أحسنت» ، تقول لها وهي تتنفس بصعوبة .

حركة أكثر في الغابة إلى جهة اليسار . كأنه صوت حيوان . قد يكون الرجل صاحب القارب . قد يكون مخلوقا . أو عشرة . هل سيقاطع القارب قطيعا من الدببة وهي تصطاد السمك؟

مالوري جريحة . الكلمة لا تنفك تتكرر في ذهنها . تحوم . مثل توم . مثل الألوان الرمادية خلف عصابة عينيها . مثل أصوات النهر والعالم الجديد . كتفها . جرحها . لقد حصل الأمر . الأمر الذي كان الناس سيحذرونها منه لو كان معها أحد ليحذرها .

اركبي النهر إن كان عليك أن تفعلي ، ولكن اعلمي أنك قد تصابين بالأذى .

أوه ، لا أعلم إن كنت سأفعل ذلك . قد تصابين بالأذى .

الأمر خطير جدا . ما الذي سيحصل للطفلين لو أصبت بأذى؟

إنه عالم وحوش الآن يا مالوري . لا تخرجي . لا تركبي ذلك النهر .

قد تصابين بالأذى .

أذى .

أذى .

أذى!

شانون . فكري بشانون . تمسكي بها .

تحاول . تشق ذكرى طريقها في حشد الأفكار السوداء الجاثمة عليها . تتذكر نفسها وشانون على سفح تلة . كان الجو مشمسا آنذاك . حمت عينيها بساعدها النحيل ، وأشارت إلى السماء .

إنه آلان هاريسون! قالت وهي تعني صبيا من صفها . تلك

الغيمة تشبه آلان هاريسون!

كانت تضحك .

أي غيمة؟

تلك الغيمة! هل ترينها؟

اقتربت شانون منها على العشب ، ووضعت رأسها بجانب رأس مالوري .

أجل! هاها! إني أراه! وانظري إلى تلك الغيمة! تلك الغيمة سوزان روث!

ظلت الأختان مستلقيتين هناك لساعات ، تستخرجان وجوها من الغيوم . كان يكفيهما أنف ، أو أذن . ربما لرأس إحداها خصلات ، مثل إيميلي هولت .

هل تتذكرين *السماء*؟ تسأل نفسها ، وهي لا تزال ، لدهشتها ، تجذف . *كم كانت زرقاء . والشمس كانت صفراء كم لو أنها في رسم طفل . كان العشب أخضر* . وجه شانون كان *شاحبا* ، *ناعما* ، *أبيض . كذلك كانت يداك وهما تشيران إلى الغيوم . أينما نظرت ، ذلك اليوم ، كانت ثمة ألوان* .

«ماما؟» ، يقول الصبي ، «ماما ، هل تبكين؟»

عندما تفتحين عينيك يا مالوري ، سترينهما من جديد . عالمك كله سيخرج إلى النور . لقد رأيت جدرانا وأغطية . حبالا ، مدى ، ساطورا ، سياجا ، أسلاك مكبرات الصوت ، وملاعق . أطعمة معلبة ، شموعا ، وكراسي . شريطا ، بطاريات ، خشبا وجبسا . لسنوات كل ما كان مسموحا لك برؤيته هي وجوه رفاق السكن وطفليك . الألوان نفسها . الألوان نفسها . الألوان نفسها لسنوات . سنوات . هل أنت جاهزة؟ وما الذي يخيفك أكثر؟ المخلوقات أم

نفسك إذ تتدفق عليك ذكريات عن ملايين الصور والألوان؟ ما الذي يخيفك أكثر؟

مالوري تجذف ببطء شديد الآن . بأقل من نصف السرعة التي كانت تجذف بها قبل عشر دقائق . الماء والبول والدم يبقبق عند كاحليها . الحيوانات أو المجانين أو المخلوقات تتحرك على ضفاف النهر . الريح باردة . توم ليس هنا . شانون ليست هنا . العالم الرمادي خلف عصابة عينيها بدأ يدور ، مثل حمأ كثيف يزحف ببطء نحو بالوعة .

تتقيأ .

في اللحظة الأخيرة تتساءل بقلق هل هو أمر رهيب هذا الذي يحصل معها . أن تفقد وعيها . ما سيكون من أمر الطفلين؟ هل سيكونان بخير إن غابت ماما عن الوعي؟

وهذا كل شيء .

ترتخي يدا مالوري عن المجذافين . في عقلها ، توم يراقبها . والمخلوقات تراقبها كذلك .

ثم ، وبينما الطفل يسألها شيئا ما ، تغيب مالوري ، ربانة هذه السفينة الصغيرة ، عن الوعي تماما .

الفصل السابع والعشرون

تفيق مالوري من أحلام راودتها عن الأطفال . الوقت ، فيما تخمن ، إما صباح باكر أو متأخر ليلا . المنزل غارق في الصمت . كلما تقدم بها الحبل أكثر ، تجسد وضعها أمام عينيها وصار حيا أكثر . كل من *حبلى ووأخيرا* . . . طفل! يعرضان باقتضاب لمسألة الولادة في المنزل . طبعا الأمر ممكن دون الحاجة إلى مساعدة خبير ، لكن الكتابين يحذران من ذلك . التعقيم ، يقولان . *الطوارئ* . أوليمبيا لا تحب أن تقرأ هذه المقاطع ، لكن مالوري تعلم أنه يجب عليهما أن تفعلا .

يوما ما ، سيأتيك الألم الذي تتحدث عنه أمك وكل الأمهات متخذا الشكل نفسه : الوضع . وحدها المرأة يمكنها أن تجربه ولأجل ذلك كل النساء مرتبطات .

الآن صارت هذه اللحظة قريبة . الآن . ومن سيكون هناك عندما تصل . في العالم القديم ، كانت الإجابة سهلة . شانون ، طبعا . ماما وبابا . الأصدقاء . وممرضة تؤكد لها أنها بخير . ستكون هناك زهور على الطاولة ، والملاءات ستعبق برائحة منعشة . ستغمرها بالاهتمام نساء سبق لهن أن وضعن أطفالا وسيتصرفن كما لو أن الأمر يشبه انتزاع حبة فستق من قشرتها . وستكون السهولة التي سيتكلمن بها هي تحديدا ما يهدئ أعصابها المتوترة بشكل لا يطاق .

لكن هذا لم يعد الجواب . المخاض الذي تتوقعه مالوري صار

يبدو لها كأنه مخاض ذئبة : وحشيا ، لئيما ، لاإنسانيا . لن يكون معها طبيب ، ولا ممرضة .

ولا دواء .

آه كم تتخيل أنها ستعلم ما الذي عليها فعله! كم كانت تعتقد أنها ستكون جاهزة مستعدة! المجلات ، المواقع الإلكترونية ، الفيديوهات ، نصائح طبيبتها لها ، والقصص التي سمعتها من أمهات أخريات . لكن لا شيء من ذلك في متناول يدها الآن . لا شيء! لن تضع حملها في مستشفى ، بل هنا في هذا المنزل . في واحدة من غرف *هذا المنزل!* وأقصى ما يمكن أن تتوقعه هو أن يساعدها توم بينما تمسك أوليمبيا بيدها وتنظر إلى ما يحدث بهلع . ستكون النوافذ مغطاة بالبطانيات . ربما يوضع تحت عجيزتها قميص . وستشرب من ماء البئر المعتكرة .

وهذا كل شيء . هكذا سيحصل الأمر .

تنقلب على ظهرها من جديد . تحدق بالسقف وهي تتنفس ببطء وصعوبة . تغمض عينيها ، ثم تفتحهما من جديد . هل ستقدر على فعل ذلك؟ *هل ستقدر؟*

لا بد لها من ذلك . ولأجل ذلك هي ذي تردد التعاويذ ، كلمات تجعلها مستعدة .

في المحصلة ، لا يهم إن حصل الأمر في مستشفى أم على أرض مطبخ . جسدك يعرف ما الذي عليه أن يفعله . جسدك يعرف ما الذي عليه أن يفعله . جسدك يعرف ما الذي عليه أن يفعله .

الطفل القادم هو وحده ما يهمها .

فجأة ، كما لو أنها تحاكي صوت الطفل الذي تتهيأ له ، تسمع مالوري هديل الطيور في الخارج عند الباب . تنسحب من أفكارها

وتلتفت إلى مصدر الصوت . وإذ تعتدل ببطء في جلستها على الفراش ، تسمع طرقا قادما من الطابق الأرضي .

تتجمد .

أكان ذلك الباب؟ هل هو توم؟ هل خرج أحدهم؟

تسمع الطرق من جديد وتجلس وقد تملكتها الدهشة . تضع يدا على بطنها وترهف سمعها .

يأتي من جديد .

تضع مالوري قدمها على الأرض ببطء وتقوم ثم تعبر الغرفة . تتوقف عند الباب ، يد على بطنها والأخرى على إطار الباب ، وتنصت .

طرقة أخرى . هذه المرة صوتها أعلى .

تسير إلى الدرج وتقف من جديد .

من بالباب؟

تشعر بجسدها تحت منامتها باردا . الطفل يتحرك . ينتاب مالوري دوار خفيف . الطيور لا تزال تحدث أصواتا .

هل هو واحد من الرفاق؟

تدخل غرفتها وتتناول مصباحا . تذهب إلى غرفة أوليمبيا وتسلط الضوء على سريرها . نائمة . في الغرفة في آخر الرواق ، ترى شيريل على سريرها .

ببطء تنزل مالوري الدرج إلى غرفة الجلوس .

توم .

توم نائم على السجاد . فيلكس على الأريكة .

«توم» ، تقول مالوري وهي تلمس كتفه ، «توم ، استيقظ»

ينقلب توم على معدته . ثم يرفع نظره ، فجأة ، إلى مالوري .

«توم» تقول .
«هل كل شيء على ما يرام؟»
«أحدهم يطرق باب المنزل»
«ماذا؟ الآن؟»
«الآن»
تأتي طرقة أخرى . يدير توم وجهه ناحية الرواق .
«اللعنة . كم الساعة الآن؟»
«لا أدري . الوقت متأخر»
«حسنا» .
ينهض توم بسرعة . يتريث قليلا ، كما لو أنه يحاول أن يفيق تماما ويترك نومه على الأرض . لقد نام مرتديا ثيابه . بجانب المكان الذي كان نائما فيه ، تبصر مالوري الإرهاصات الأولى لخوذة أخرى . يشعل توم نور غرفة الجلوس .
ثم يتجهان إلى باب المنزل . عند الرواق يتريثان . تأتيهما طرقات أخرى .
«مرحبا؟» يقول رجل
تمسك مالوري بذراع توم . يشعل توم نور الرواق .
«مرحبا؟» يقول الرجل من جديد .
طرقات أخرى .
«أنا بحاجة إلى أن تدخلوني!» يقول الرجل ، «لا مكان آخر أذهب إليه . مرحبا؟» .
أخيرا ، يتقدم توم إلى الباب . من آخر الرواق ، ترى مالوري شكلا يتحرك . إنه دون .
«ما الذي يجري هنا؟» يسأل .

«أحدهم بالباب» يقول توم .

دون بالكاد مستيقظ ويبدو مضطربا مشوشا . ثم لا يلبث أن يقول بحدة «حسنا ، وماذا ستفعلون بهذا الشأن؟»

طرقات أخرى .

«أنا بحاجة لمأوى» ، يقول الصوت . «لم أعد أستطيع البقاء في الخارج» .

«سأكلمه» يقول توم

«لسنا في فندق بحق الجحيم يا توم» يقول دون .

«سأكلمه فحسب»

يتجه دون إليهما . تسمع مالوري جرجرة أقدام في الطابق العلوي .

«إن كان من أحد هنا يمكنني أن -»

«من أنت؟» ينادي توم أخيرا .

تحل لحظة صمت . ثم «أوه ، حمدا لله يوجد أحد هنا! اسمي غاري»

«قد يكون مجرما» ، يقول دون ، «قد يكون *مجنونا*» .

يظهر فيلكس وشيريل عند آخر الرواق . يبدوان منهكين . جولز هنا الآن هو أيضا ، يتبعه الكلبان .

«ما الأمر يا توم؟»

«يا غاري» ، يقول توم ، «أخبرنا أكثر عن نفسك»

الطيور لا تنفك تهدل .

«من هذا؟» يسأل فيلكس

«اسمي غاري ، وعمري ست وأربعون سنة . لي لحية بنية . أنا لم أفتح عيني منذ زمن بعيد»

«لا تعجبني نبرة صوته» تقول شيريل .
أوليمبيا هنا الآن .
ينادي توم «لم أنت بالخارج؟»
يقول غاري ، «اضطررت إلى مغادرة المنزل الذي كنت أسكنه . لم يكن سكان المنزل صالحين ، وطرأ وضع جديد» .
«ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟» يصرخ دون .
يصمت غاري . ثم ، «صاروا عنيفين» .
«هذا لا يكفي» ، يقول دون للآخرين ، «لا تفتحوا هذا الباب» .
«غاري» ، يقول توم ، «منذ متى وأنت بالخارج»
«منذ يومين ، على ما أعتقد . ربما ثلاثة» .
«أين مكثت خلال هذه الأيام؟»
«مكثت؟ على العشب . تحت الشجيرات» .
«اللعنة» ، تقول شيريل .
«اسمعوا» ، يقول غاري . «أنا جائع . أنا وحيد . وأنا خائف جدا . أفهم حذركم لكنني لا أعرف مكانا آخر أذهب إليه .»
«هل جربت منازل أخرى؟» يقول توم .
«أجل! أنا أطرق الأبواب منذ ساعات . أنتم أول من أجابني» .
«كيف علم أننا هنا؟» تسأل مالوري الرفاق .
«لعله لم يكن يعلم» يقول توم .
«لقد طرق وألح في الطرق . كان يعلم أننا هنا» .
يلتفت توم إلى دون . تعابير وجهه تسأل دون رأيَه .
«لا مجال ، إطلاقا» .
توم الآن يتصبب عرقا .
«أنا واثق من أنك تريد أن تفتح له الباب» ، يقول دون بغضب ،

«على أمل أن يأتيك ببعض الأنباء»

«هذا صحيح» ، يقول توم ، «أنا آمل أن أجد عنه أفكارا ، وأنا أيضا أتساءل ، ربما يكون بحاجة لمساعدتنا» .

«صحيح . حسنا ، أنا أتساءل ربما ثمة سبعة رجال بالخارج ينتظرون ليقطعوا أعناقنا جميعا» .

«*يا إلهي*» تقول أوليمبيا .

«جولز وأنا كنا بالخارج قبل يومين» ، يقول توم ، «هو على حق في أن المنازل الأخرى خالية من أهلها» .

«فلم إذًا لا ينام في أحدها؟»

«لا أدري يا دون ، بسبب الطعام؟»

«و أنتما كنتما خارج المنزل في الفترة نفسها ، ولم يسمعكما؟»

«اللعنة» ، يقول توم ، «لا أدري كيف أرد على هذا السؤال . ربما كان على بعد شارع منا»

«أنتما لم تجربا تلك المنازل ، فكيف تعلمان أنه يقول الحقيقة؟»

«أدخله» ، يقول جولز .

يواجهه دون .

«يا صاح ، ما هكذا تسير الأمور هنا»

«فلنقترع إذا»

«بحق الجحيم» ، يقول دون وهو يستشيط غضبا ، «إن كان أحدنا لا يريد أن يفتح الباب اللعين ، فعلينا ألا نفتح الباب اللعين .»

تفكر مالوري بالرجل الواقف على سقيفة المدخل . في تخيلاتها ، عيناه مغمضتان وهو يرتجف .

الطيور لا تزال تهدل .

«مرحبا؟» يقول غاري من جديد. صوته يشي بوهنه ونفاد صبره.

«نعم»، يقول توم، «أنا آسف يا غاري. لا زلنا نناقش الأمر». ثم يلتفت إلى الآخرين. «صوتوا»، يقول.

«نعم»، يقول فيلكس.

يومئ جولز برأسه.

«آسفة»، تقول شيريل، «لا».

ينظر توم إلى أوليمبيا. تهز برأسها أن لا.

«لا أحب أن أفعل هذا بك يا مالوري»، يقول توم، «لكن لدينا تعادل. ماذا تريديننا أن نفعل؟»

مالوري لا تريد أن ترد. لا تريد سلطة كهذه. لقد ألقي مصير هذا الغريب عند قدميها.

«ربما يكون بحاجة للمساعدة»، تقول. لكنها، في اللحظة التي تلي ذلك، تود لو أنها لم تفعل.

يلتفت توم إلى الباب. يعترضه دون ويمسك بمعصمه.

«لا أريد لهذا الباب أن يفتح»، يفحّ.

«دون»، يقول توم وهو يخلص معصمه ببطء من يد دون، «لقد اقترعنا. وسندخله. تماما كما أدخلْنا أوليمبيا ومالوري. تماما كما أدخَلَنا جورج أنا وأنت».

يحدق دون بتوم لمدة تبدو لمالوري كأنها الدهر. هل سيصل الأمر إلى الاقتتال هذه المرة؟

«أنصت إلي»، يقول دون، «إن ساءت الأمور هذه المرة، إن تعرضت حياتي للخطر بسبب اقتراع لعين، لن أقف لحظة واحدة وأنا أخرج من هذا المنزل لأمد يد العون لكم»

«دون»، يقول توم.

«مرحبا؟» يقول غاري .
«أبق عينيك مغمضتين!» يصيح به توم ، «سندخلك» .
يد توم على مقبض الباب .
«جولز ، فيلكس» ، يقول توم ، «استعملا المكانس . شيريل ، مالوري ، ستقتربان منه وتفتشانه ، اتفقنا؟ والآن ، جميعكم ، أغمضوا أعينكم» .
في العتمة ، تسمع مالوري الباب يفتح .
صمت . ثم يتكلم غاري .
«هل الباب مفتوح؟» يقول غاري بلهفة .
«أسرع» ، يقول توم .
تسمع مالوري جرجرة أقدام . يغلق باب المنزل ، فتتقدم .
«أبق عينيك مغمضتين يا غاري» ، تقول
تمد يدها بحثا عنه وتجده وتضع أصابعها على وجهه . تتحسس أنفه ووجنتيه وتجاويف عينيه .
«هذا جديد علي» ، يقول ، «عمَّ تبحثين -»
«صه!»
تتحسس يديه وتعد أصابعه . تتحسس أصابع قدميه والشعر الخفيف على براجمه .
«حسنا» ، يقول فيلكس . «أظن أنه لوحده» .
«أجل» ، يقول جولز ، «هو لوحده»
تفتح مالوري عينيها .
ترى رجلا ، أسنَّ منها بكثير ، بلحية بنية ، وسترة فضفاضة من التويد على كنزة صوفية سوداء . رائحته تشي بأنه بقي في الخارج لأسابيع لا لثلاثة أيام .

«شكرا» ، يقول مقطوع النفس .

لا يجيب أحد في البداية ، ويكتفون جميعا بالنظر إليه .

شعره البني الممشط إلى جانبه بعض الشيء شَمُوس . هو أكبر سنا وأمتن بنيانا من كل الرفاق . في يده حقيبة بنية .

«ماذا في الحقيبة؟» يسأل دون .

ينظر غاري إلى الحقيبة كأنه نسي أنه يحملها .

«أشيائي» ، يقول . «ما استطعت أن أحمله وأنا أغادر المنزل»

«أيّ أشياء؟» يسأل دون .

يفتح غاري الحقيبة مندهشا ومتفهما في الوقت نفسه ، ويديرها ليراها الرفاق . أوراق . فرشاة أسنان . قميص . ساعة .

يهز دون رأسه .

وهو يغلق حقيبته ، ينتبه غاري إلى بطن مالوري . «يا إلهي» ، يقول ، «موعد وضعك قريب ، أليس كذلك؟»

«أجل» ، تقول ببرود وهي لا تدري إن كان بإمكانهم أن يثقوا به أم لا .

«لِمَ الطيور؟» يسأل .

«للتحذير» ، يقول توم .

«طبعا» ، يقول غاري . «كالكناري في المنجم[1] . فكرة ذكية للغاية . سمعتها وأنا أقترب .»

---

(١) المعنى هو «الإنذار المبكر» ، والعبارة كاملة هي «كناري في منجم فحم» ، إشارة إلى أقفاص الكناري التي كان عمال المناجم يحملونها معهم حتى إذا تراكم غاز أوكسيد الكربون قتل الطيور فيغادر العمال المنجم في الوقت المناسب . [المترجم]

يدعو توم غاري للدخول . يتشممه الكلبان . في غرفة الجلوس ، يشير توم إلى الأريكة .

«يمكنك أن تنام هنا الليلة» ، يقول . «الأريكة تنثني . هل تريد شيئا لتأكله؟»

«نعم» ، يقول غاري بارتياح .

يقوده توم عبر المطبخ إلى غرفة الطعام .

«نحن نحتفظ بالأطعمة المعلبة في القبو . سأحضر لك شيئا منه .»

يشير توم بهدوء إلى مالوري أن تتبعه إلى المطبخ ، فتفعل .

«سأسهر معه لبعض الوقت» ، يقول توم . «خذي قسطا من الراحة إن شئت . الجميع منهكون . لا بأس . سأحضر له بعض الطعام وبعض الماء وسنتكلم معه غدا ، جميعنا» .

«محال أن أخلد إلى النوم الآن» تقول مالوري .

يبتسم توم متعبا .

«حسنا»

ينطلق إلى القبو . تلحق مالوري بالآخرين في غرفة الطعام . يعود توم وقد جلب معه خوخا .

«لم أكن لأظن يوما» ، يقول غاري ، «أن أكثر الأدوات قيمة في العالم هي فتاحة العلب» .

الجميع جالسون إلى طاولة غرفة الطعام . توم يمطر غاري بالأسئلة . كيف استطاع النجاة في الخارج؟ أين كان يبيت؟ من الواضح أن غاري منهك . يقول لهم إنه يود أن ينام . في نهاية المطاف ، واحدا تلو الآخر ، بداية بدُون ، يذهب الرفاق إلى غرفهم . وإذ يعود توم مع غاري إلى غرفة الجلوس ، تقوم مالوري وأوليمبيا من

الطاولة . وهما تصعدان الدرج ، تضع أوليمبيا يدها على يد مالوري .

«مالوري» ، تقول ، «أتمانعين لو نمت معك الليلة؟»

تلتفت مالوري إليها .

«كلا» ، تقول ، «لا أمانع أبدا» .

الفصل الثامن والعشرون

صبيحة اليوم التالي . تستيقظ مالوري وترتدي ثيابها . يبدو أن الجميع مجتمعون في الطابق السفلي .

«هل كان عندكم كهرباء أيضا؟» ، يسأله فيلكس إذ تدخل مالوري إلى غرفة الجلوس .

غاري جالس على الأريكة ، وإذ يرى مالوري ، يبتسم .

«هذا» ، يقول غاري ملوحا بيده تجاهها ، «هو الملاك الذي تحسس قسمات وجهي البارحة عندما دخلت . عليّ أن أعترف بأن لمسة الإنسان كادت تبكيني» .

تقول مالوري لنفسها إن غاري فيه شيء من الممثلين . تنميقات مسرحية .

«وهل حدد الاقتراع حقا مصيري؟» يسأل غاري .

«أجل» ، يقول توم .

يهز غاري برأسه .

«في المنزل الذي جئت منه ، لم تكن مظاهر التهذيب هذه متداولة بيننا . إن خطرت ببال أحدنا فكرة ، كان الآخرون يمضون معه فيها ، بحماسة غالبا ، سواء أوافقوه عليها أم لا . كم هو منعش أن يلتقي المرء بأناس حافظوا على شيء من دماثة عالمنا البائد» .

«لقد صوّتُ بِلا» يقول دون فجأة .

«حقا فعلت؟» يقول غاري .

«أجل ، فعلت . سبعة أشخاص تحت سقف واحد يكفون» .

«أفهم ذلك»

يقوم كلب هسكي ويتجه إلى غاري . يمسح غاري على الفرو خلف أذنيه .

يشرح له توم الأمور نفسها التي شرحها ذات مرة لمالوري . الكهرباء المائية . المؤن المخزنة في القبو . دليل الهاتف الذي لا يملكونه . كيف مات جورج . ثم بدأ جورج يتكلم عن رفيق له في السكن حيث كان . «رجل مضطرب» لم يكن يصدق بأن المخلوقات مؤذية .

«كان يعتقد أن ردود فعل الناس تجاهها ذات طبيعة بَدَنَفسية . بعبارة أخرى ، كل هذا الصخب المجنون لم تكن المخلوقات سببه على الإطلاق ، بل أولئك الناس المستثارون الذي يرونها» .

صخب مجنون ، تقول مالوري لنفسها . هل هاتان الكلمتان المستهزئتان هما حقا لرفيق غاري في السكن؟

أم هي كلمات غاري؟

«أود أن أخبركم عن تجربتي في منزلي السابق» ، يواصل غاري ، «لكني أحذركم ، إنها تجربة كئيبة»

مالوري تريد أن تسمع القصة . كلهم يريدون . يمرر غاري أصابعه في شعره ثم يبدأ .

«لم نجب على أي إعلان ولم نكن بمثل حداثة سنكم . لم تكن عندنا اهتمامات مشتركة ولم نعمل كفريق . كان لأخي دَنكِن صديق حمل تقرير روسيا على محمل الجد . كان من أول المؤمنين . فلقد وافق هذا نظريات المؤامرة التي كان يؤمن بها وشكَّه المرضي في أن الحكومة ، أو أن شخصا *ما* يجوس في الخارج ليقضي علينا جميعا . أنا نفسي لا زلت في بعض الأحيان لا أصدق أن الأمر

يحصل فعلا . ومن يلومني؟ لقد جاوزت الأربعين ، ولقد تعودت على الحياة التي كنت أحياها فلم أتخيل يوما حياة كحياتنا هذه . لقد قاومتها . لكن كيرك ، صديق أخي ، كان على يقين من الأمر منذ البداية . وبدا لنا أن لا شيء يستطيع أن يزحزحه عن يقينه . ذات مساء ، اتصل دنكن وأخبرني بأن كيرك يقترح أن نجتمع في منزله لبضعة أيام ، أو إلى أن نعرف أكثر عن هذا 'الأمر' .

'أي أمر؟' سألت

'غاري ، القصة على كل القنوات'

'أي أمر يا دنكن؟ الذي حصل في روسيا؟ هل حقا تعني ما تقول؟'

'بحقك' ، قال دنكن ، 'سنشرب بعض زجاجات الجعة ، ونأكل البيتزا ونجاريه ، هذا كل ما في الأمر . ليس ثمة ما تخسره'

قلت له لا شكرا ، فلم أعتبر أن التسكع مع كيرك المجنون بينما هو يطرح نظرياته المثيرة بمثابة تمضية وقت ممتع . لكني سرعان ما ذهبت .

سمعت التقارير كما سمعها كل من في البلاد . وبدأت تقلقني ، فلقد صارت كثيرة . لكني حاولت لغبائي أن أبقى على نكراني للأمر . هذه الأمور لا تحصل . ثم ما لبثت أن شاهدت تقريرا دفعني لأن أتحرك . أعني قصة الأختين في آلاسكا . قد تتساءلون ما جعلني أستغرق كل هذا الوقت حتى أقتنع . جاءت قصة آلاسكا متأخرة بعض الشيء ، هذا صحيح ، لكنها تقرير أمريكي وأنا ضيق الأفق بما يكفي لكي لا أقلق حتى يحصل الأمر بالقرب من بيتي . حتى المراسل الصحفي كان خائفا مما كان يقوله . أجل ، حتى الرجل الذي كان ينقل الخبر كان يفعل وهو يرتعد .

تعرفون القصة . شاهدت امرأة جارتيها العجوزين ، وهما أختان ، تغادران منزلهما ، وخمنت أنهما ذاهبتان للتمشي كعادتهما كل يوم . بعد ثلاث ساعات ، سمعت في الراديو أن الأختين أمام مستشفى ، جاثمتان على درج المدخل الحجري تهجمان عَلى المارة لتعضاهم . قادت المرأة سيارتها إلى المستشفى متخيلة أنها أقرب إلى الأختين من أي شخص آخر وقادرة بذلك على المساعدة . لكن الأمور جرت على غير ذلك ، وأظهرت صور السي أن المرأة وقد أزيل وجهها ، حرفيا ، على الرصيف ، قرب جمجمتها الغارقة في الدم . وأمامها العجوزان وقد أردتهما الشرطة قتيلتين . أرعبتني تلك الصورة . أولئك كانوا أناسا عاديين جدا ، من بيئة عادية جدا .

أكدت حادثة آلاسكا لكيرك كل خيالاته الذهانية . أما أنا ، ورغم خوفي المتزايد ، فلم أكن مستعدا لاستبدال الحياة التي أعرفها بهذه الحياة الجديدة شبه العسكرية التي راح يحياها . كنت مستعدا لأن أغطي النوافذ وأوصد الأبواب وأختبئ ، لكن كيرك كان منذ البداية يرسم الخطط ليقاتل ما كان يعتقده 'غزوا' - هل كان الغزاة في نظره مخلوقات فضائية أم لا ، هذا ما لم نكن نتبينه . وتحدث عن الأسلحة والمعدات والمسدسات كجندي مخضرم . وهو طبعا لم يكن كذلك ، فهو لم ينخرط في أي شيء طوال حياته .»

يتوقف غاري . يبدو عليه أنه يفكر .

«سرعان ما اكتظ المنزل بأشباه المحاربين . كان كيرك سعيدا بمنصب الجنرال الذي حل عليه ، وشاهدت الكثير من التهريج على الخطوط الجانبية . وجعلت دَيدَني تذكير دنكن بأن عليه أن يبقي مسافة بينه وبين كيرك ، فرجل مثله حري به أن يرسل أصدقائه إلى طريق الهلاك . وبدأ الرجال يميلون للمشاجرة أكثر فأكثر ، يثيرهم

حلم القضاء على الأشرار «الغزاة» . مرت أيام ولم يتحقق شيء من ادعاءاتهم الطنانة الصاخبة بأنهم سيحمون المدينة ويقطعون دابر من تسبب في هذا الجنون العالمي ويفتكون لأنفسهم مكانا في التاريخ بأنهم العصبة التي حلت 'المشكلة الكبرى' . ومع ذلك ، كان هنالك في المنزل رجل واحد عمل لأجل ما يؤمن به . كان اسمه فرانك ، وفرانك كان يؤمن بأن المخلوقات التي كان كيرك يتهيأ لها ما كانت خطيرة أبدا . لكنه جاء رغم ذلك إلى المنزل ، خائفا ، كما اعترف ،مما قد يكتسح البلاد من غياب حتمي لسلطة القانون .

بينما كان كيرك يخطط لتدريبات يومية عقيمة ، تحول فرانك إلى ما يشبه السجين ، لا يكاد يغادر غرفة نومه في الطابق الأول . وهناك ، راح يكتب . ليلا ونهارا راح فرانك يكتب بالأقلام وأقلام الرصاص واللباد وبالمكياج . ذات يوم ، بينما أنا في رواق الطابق العلوي ، سمعت صوتا خلف بابه المغلق . كان صوتا عنيفا ، غاضبا ، دؤوبا ، لا يتباطأ إيقاعه . دفعت الباب قليلا فرأيته منحنيا على مكتب يتمتم وهو يخربش عن مجتمع «وثني كثير التهويل» يثير اشمئزازه . لم يكن بإمكاني أن أعرف عمّ كان يكتب ، لكنني أردت أن أعرف .

كلمت دنكن في الأمر . كان وجه أخي مطليا بتنكر سخيف . في ذلك الوقت كان فعلا واقعا تحت تأثير هذيان كيرك . ولم يصدق بأن فرانك قد يكون خطرا علينا . فرانك الذي أطلق عبارات من قبيل *الهيستيريا الجماعية والوثنية* البدنفسية بينما كان كيرك والآخرون يلعبون تمثيلية الرماية ، بلا أسلحة ، في القبو . كان الجميع يعتبرون فرانك مجرد داعية للسلام لا جدوى منه» .

يمرر غاري يديه على شعره من جديد .

«عزمت على معرفة ما الذي كان فرانك يخطط له في تلك الغرفة . ورحت أتربص الفرصة لأقرأ كتاباته السرية .

ما الذي سيحدث برأيكم لرجل مجنون أصلا لو رأى المخلوقات التي تتجول في الخارج؟ أتعتقدون أنه سيكون منيعا عليها لأن عقله قد انكسر أصلا وانتهى الأمر؟ أم هل تظنون أن جنونه سيبلغ مستوى آخر ، أعلى؟ ربما المجانين هم من سيرثون العالم إذ لم يبق فيهم ما ينكسر غير ما كسر أصلا . أنا لا أعلم عن هذا أكثر منكم» .

يرتشف غاري من كأس ماء .

«جاءت فرصتي على النحو الآتي . كان كيرك والآخرون منشغلين في القبو ، وكان فرانك في الحمام ، فقررت أن أتسلل بسرعة . دخلت غرفته ووجدت كتاباته في درج المكتب . ولم يكن هذا بالأمر الهين فلقد كنت في ذلك الوقت أخاف من الرجل . ربما لم يلق الآخرون له بالا ، وسخروا منه ، لكنني خمَّنت أن فيه أوجها أكثر وحشية . بدأت أقرأ ، وسرعان ما غمرتني كلماته . مهما يكن فرانك بدأ الكتابة مبكرا ، بدا لي ضربا من المحال أن يكون كتب كل ذلك . عشرات من الدفاتر ، كلها بألوان مختلفة ، وكل دفتر منها أشد غضبا من سابقه . مثنويات صغيرة مكتوبة بأحرف متصلة تتبعها جمل مكتوبة بخط عملاق ومسطرة ، وكلها تعلن أن المخلوقات ليست هي من علينا أن نخشاها . وسمَّانا «أصحاب العقول الصغيرة» الذين «تجب إبادتهم» . كان خطيرا بالفعل . فجأة ، سمعته يقوم من المغطس في الحمام فأسرعت بالخروج من غرفته . لعل دنكن لم يخطئ باعتناقه أفكار كيرك ، فلقد بينت لي تلك الدفاتر أن ثمة ردات فعل تجاه العالم الجديد أسوأ بكثير من ردة فعله» .

يتنفس غاري بعمق . يمسح شفتيه بظهر يده .

«عندما استيقظنا في صباح اليوم التالي ، كانت الستائر قد أزيلت» .

تشهق شيريل .

«والأبواب فتحت»

يهم دون بقول شيء .

«وفرانك قد رحل ، وحمل معه الدفتر»

«اللعنة» ، يقول فيلكس .

يهز دون برأسه .

«هل أصيب أحد بأذى؟» يسأل توم .

تغرورق عينا غاري لكنه يتمالك نفسه .

«كلا» ، يقول ، «لا أحد . وهو الأمر الذي أنا متأكد من أن فرانك كان سيدونه في دفتره» .

تضع مالوري يدها على بطنها .

«لم غادرت؟» يسأل دون بنفاد صبر .

«غادرت» ، يقول غاري ، «لأن كيرك وآخرين تحدثوا طويلا عن مطاردة فرانك . أرادوا قتله لما فعله» .

يحل الصمت على الغرفة .

«عرفت عندئذ أن علي أن أغادر . فلقد صار الجو في ذلك المنزل فاسدا ، موبوءا . وليست تلك حال منزلكم على ما يبدو . ولأجل ذلك» ، يقول غاري وهو ينظر إلى مالوري ، «شكرا على إدخالي» .

«لست أنا من أدخلك» ، تقول مالوري ، «كلنا فعلنا»

أي رجل هذا ، تتساءل ، *الذي يترك أخاه وراءه؟*

تنظر إلى دون ، إلى شيريل ، إلى أوليمبيا . هل حببت غاري قِصَّتُه إلى من صوتوا بلا لدخوله؟ أم هل أكدت لهم مخاوفهم؟

صخب مجنون .

توم وفيلكس منهمكان بطرح الأسئلة على غاري بشأن قصته . جولز كذلك يدلي بدلوه . لكن شيريل قد غادرت الغرفة . أما دون ، وهو الذي ينتقد عادة كل شيء ، فهو لا يتكلم كثيرا الآن . يحدق وحسب .

الفُرقة ، تقول مالوري لنفسها ، *بدأت تنبث* .

لا يهمها متى بدأت بالضبط . لكنها الآن تُرى رأي العين . لقد أحضر غاري معه حقيبة ، وقصة . وأيضا ، بشكل ما ، فُرقةً وانقساما .

الفصل التاسع والعشرون

تستيقظ مالوري مغمضة العينين . لم يعد الأمر صعبا كما كان . تسترد وعيها . وتَرِدها الأصوات ، والحواس وروائح الحياة . والمناظر أيضا . مالوري تعلم أنه حتى عندما تكون عيناك مغمضتين ، فلا يزال ثمة نظر ورؤية . ترى الألوان الخوخية والصفراء ، وألوان أشعة الشمس البعيدة إذ تخترق البشرة . وعلى زوايا رؤيتها ثمة ألوان رمادية .

كأنها في الخارج . تشعر بالهواء باردا على وجهها . شفتاها متشققتان . حلقها جاف . متى كانت آخر مرة شربت فيها؟ تشعر بأن جسدها بخير . مرتاح . ثمة خفقان فاتر يأتيها من مكان ما على يسار رقبتها . كتفها . ترفع يدها اليمنى إلى جبينها . وإذ تلمس أصابعها وجهها ، تدرك أنها متسخة ومبللة . في الواقع ، هي تشعر بظهرها كله مبللا ، فقميصها مخضل بالماء .

يصدح طائر بصوته فوق رأسها ، فتلتفت إليه وعيناها مغمضتان .

الطفلان يتنفسان بصعوبة . كأنهما يعملان على شيء ما .

هل هما يرسمان؟ يبنيان؟ يلعبان؟

تعتدل مالوري في جلستها .

«يا صبي؟»

الفكرة الأولى التي تخطر لها تبدو لها مزحة . ضربا من المحال . خطأً . لكنها تدرك بعد ذلك أن هذا هو ما يحصل بالضبط .

هما يتنفسان بصعوبة لأنهما يجذفان .

«يا صبي!» تصرخ مالوري . وصوتها يرن رنينا سيئا . كما لو أن حلقها قد صنع من خشب .

«ماما!»

«ما الأمر؟!»

القارب . القارب . القارب . أنت على النهر . لقد غبت عن الوعي . لقد غبت عن الوعي .

تسند كتفها الضعيفة على حافة القارب وتغرف بيدها غَرفة ماء وتحملها إلى فمها . ثم تجثو على ركبتيها وتحفن حفنات الماء بلا توقف . تجد صعوبة في التنفس ، لكن الألوان الرمادية اختفت ، وجسدها بحال أفضل .

تلتفت إلى الطفلين .

«كم من *الوقت*؟ كم من *الوقت*؟»

«لقد غفوتِ يا ماما» ، تقول البنت .

«وراودتك أحلام مزعجة» ، يقول الصبي .

«كنت تبكين»

يعمل عقل مالوري بسرعة . هل فاتها أي شيء؟

«كم من *الوقت*؟» تصرخ من جديد .

«ليس لوقت طويل» ، يقول الصبي .

«هل أعينكما معصوبة؟ تكلما!»

«أجل» ، يقولان .

«لقد علق القارب» ، تقول البنت .

يا إلهي ، تقول لنفسها مالوري .

ثم تهدئ من روعها بما يكفي لتسأل ، «كيف استطعنا أن نتحرر؟»

تجد جسد الفتاة الصغير . تتبع ذراعها حتى يديها . ثم تمد يدها في القارب وتتحسس جسد الصبي .

كل منهما يمسك بمجذاف . الطفلان يجذفان معا .

«نحن من فعل ذلك يا ماما!» ، تقول البنت .

مالوري على ركبتيها ، وتدرك أن رائحتها منتنة . مثل حانة . مثل حمام .

مثل القيء .

«نحن من حرر القارب» ، يقول الصبي .

مالوري الآن إلى جانبه . يدها المرتعدة على يده .

«لقد جُرحت» ، تقول بصوت عال .

«ماذا؟» ، يسأل الصبي .

«أريد منكما إلى أن تعودا إلى حيث كنتما قبل أن تغفو ماما . فورا»

يكف الطفلان عن التجذيف . تلتصق البنت بها وهي تعود إلى المقعد الخلفي ، فتساعدها مالوري .

ثم هي ذي مالوري جالسة في وسط القارب من جديد .

كتفها تخفق لكن الأمر لم يعد بالسوء نفسه . كانت بحاجة لقسط من الراحة . لم تمنحه لجسدها ، فأخذه جسدها بنفسه .

في ضباب عقلها المستيقظ ، تشعر مالوري أكثر فأكثر بالبرد والخوف . ماذا لو تكرر الأمر؟

هل جاوزوا الموضع الذي هم متوجهون إليه؟

والمجذافان في يديها ، تتنفس مالوري نفسا عميقا قبل أن تبدأ التجذيف .

وإذ بها تبكي . تبكي لأنها غابت عن الوعي . تبكي لأنها ذئبا

هاجمها . تبكي لأسباب أكثر من أن تحصيها أو تعدها . لكنها تعلم أن من بين هذه الأسباب اكتشافها أن الطفلين قادران على النجاة ، ولو للحظة ، بمفردهما .

لقد أحسنت تدريبهما ، تقول لنفسها . وتملؤها الفكرة ، على بشاعتها في غالب الأحيان ، فخرا .

«يا صبي» ، تقول في خضم دموعها ، «أريدك أن ترهف سمعك من جديد ، فهمت؟»

«أنا أستمع يا ماما!»

«وأنت يا بنت ، أريدك أنت أيضا أن تفعلي»

«أنا أيضا أستمع!»

هل يمكن ، تقول مالوري لنفسها ، *أن نكون بخير؟ هل يمكن أن تغيبي عن الوعي ثم تفيقي ويبقى كل شيء بخير وعلى ما يرام؟*

لا يبدو الأمر ممكنا . فهذا لا يتفق وقواعد العالم الجديد . ثمة شيء ما في الخارج ومعهم على النهر . مجانين . وحوش . مخلوقات . كم من النوم بعدُ كان سيغريهم على طول الطريق إلى القارب؟

لحسن حظها ، هي ذي تجذف من جديد . لكن ما يتربص بهم يبدو أقرب الآن .

«أنا آسفة جدا» ، تقول وهي تبكي وتجذف .

ساقاها مخضلتان بالبول والماء والدم والقيء . لكن التعب زال عن جسدها . بشكل ما ، تقول مالوري لنفسها ، رغم هذا العالم الذي لا يرحم وقوانينه القاسية ، لقد مُنحت فرصة لتلتقط أنفاسها .

لا يدوم الشعور بالراحة أكثر من ضربة مجذاف واحدة ، ثم إذا مالوري متيقظةً ، خائفة ، من جديد .

الفصل الثلاثون

شيريل منزعجة .

تسمعها مالوري تتحدث مع فيلكس في الغرفة في آخر الرواق . الرفاق الآخرون في الطابق الأرضي . صار غاري ينام في غرفة الطعام ، رغم أن أرضها من الخشب الصلب . منذ وصوله ، قبل أسبوعين ، تقرب دون منه كثيرا . مالوري لا تعلم ما هو شعورها حيال ذلك . ربما هو مع غاري الآن .

لكن في آخر الرواق ، شيريل تهمس بسرعة . تبدو خائفة . وكأن الجميع خائفون كذلك . أكثر من عادتهم . في المنزل ، المناخ الذي كان توم يبقيه مشرقا بتفاؤله ، يزداد تلبدا وكآبة يوما بعد يوم . في بعض الأحيان ، تقول مالوري لنفسها ، تشحن الأجواء بما هو أكثر من الخوف . هكذا يرن صوت شيريل الآن . تفكر مالوري بالانضمام إليهما ، لعلها تواسي شيريل ، لكنها تعدل عن ذلك .

«هو أمر أفعله كل يوم يا فيلكس ، لأنني أحب أن أفعله . هذا عملي . والدقائق اليسيرة التي أخرج فيها مهمة عندي . إنها تذكرني بأنه كان لي في ما مضى عمل بحق . عمل أنهض لأجله في الصباح . عمل أفخر به . إطعام الطيور هو كل ما أملك لأبقى مرتبطة بالحياة التي كنت أحياها قبل كل هذا» .

«ويمنحك فرصة الخروج»

«ويمنحني فرصة الخروج ، أجل»

تحاول شيريل أن تتحكم بنبرة صوتها ، ثم تواصل .

هي الآن في الخارج ، تقول لفيلكس ، مستعدة لإطعام الطيور . تتحسس الجدران بحثا عن الصندوق . في يدها اليمنى شرائح تفاح من علبة في القبو . لقد أغلق الباب خلفها ، وجولز ينتظر في الداخل . معصوبة العينين تسير شيريل ببطء ، متكئة على جدار المنزل لتحافظ على توازنها . الآجر خشن على أصابعها . عما قليل ستحل محله ألواح زينة خشبية تبرز منها علاّقة معدنية . هناك علق صندوق الطير .

الطيور تهدل . هي دائما تفعل عندما تقترب منها إلى هذا الحد . لقد تطوعت شيريل بحماس لإطعام الطيور عندما طرحت مسألة إنجاز هذه المهمة ، وصارت تؤديها كل يوم منذ تلك اللحظة . وكأن الطيور ، بشكل ما ، هي طيورها . تكلمها ، وتخبرها بكل ما يحدث في المنزل من أحداث يومية . وجوابها العذب يهدئ شيريل كما كانت تفعل الموسيقى . ويمكنها أن تقدر المسافة بينها وبين الصندوق ، تقول لفيلكس ، بمدى ارتفاع صوت الطيور .

لكنها هذه المرة تسمع صوتا آخر مع الهديل .

من طرف سقيفة المدخل ، تسمع «خطوة متروكة» . إنها العبارة الوحيدة التي تجدها لتصف بها الأمر لفيلكس . كأن أحدهم كان يمشي ، وكان يريد أن يتقدم أكثر ، ثم إذ به يتوقف .

تندهش شيريل ، وهي المتيقظة دائما إلى أقصى حد عندما تطعم الطيور ، إذ تدرك أنها ترتعد .

تقول ، «هل من أحد هنا؟»

لا إجابة .

تفكر بالعودة إلى الباب . ستقول للآخرين أنها اليوم خائفة ولا تريد أن تنجز الأمر .

وبدلا من ذلك ، تنتظر .
ولا تسمع أي صوت .
الطيور داخل الصندوق لا تهدأ . تناديها بعصبية .
«هيا هيا ، يا رفاق ، هيا هيا»
الرجفة في صوتها تخيفها . بحركة غريزية ، تخفض رأسها وترفع اليد التي تحمل التفاح لتحمي بها نفسها ، كما لو أن شيئا ما على وشك أن يلمس وجهها . تتقدم خطوة . ثم أخرى . أخيرا تصل إلى الصندوق . أحيانا ، تقول لفيلكس ، المسيرة بين الباب والصندوق أشبه بالسباحة في الفضاء الخارجي . بلا مِرساة .
هي اليوم تشعر بنفسها بعيدة عن الأرض بعدا لا يحتمل .
«هيا هيا» ، تقول وهي تفتح غطاء الصندوق بما يكفي فقط لتلقي بعض شرائح التفاح . في العادة ، تسمع طقطقة أرجلها الصغيرة عندما تندفع إلى الطعام . لكنها اليوم لا تسمعها .
«هيا إلى الطعام يا رفاق ، ألستم جياعا؟»
تفتح الغطاء قليلا بعد وتلقي بما بقي من القطع داخل الصندوق . هذه ، تقول لفيلكس ، هي المرحلة المفضلة عندها . عندما تغلق الغطاء وتضع أذنها على الصندوق لتنصت إلى أجسادها الصغيرة وهي تأكل .
لكنها لا تأكل ، وبدلا من ذلك تهدل هديلا قلِقاً .
«هيا هيا» ، تقول شيريل وتحاول أن تنفض عن صوتها تلك الرجفة . «كلوا يا رفاق» .
ترفع أذنها عن الصندوق ، فلعل وجودها قد أخجل الطيور اليوم . وإذ تفعل ذلك ، تصرخ .
شيء ما قد لمس كتفها .

وهي تدور ، ودون أن ترى شيئا ، تلوح شيريل بذراعها بوحشية ، ولا تلمس شيئا .

تعجز عن تحريك ساقيها . عن الهرب إلى داخل المنزل . شيء ما قد لمس كتفها وهي لا تعلم ما هو .

لم تعد أصوات الطيور ترن عذبة في أذنها ، بل كما أراد لها توم أن تكون .

جهاز إنذار .

«من هناك؟»

تخشى أن يجيبها أحد . هي لا تريد أن يجيبها أحد .

تقرر أن تصيح . يمكن لأحد الرفاق أن يأتي ليحضرها . ليعيدها إلى سطح الأرض . لكنها تسمع ، إذ تخطو خطوة ، ورقة شجر تسحق تحت قدمها . باضطراب ، تحاول أن تتذكر يوم وصولها أول مرة إلى المنزل . لقد نظرت إليه من نافذة سيارتها . هل كانت ثمة شجرة؟ هنا عند المدخل؟

هل كانت ثمة شجرة؟

ربما كانت الورقة هي التي لمستها .

سيكون من السهل أن تعرف . لو أنها تفتح عينيها للحظة فقط فسترى أنها بمفردها . سترى أنه فقط ورقة شجر ، ولا شيء آخر .

لكنها لا تستطيع .

وهي ترتجف ، تسند ظهرها إلى المنزل وتنزلق ببطء إلى باب المنزل . رأسها يدور يسارا ثم يمينا مع أخفت صوت . طائر في السماء البعيدة . الحفيف في شجرة على الجانب الآخر من الشارع . هبة ريح دافئة . وهي تتصبب عرقا ، تشعر أخيرا بملمس الآجر فتصل بسرعة إلى الباب .

«يا إلهي» ، يقول فيلكس ، «أتعتقدين حقا أنها قد تكون ورقة شجر؟»

تتريث قبل أن تجيب . وتتقدم مالوري أكثر ناحية الرواق .

«أجل» ، تقول شيريل فجأة . «أعتقد ذلك . عندما أستعيد في ذهني ما حدث ، أعتقد الآن أن ذلك هو ما حدث بالضبط»

تتراجع مالوري إلى الغرفة وتجلس على السرير .

قصة فيلكس عن البئر وما سمعه هناك . نباح فيكتور على النوافذ المغطاة . شيريل والطيور .

أيعقل ، تتساءل مالوري ، أن العالمَ خارج المنزل والأشياءَ التي هم مختبئون منها بدأت تقترب منهم؟

الفصل الحادي والثلاثون

بالنسبة لمالوري ، منذ وصول غاري ، صار المنزل يبدو مختلفا اختلافا جذريا . صار يبدو منقسما . التبدل طفيف ، لكن في ظل ظروف كهذه ، كل تبدل يعتبر تحولا كبيرا .

ودون هو من يخيفها أكثر من أي شيء آخر .

في أغلب الأحيان ، عندما يكون توم وجولز وفيلكس يتحدثون في غرفة الجلوس ، تجد دون في غرفة الطعام مع غاري . لقد أبدى اهتماما كبيرا بقصة الرجل الذي أزال الستائر وفتح الأبواب . وبينما هي تغسل الملابس في مغطس المطبخ ، وقد انتصفت قارورة المنظف ما قبل الأخيرة ، تستمع مالوري لحديثين في الوقت نفسه . بينما توم وجولز يحولان قمصانا طويلة الأكمام إلى أزِمّة للكلاب ، غاري يشرح لدون كيف كان يفكر فرانك . دائما كيف كان يفكر فرانك ، وليس كيف يفكر غاري نفسه .

«لا أعتقد أن المسألة مسألة رجل مستعد أكثر من رجل آخر» ، يقول غاري ، «أعتقد أن الأمر أشبه بفيلم ثلاثي الأبعاد . في البداية ، يحسب المشاهدون أن الأشياء قادمة إليهم فعلا . يرفعون أيديهم ليحموا أنفسهم . لكن الأذكياء منهم ، أولئك الواعون حقا ، يعلمون أنهم بأمان منذ البداية» .

لقد أغلق دون وغاري الدائرة وناقشا كل شيء . مالوري تظن أنها تعرف متى حصل ذلك .

حسنا ، أنا لا أعتقد أن هذه النظرية أكثر جنونا من نظريتنا نحن ، قال له دون ذات مرة .

«الأمر صعب» ، يقول دون الآن ، «لأنه لم تعد تردنا أخبار جديدة»

«بالضبط»

نعم ، لقد انتقل دون من التصويت بلا لإدخال غاري إلى كونه الوحيد من بين الرفاق الذي يجلس إليه ويتكلم . ويتكلم . ويتكلم .

هو *كثير التشكك ، تقول مالوري لنفسها ، هذه طبيعته . وهو بحاجة لمن يتكلم معه . هذا كل ما في الأمر . هو مختلف عنك . ألا تفهمين؟*

لكن هذه الأفكار لا تمد جذورها كثيرا في ذهنها . فمهما تنظرْ إلى الأمر ، يبقى أن غاري ودون يتحدثان عن أمور مثل الهيستيريا وعن فكرة أن المخلوقات لا يمكنها أن تؤذي من استعد لرؤيتها . هي تعلم أن دون لطالما كان يخاف من الإنسان أكثر من المخلوقات ، لكنه يغمض عينيه عندما يفتح باب المنزل ويغلق ، ولا ينظر من النافذة . هو لم يلزم أبدا نفسه بفكرة أن المخلوقات لا يمكنها إيذاؤنا . هل استطاع شخص مثل غاري أن يقنعه بذلك أخيرا؟

ترغب في أن تحدث توم بالأمر . تريد أن تختلي به وتسأله أن يوقفهما . أو على الأقل أن يكلمهما . لعل كلماته ستغير مسار حديثهما ، وتجعل وقعه مطمئنا أكثر .

أجل ، هي تريد أن تكلم توم بشأن دون .

الانقسام .

خائفة ، تعبر المطبخ وتلقي نظرة على غرفة الجلوس . توم وجولز يقرآن خريطة على الأرض . يقيسان المسافات باستعمال سلم

الخريطة .جولز يعلم الكلب كيف يؤدي بعض المهام .

توقف . *ابدأ من جديد* .

«علينا أن نقيس طول متوسط خطواتك» ، يقول فيلكس .

«ما الذي تخططون له يا رفاق؟» تسأل مالوري .

يلتفت توم إليها .

«المسافة» ، يقول ، «كم خطوة من خطواتي في ميل واحد» .

يضع فيلكس شريط القياس على قدم توم .

«إن استمعت للموسيقى وأنا أمشي» ، يقول توم ، «فسيمكنني أن أمشي بإيقاع معين . هكذا ستكون الخطوات التي نقيسها هنا قريبة من تلك التي سأخطوها في الخارج» .

«مثل الرقص» ، يقول فيلكس .

تلتفت مالوري لترى أوليمبيا عند مغطس المطبخ ، تغسل الأواني . تلحق بها مالوري وتستأنف غسل الملابس . بعد أربعة أشهر أمضتها حبيسة المنزل ، فقدت أوليمبيا شيئا من بريقها . بشرتها شاحبة ، وعيناها غائرتان في محجريهما .

«هل أنت قلقة؟» تقول أوليمبيا فجأة .

«بشأن ماذا؟»

«بشأن نجاحنا»

«نجاحنا في ماذا؟»

«في أن ننجو بعد أن نضع مولودينا»

مالوري تريد أن تقول لأوليمبيا أن كل شيء سيكون على ما يرام لكنها تجد صعوبة في العثور على الكلمات . دون يشغل تفكيرها .

«لطالما أردت طفلا» ، تقول أوليمبيا ، «اجتاحتني حماسة عارمة

عندما عرفت أنني حبلى . شعرت بأن حياتي قد اكتملت . هل تفهمين ما أشعر به؟»

لم يكن هذا هو ما أحست به مالوري لكنها قالت أجل .

«أوه يا مالوري ، من الذي سيولد طفلينا؟»

مالوري لا تدري .

«رفاقنا ، لا أرى - «

«لكن توم لم يفعلها أبدا من قبل!»

«كلا ، لكنه كان أباً في ما مضى»

تتفرس أوليمبيا في يديها الغارقتين في الدلو .

«أتعلمين» ، تقول مالوري هازلة ، «ستولد إحدانا الأخرى»

«تولد إحدانا الأخرى!» ، تقول أوليمبيا وهي تبتسم أخيرا ، «كم تبالغين يا مالوري!» .

يدخل غاري إلى المطبخ . يملأ كأسا من الدلو على المنضدة . ثم أخرى . مالوري تعلم أنها لدون . وإذ يخرج ، تنبعث الموسيقى من غرفة الجلوس . تميل مالوري إلى الأمام حتى ترى ما يحدث فيها . توم يمسك بجهاز الراديو الصغير وفيه شريط كان في ما مضى لجورج . فيلكس ، جاثيا على ركبتيه ويديه ، يقيس خطوات توم بينما هو يمشي على إيقاع الأغنية .

«ما الذي يفعلونه؟» تسأل أوليمبيا .

«أظن أنهم يفكرون في الذهاب إلى مكان محدد» ، تقول مالوري ، «و هو يعملون على إيجاد أفضل الطرق الممكنة للتنقل خارج المنزل» .

تتقدم مالوري بهدوء إلى مدخل غرفة الطعام ، فتبصر غاري ودون ، موليين ظهريهما لها ، جالسين على كرسيين ، يتكلمان بهدوء .

تعبر المطبخ من جديد . تدخل غرفة الجلوس فتجد توم مبتسما . بكلتا يديه زمام والكلبان يلعبان بهما ويهزان بذيليهما .

الفرق بين ما يؤديه من في غرفة الجلوس من أعمال ذكية تقدمية وبين نبرة من في غرفة الطعام التآمرية الهامسة هي كل ما بوسع مالوري أن تفكر فيه .

تتجه إلى المغطس من جديد وتستأنف الغسل . أوليمبيا تتكلم لكن ذهن مالوري مشغول بشيء آخر . تميل إلى الأمام فتبصر كتف غاري . أمامه ، مسندا إلى الجدار ، الشيء الوحيد الذي جلبه معه من العالم الخارجي .

محفظته .

لقد أراهم ما فيها عندما دخل إلى المنزل . طلب دون منه أن يفعل . لكن هل أمعنت النظر جيدا؟ هل فعل أي من الرفاق؟

«توقف!» يقول توم . تلتفت توم فتبصره والكلبين عن مدخل المطبخ . يجلس الكلبان ، ويكافئهما توم بلحم نيء .

تتابع مالوري الغسل وهي تفكر بالمحفظة .

الفصل الثاني والثلاثون

كان تتوقع حدوث هذا . وكيف لا؟ كل النذر اجتمعت منذ أن عادا إلى المنزل مع الكلبين . ومنذئذ راح توم وجولز يدربانهما عشرة ساعات ، بل اثنتي عشرة ساعة في اليوم . في المنزل ، ثم في الفناء . كلبان مبصران . صندوق الطيور المعلق يعمل بمثابة جهاز إنذار . تماما مثلما قال توم إنه سيعمل . لقد هدلت الطيور عندما وصل غاري . وهي تغني عندما تطعمها شيريل . لأجل ذلك ، لم تكن إلا مسألة وقت قبل أن يعلن توم إنه سيستخدم الكلبين المبصرين ليدخل إلى العالم الجديد مرة أخرى .

لكن الأمر هذه المرة أسوأ ، لأنه هذه المرة ينوي أن يبتعد أكثر .

لقد غابا ليومين وقد كانا على بعد شارع . متى سنراهما من جديد إن ابتعدا ثلاثة أميال؟

ثلاثة أميال . هي المسافة التي يبعدها منزل توم . وهو إلى هناك يريد أن يذهب .

«إنه المكان الوحيد الذي أأتمنه بشكل كامل» ، يقول توم ، «لدي مؤن هناك ونحن بحاجة لها . ضمادات وأدوية .»

ترتفع معنويات مالوري عند ذكر الأدوية ، لكن خروج توم من المنزل ، ولمدة طويلة ، هو أكثر مما تستطيع احتماله .

«لا تخشي شيئا» ، قال فيلكس في تلك الليلة ، «لقد رسمنا المسار على شكل حرف T . سيمشي توم وجولز على إيقاع أغنية . أغنية واحدة . عنوانها «نصف الطريق إلى الجنة» يغنيها شخص

اسمه توني لايت . سيحملان معهما جهاز الكاسيت ويشغلانه بلا توقف وهما يتبعان التوجيهات التي وضعناها . نحن نعرف كم عدد الخطوات التي يجب قطعها في كل اتجاه ، وفي كل مرحلة .»

«وإذا أنتما تنويان أن ترقصا في الخارج؟» قال غاري ، «ما أجمل هذا!»

«لسنا ذاهبَين لنرقص» ، قال توم بغضب ، «بل سنمشي لنحضر المساعدة» .

«توم» ، قالت شيريل ، «يمكنكما أن تتدربا على هذا كما تشاءان ، لكن إن كانت خطواتك هناك في الخارج أطول قليلا أو أقصر قليلا ، فستذهبان . ستتوهان . وكيف بحق الجحيم ستعودان عندئذ؟ لن تعودا .»

«بل سنعود» ، قال توم .

«ولن تعوزنا الحيلة حتى وإن ضللنا طريقنا» ، أردف جولز ، «نحن بحاجة للمؤن . تعلمين ذلك حق العلم يا شيريل ، فأنت آخر من قام بجرد القبو»

أجل ، هذا اليوم يقترب ، لكن مالوري لا يعجبها هذا أبدا .

«توم» ، قالت ، وهي تنتحي به جانبا قبل أن يغادر هو وجولز هذا الصباح بقليل ، «لا أظن أن المنزل سيصمد إن لم تعودا» .

«سنعود»

«أفهم أن هذا هو ما تعتقده» ، قالت مالوري ، «لكني لا أظنك تدرك كم هذا المنزل بحاجة لك» .

«مالوري» ، قال لها بينما جولز يناديه ليخبره أنه جاهز للانطلاق ، «المنزل بحاجة لنا جميعا» .

«توم» .

«لا تدعي العصبية تتمكن منك كما فَعلَت آخر مرة ، وبدلا من ذلك ، تشبثي بفكرة أننا قد عدنا في المرة السابقة . سنعيد الكرة . وهذه المرة يا مالوري ، تصرفي باعتبارك قائدة لهم . ساعديهم عندما يتمكن منهم الخوف»

«توم»

«أنت بحاجة للدواء يا مالوري . بحاجة للتعقيم . لقد اقترب موعد وضعك»

كان واضحا أن توم قد سلك طريقا شقها لنفسها ، مستعدا للمخاطرة بحياته في سبيل تحسين ظروف الحياة في هذا المنزل .

في المرة السابقة عادا بأحذية للأطفال ، ذكرت نفسها .

وهي تذكر نفسها بذلك الآن . الآن وقد غادر توم وجولز ليخوضا غمار مسيرة ثلاثة أميال في أخطر ظروف عرفها العالم .

غادرا هذا الصباح . راجع فيلكس الخريطة معهما مرة أخرى . غاري شجعهما . منحتهما أوليمبيا حجر بيتوفسكي[1] قالت إنه كان دائما يجلب لها الحظ . لكن مالوري لم تنبس بكلمة . وعندما أغلق باب المنزل على توم للمرة الثانية ، لم تناده مالوري . لم تعانقه . لم تودعه .

وهذا يحزنها الآن . بعد ساعات فقط من خروجهما .

لكن الكلمات القليلة التي قالها لها توم قبل مغادرته تفعل فعلها . في غيابه ، المنزل بحاجة إلى قوة هادية . شخص يمكنه أن

---

(١) حجر بيتوفسكي هو حجر كلسي أملس . سمي الحجر باسم زعيم «هندي» من قبيلة أوتاوا . حجر بيتوفسكي هو الحجر الرسمي لولاية ميتشيغان منذ سنة ١٩٦٥ . [المترجم]

يحافظ على هدوئه وسط كل هذا التوتر والخوف المبررين .

لكنه ليس بالأمر الهين ، فالرفاق ليسوا بمزاج متفائل .

شيريل تشير إلى أن احتمال لقائهما بمخلوق من تلك المخلوقات أكبر في مسيرة ثلاثة أميال منه في جولة ضمن نطاق شارعين . تذكر من لا يزالون في المنزل أنه لا أحد يعلم كيف تتأثر الحيوانات . ما الذي سيحصل لتوم وجولز إن رأى الكلبان شيئا هذه المرة؟ هل سيصبحان طعاما للكلبين؟ أم أن ما سيحصل لهما سيكون أسوأ من ذلك؟

شيريل ليست الوحيدة التي تفكر في الاحتمالات الكئيبة .

دون يقترح أن يستعد فريق آخر للخروج إن لم يرجع توم وجولز . نحنا بحاجة لغذاء أكثر ، يقول . سواء أرجعا أم لم يرجعا .

تقول أوليمبيا إن رأسها يؤلمها . تقول إن هذا يعني أن عاصفة هوجاء ستهب . والعاصفة ستبدل قياسات فيلكس لا محالة عندما سيضطر توم وجولز إلى إيجاد ملجأ يحتميان فيه .

توافقها شيريل .

يتجه دون إلى القبو ليلقي «نظرته الخاصة» على المخزون ، ليعرف على وجه الدقة ما الذي يحتاجونه وإلى أين عليه أن يذهب ليحضره .

أوليمبيا تتحدث عن البرق وعن بقاء المرء في العراء مكشوفا .

شيريل تتجادل مع فيلكس بشأن الخريطة . تقول إن الخرائط لم يعد لها من معنى .

دون يتحدث عن إجراءات تتعلق بالمبيت .

أوليمبيا تصف إعصارا شهدته في صباها .

شيريل وفيلكس يحتدان .

أوليمبيا تبدو وكأن الهستيريا استبدت بها .

الغضب يستبد بدون .

وقد سئمت من هذا الهلع المتزايد ، تتكلم مالوري أخيرا .

«اسمعوني جميعا» ، تقول ، «ثمة مهام يفترض فينا أن ننجزها . هنا في هذا المنزل . علينا أن نحضر العشاء . دلو الفضلات لم يخرج طوال اليوم . القبو يمكن ترتيبه بشكل أفضل . فيلكس ، يمكننا أنا وأنت أن نبحث في الفناء لعلنا نجد أدوات لم ننتبه لها . شيريل ، عليك أن تطعمي الطيور . غاري ، دون ، لم لا تجريان اتصالات هاتفية . اتصلا بكل الأرقام الممكنة . من يدري فقد يرد عليكما أحد . أوليمبيا ، لو تغسلين فُرش الأسرة ، سيكون ذلك مفيدا جدا لنا . لقد غسلناها قبل أسبوع فقط ، لكن بما أننا لا نغتسل كثيرا هنا ، فالأشياء البسيطة كالملاحف والشراشف النظيفة ، هي التي تعيننا على التحمل .»

ينظر الرفاق إلى مالوري كما لو أنهم لا يعرفونها . للحظة ، تشعر بالحرج لأنها تقدمت وأثبتت وجودها ، لكن الأمر ينجح بعد ذلك .

بهدوء ينطلق غاري إلى الهاتف . تتجه شيريل إلى باب القبو .

موعد وضعك قد اقترب ، قال لها توم قبل أن يغادر .

تفكر في ذلك بينما يشغل الرفاق أنفسهم بالمهام التي أوكلت لهم ، وإذ يذهب فيلكس ومالوري لإحضار عصابتيهما ، تفكر مالوري في الأشياء التي قد يجلبها معهما توم وجولز . أما من شيء قد يجلبانه ، أي شيء ، يجعل حياة طفلها أسهل وأحسن؟

تلتقط مالوري عصابتها وتأمل .

الفصل الثالث والثلاثون

سينقسم النهر إلى أربع قنوات ، قال لها الرجل . القناة التي تعنيك هي الثانية من اليمين ، فلا يمكنك إذاً أن تلزمي الضفة اليمنى وتنتظري . الأمر أعقد من ذلك . وسيكون عليك أن تفتحي عينيك .

مالوري تجذف .

وهكذا ستعرفين أن الوقت قد حان ، قال لها الرجل . ستسمعين تسجيلا . صوتا . لا يمكننا أن نلزم النهر طول اليوم . الأمر خطير جدا . بدلا من ذلك ، وضعنا مكبرا للصوت هناك . سيُشغَّل التسجيل بلا انقطاع . ستسمعينه ، فصوته عال وواضح . وعندما تسمعينه ، فتلك هي اللحظة التي سيكون عليك أن تفتحي فيها عينيك .

الألم في كتفها يروح ويجيء كالموج . يسمعها الطفلان تتأوه فيعرضان عليها المساعدة .

خلال سنتها الأولى مع الطفلين ، كان صوت توم يأتيها باستمرار . كثير من أفكاره ظلت مجرد أفكار ، أفصح عنها ولم ينجزها أبدا . ولقد حاولت مالوري ، وهي التي لم تكن تملك إلا الوقت ، أن تنفذ عددا منها .

علينا أن نضع ميكروفونات في الفناء ، قال لها ذات مرة .

تلك هي فكرة توم المتمثلة في تحديث جهاز الإنذار من الطيور إلى مكبرات الصوت .

وإذ بقيت بمفردها مع الوليدين ، أرادت مالوري تلك المايكروفونات بشدة .

ولكن كيف؟ كيف ستحصل على الميكروفونات ومكبرات الصوت والأسلاك؟

يمكننا أن نذهب بالسيارة إلى مكان ما ، قال توم ذات مرة .

هذا جنون ، أجابه دون .

كلا . نقود ببطء . الشوارع خالية . ما هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟

وهي تجذف ، تتذكر مالوري لحظة حاسمة أمام مرآة الحمام . رأت وجوها أخرى على صفحة المرآة . أوليمبيا . توم . شانون . كلهم يهيبون بها أن تغادر المنزل ، أن تفعل أكثر مما فعلته من أجل سلامة الطفلين في المستقبل . وكانت ستجبر على ركوب الخطر بمفردها ، فلم يكن توم وجولز هنا ليحملا ذلك عنها .

صوت توم آنذاك . صوت توم دائما . في رأسها . في الغرفة . في المرآة .

ركبي مِصَدًا حول شاحنة شيريل . اطلي النوافذ بالأسود . لا تهتمي بما قد تصدمينه . فقط سيري . قودي بسرعة خمسة ، ستة أميال في الساعة . معك رضيعان في المنزل الآن يا مالوري . يجب أن تعرفي إن كان شيء ما في الخارج . إن اقترب من المنزل . ستخبرك الميكروفونات بذلك .

غادرت الحمام إلى المطبخ ، وهناك أكبت على الخريطة التي استخدمها توم وجولز وفيلكس لرسم الطريق إلى منزل توم مشيا . ملاحظاتهم لا تزال عليها . وحسابات فيلكس . باستخدام السلم ، أجرت مالوري حساباتها بنفسها .

أرادت الحصول على نظام الإنذار المتقدم الذي حدثها عنها توم . كانت بحاجة له . لكنها رغم العزيمة التي اكتشفتها في نفسها ، كانت لا تزال تعرف إلى أين تذهب .

في وقت متأخر من إحدى الليالي ، وبينما كان الطفلان ينامان ، جلست إلى طاولة المطبخ وحاولت أن تتذكر المرة الأولى التي قادت فيها السيارة إلى المنزل . حصل ذلك قبل سنة . آنئذ ، كان ذهنها مشدودا إلى العنوان المذكور في الإعلان . لكن ، بِمَ مرت في طريقها؟

حاولت أن تتذكر .

مغسلة للملابس .

هذا حسن . ماذا أيضا؟

كانت واجهات المحلات فارغة . بدت المدينة كأنها مدينة أشباح وكنت تخشين أن تكتشفي أن من نشروا الإعلان لم يعودوا هناك . ظننت أنهم إما جنوا أو حزموا أمتعتهم وسافروا بعيدا بالسيارة .

نعم ، حسنا . وماذا أيضا؟

مخبزة .

أحسنت . ماذا أيضا؟

ماذا أيضا؟

أجل .

حانة .

أحسنت . وماذا كان السرادق يُشهِر؟

لا أعلم . يا له من سؤال سخيف!

لا تتذكرين الحزن الذي شعرت به عندما قرأت اسم . . . اسم . . .

اسم ماذا؟
اسم الفرقة الموسيقية؟
الفرقة الموسيقية؟
لن أتذكر أبدا اسم الفرقة الموسيقية .
حسنا ، وشعورك وقتها؟
لا أتذكر .
بلى تتذكرين . شعورك .
كنت حزينة . كنت خائفة .
ماذا فعلوا هناك؟
ماذا؟
في الحانة؟ ما الذي فعلوه؟
لا أدري . شربوا . أكلوا .
أجل . وماذا أيضا؟
رقصوا؟
رقصوا .
أجل .
و؟
وماذا؟
كيف رقصوا؟
لا أدري .
على ماذا رقصوا؟
رقصوا على الموسيقى . على موسيقى الفرقة .
رفعت مالوري يدها إلى جبينها وابتسمت .
صحيح . رقصوا على موسيقى الفرقة .

والفرقة كان يلزمها ميكروفونات . الفرقة كان يلزمها مكبرات صوت .

أفكار توم تأبى أن تغادر المنزل وتطوف في أرجائه كالأشباح .

بالضبط كما فعلنا ، كان سيقول لها توم . بالضبط كتلك المرة التي مشينا فيها جولز وأنا في أرجاء الحي . لم يكن بإمكانك أن تشتركي في كثير مما كنا نفعله ، لكنك تستطيعين الآن . لقد جمعنا جولز وأنا كلابا ثم استخدمناها لنسير إلى منزلي . تذكري هذا يا مالوري . كما لو أن الأمر كله تم دفعة واحدة . كل خطوة خلقت الخطوة التي تليها . كل هذا لأننا لم نكن متبلدين ولأننا ركبنا الصعب وخاطرنا . عليك أنت الآن أن تفعلي كما فعلنا . ادهني زجاج السيارة بالأسود .

ضحك دون عندما اقترح توم فكرة قيادة السيارة برؤية منعدمة .

لكن ذلك هو بالضبط ما فعلته .

فيكتور ، هو من سيساعدها . لقد رفض جولز ذات مرة أن يُستخدم بهذا الشكل . لكن مالوري صار معها رضيعان في غرفة في آخر الرواق . القواعد تبدلت . كان جسدها لا يزال يؤلمها من الوضع وعضلات ظهرها لا تزال مشدودة . وإن تحركت بسرعة ، كانت تشعر وكأن مَغْبِنها سينقصم . كان الانهاك يصيبها بسرعة ، ولم تحظ أبدا بالراحة التي تستحقها كل نَفساء .

فيكتور ، قالت لنفسها آنئذ ، *هو سيحميك* .

طلت بالأسود زجاج السيارة الأمامي بدهان من القبو . ألصقت جوارب وقمصانا بالجانب الداخلي للزجاج . وباستعمال غراء للخشب وجدته في المرآب ، وشريط لاصق من القبو ، ثبتت أغطية وأفرشة على مصدات السيارة . كل هذا وهي في الشارع . كل هذا

وهي معصوبة العينين . كل هذا وهي تتحمل آلام النفاس ، كأنها تعاقب على كل حركة يأتيها جسدها .

كانت ستضطر إلى تركهما لوحدهما ، وتذهب بمفردها .

تقود لربع ميل عكس الاتجاه الذي جاءت منه . تدور إلى اليسار ثم تسير لأربعة أميال . ثم إلى اليمين وتسير ميلين آخرين ونصف الميل . وهناك تبحث عن الحانة . تجلب الطعام لفيكتور ويقودها هو إلى السيارة ، ثم إلى الطعام ، كلما احتاجت إلى أن يفعل .

بدت القيادة بسرعة خمسة أو ستة أميال في الساعة معقولة . آمنة بما يكفي .

لكنها ما أن جربت الأمر لأول مرة حتى اكتشفت صعوبته .

رغم الاحتياطات ، كانت القيادة دون رؤية مرعبةً . تأرجحت الشاحنة بعنف إذ دهست أشياء لم تتمكن أبدا من معرفة ما هي . عشرين مرة اصطدمت بالرصيف . واصطدمت بعمود مرتين . ومرة واحدة بسيارة مركونة . كان ذلك قلقا محضا لا يحتمل . وفي كل مرة كان عداد المسافات يطق فيها ، كانت تتوقع اصطداما ، إصابة . مأساة . عندما عادت إلى المنزل ، كانت أعصابها محطمة . عادت خالية الوفاض وغير واثقة من أنها تملك الشجاعة الكافية لإعادة الكرة .

لكنها فعلت . وفي المحاولة التاسعة ، والشاحنة مصابة إصابات شديدة ، وجدت ما كانت تبحث عنه .

وجدت المغسلة في المحاولة السابعة . ولأنها تذكرتها من رحلتها الأولى إلى المنزل ، فلقد أمدها هذا بالشجاعة لتحاول مرة أخرى . معصوبة العينين خائفة ، دخلت محلا لبيع الأحذية ومقهى ومحلا لبيع المثلجات ومسرحا . سمعت صوت حذائها على رخام مدخل

أحد المكاتب . أوقعت على الأرض رفا لبطاقات التهنئة . لكنها لم تنجح في إيجاد الحانة . ثم إذا بمالوري ، في الأمسية التاسعة ، تدخل من باب خشبي مفتوح وتدرك فورا أنها قد وصلت .

كانت رائحة الفواكه الفاسدة والسجائر القديمة والبيرة لها بمثابة الترحيب الذي لم تلق مثله أبدا في حياتها ، فركعت وحضنت فيكتور من عنقه .

«وجدناها» ، قالت .

كان جسدها كله قَرِحًا ، وعقلها يؤلمها ، ولسانها جافا . تخيلت بطنها وكأنه كرة منفشّة ميتة .

لكنها كانت هنا .

بحثت طويلا عن خشب البار . اصطدمت بالكراسي فضربت مرفقها بشدة بأحد الأعمدة . تعثرت مرة ، لكن طاولة أنقذتها من الوقوع على الأرض . وأنفقت وقتا طويلا تحاول فهم المعدات بأصابعها . هل كان ذلك المطبخ؟ هل يستخدم هذا لخلط المشروبات؟ سحبها فيكتور ملاعبا فالتفتت وصدمت بطنها بشيء قاس . كان ذلك البار . ربطت مالوري زمام فيكتور إلى ما اعتقدته كرسيا حديديا ، وذهبت إلى خلف البار وتلمست بحثا عن الزجاجات . وذكرتها كل حركة بأنها قد وضعت حملها من مدة قريبة جدا . قربت الزجاجات من أنفها الواحدة تلو الأخرى . ويسكي . شيء بنكهة الخوخ . شيء بنكهة الليمون . فودكا . جين . وأخيرا رُمّ . تماما كما حاول الرفاق ذات مرة أن يستمتعوا بوقتهم ليلة وصول أوليمبيا .

كان ملمسها مريحا ، كأنها انتظرت ألف عام لتمسك بها .

حملتها معها وإذ وجدت كرسيا جلست ورفعت الزجاجة إلى فمها وشربت .

سرى الكحول فيها ، ولبرهة خفف عنها الألم .

في ظلمتها الخاصة ، أدركت أنه قد يكون أحد المخلوقات جالسا بجانبها إلى البار . ربما كان المكان مليئا بها . ثلاثة إلى كل طاولة . ينظرون غليها بصمت . يراقبون المرأة المحطمة معصوبة العينين وكلبها المبصر . لكنها آنئذ ، في تلك اللحظة ، لم تكن تكترث .

«فيكتور» ، قالت ، «تريد شيء منه؟ يلزمك شيء منه؟»

يا إلهي كم كان ذلك مريحا .

شربت من جديد وهي تتذكر كم يمكن لأمسية في الحانة أن تكون رائعة . تنسى الطفلين . تنسى المنزل . تنسى كل شيء .

«فيكتور ، هذا المشروب رائع»

لكنها أحست بأن الكلب كان قلقا . كان يجذب الزمام المربوط إلى الكرسي .

شربت مالوري مرة أخرى . وإذ بفيكتور ينوح .

«فيكتور؟ ما الأمر؟»

كان فيكتور يجاذب زمامه ويشتد في ذلك . كان ينوح ولم يكن يزمجر . أنصتت مالوري إليه ، وبدا لها من صوته قلقا جدا ، فقامت وفكت زمامه وتركته يقودها .

«إلى أين أنت ذاهب يا فيكتور؟»

علمت أنه يعيدها إلى المكان الذي جاءا منه ، الباب الذي دخلا منه . في طريقهما ، اصطدما بالطاولات . انزلقت قدم فيكتور على بلاطة فخبطت قصبة ساقها بكرسي .

كانت الرائحة هنا أقوى . كرائحة البار ، وأقوى .

«فيكتور؟»

توقف ، ثم راح يخدش شيئا على الأرض .

إنه فأر ، قالت مالوري لنفسها . *لا بد أن منها الكثير هنا* .

رسمت بقدمها على الأرض قوسا إلى أن وصلت إلى شيء صغير صلب . دفعت فيكتور جانبا وتلمست الأرض بحذر .

فكرت بالطفلين وأنهما في غيابها قد يموتان .

«ما الأمر يا فيكتور؟»

كانت حلقة من نوع ما . ملمسها كالفولاذ . وكان هنالك حبل قصير . تفحصته مالوري وعيناها معصوبتان فأدركت ما هو وقامت .

«إنه باب قبو يا فيكتور»

كان الكلب يتنفس بصعوبة .

«لندع هذا وشأنه . علينا أن نبحث عن بعض الأشياء» .

لكن الكلب سحبها من جديد .

ربما ثمة أناس في الأسفل ، قالت مالوري لنفسها ، *مختبئون . يعيشون هنا . أناس قد يعينونك على تربية الطفلين* .

«مرحبا!» نادت . لكن لا جواب .

سال العرق من تحت العصابة . حفرت مخالب فيكتور في الخشب . أحست مالوري بجسدها ينقسم إلى نصفين إذ انحنت ورفعت الشيء لتفتحه .

خنقتها الرائحة التي انبعثت وشعرت مالوري بالرُمّ يرتجع صعودا إذ تقيأت وهي تقوم .

«فيكتور» ، قالت وهي تلهث ، «شيء ما يتعفن في الأسفل . *شيء ما* –»

عندئذ شعرت بإحساس الخوف الحق يلفحها لفحا . ليس ذلك الخوف الذي ينتاب امرأة وهي تقود سيارة دُهِن زجاجها الأمامي بالأسود ، بل من ذلك الخوف الذي يلطمها وهي ترتدي عصابة على

عينيها وفجأة تدرك أن معها شخصا آخر في الغرفة .

بحثت عن الباب وهي تتوجس خوفا من أن تتعثر وتقع في القبو فتلتقي بما هو في قعره أيا يكن . لم تكن تلك رائحة طعام فاسد . ولم تكن رائحة خمر رديئة .

«فيكتور!»

كان الكلب يجذبها بعنف ، متعطشا لمصدر تلك الرائحة .

«فيكتور! كفى!»

لكنه لم يتوقف .

هذه الرائحة هي رائحة القبور . وهذا هو الموت .

بسرعة ، وباضطراب شديد ، أخرجت فيكتور من الغرفة وعادت به إلى الحانة ، ثم بحثت عن عمود . وجدت عمودا خشبيا . ربطت فيه زمام الكلب وركعت وأمسكت وجهه بين يديها وهي ترجوه أن يهدأ قليلا .

«علينا أن نعود إلى الطفلين» ، قالت له ، «*عليك* أن تهدأ»

لكن مالوري كان عليها أن تهدئ من روعها أولا .

لم نحدد أبدا كيف تتأثر الحيوانات بهذا كله . لم نعرف أبدا .

التفتت من جديد إلى حيث خمنت أنه الرواق المفضي إلى القبو .

«فيكتور» ، قالت وقد طفرت دموعها من عينيها ، «ما الذي رأيته في الأسفل؟»

كان الكلب هادئا ، يتنفس بصعوبة . بصعوبة بالغة .

«فيكتور؟»

قامت وابتعدت عنه .

«فيكتور . لن أبتعد . سأذهب لأبحث عن بعض الميكروفونات»
جزء منها بدأ الموت يدب في أوصاله . كأنها هي من أصابها الجنون . فكرت في جولز . جولز الذي أحب هذا الكلب أكثر مما أحب نفسه .

كان هذا الكلب آخر ما يربطها برفاق السكن .

أفلتت منه زمجرة ملتوية . كان صوتا لم تسمعه منه قبل ذلك . ولا من أي كلب على وجه الأرض .

«فيكتور ، أنا آسفة أننا جئنا إلى هنا . أنا آسفة جدا»

تحرك الكلب بعنف وظنت مالوري أنه أفلت من مربطه . تفلق العمود الخشبي .

نبح فيكتور .

تراجعت مالوري وأحست بشيء ما ، واجهة درجة من نوع ما ، خلف ركبتيها المنهكتين .

«فيكتور ، لا . *أرجوك* . أنا آسفة»

تأرجح فيكتور بجسده فارتطم بطاولة .

«يا إلهي! فيكتور! توقف عن *الزمجرة! توقف! أرجوك!*»

لكن الكلب لم يستطع أن يتوقف .

تحسست مالوري الدرجة المفروشة خلفها . زحفت إليها وهي خائفة من أن تولي ظهرها لما رآه فيكتور . متزوية مرتجفة ، استمعت إلى الكلب وهو يجن . إلى صوته وهو يتبول . إلى صرير أسنانه وهو يعض الهواء .

صرخت مالوري . ودون تفكير مدت يدها بحثا عن أداة ما ، سلاح ، فأمسكت يدها بفولاذ عمود صغير من نوع ما .

ببطء قامت وهي تتلمس العمود بيدها .

كان فيكتور يعض على الهواء . ونتش بأسنانه مرة أخرى . كأن أسنانه كانت تتصدع .

في رأس العصا الفولاذية ، أحاطت أصابع مالوري بشكل قصير مستطيل . في نهايته ، لمست شيئا كأنه شبكة من الفولاذ .

شهقت .

كانت على منصة ، تمسك بيدها ما جاءت تبحث عنه . كانت تمسك بميكروفون .

سمعت عظم فيكتور يفرقع . فروه ولحمه تمزقا وانتزعا .

«فيكتور!»

وضعت الميكروفون في جيبها وجثت على ركبتيها .

اقتليه ، قالت لنفسها .

لكنها لم تستطع .

بجنون فتشت المنصة . خلفها ، بدا الأمر وكأن فيكتور مضغ ساقه .

جسدك محطم . فيكتور يموت . لكن في المنزل طفلين محبوسين في علبتين . هما بحاجة لك . هما بحاجة لك يا مالوري . هما بحاجة لك بحاجة لك بحاجة لك .

تجمعت الدموع ثم سالت عبر عصابتها . وخرجت أنفاسها لاهثة شاهقة . على ركبتيها ، تبعت السلك إلى أن بلغت شيئا مربع الشكل في طرف المنصة . اكتشفت ثلاثة أسلاك أخرى تؤدي إلى ثلاثة ميكروفونات أخرى .

صوَّت فيكتور كما لا ينبغي لكلب أن يفعل . كان صوته أشبه بصوت إنسان في يأسه . جمعت مالوري كل ما وسعها أن تجمعه .

«أنا آسفة يا فيكتور . أنا آسفة جدا يا فيكتور . أنا آسفة»

عندما قامت، ظنت أن جسدها لن يحتمل. آمنت بأنه لو نقصت قوتها بمثقال ذرة فستقع ولن تقوم. لكنها قامت. وبينما واصل فيكتور صراعه، تحسست مالوري طريقها وظهرها إلى الجدار. وأخيرا، نزلت عن المنصة.

لقد رأى فيكتور شيئا ما؟ أين صار الآن؟

لم تكف الدموع عن الانهمار، لكن شعورا آخر طغى عليها: هدوء ثمين. الأمومة. كما لو أنها كانت غريبة عن نفسها، لا تعمل إلا لأجل الطفلين وحسب.

قطعت الحانة واقتربت من فيكتور بما يكفي لتشعر بجزء منه يلتف حول ساقها. أكان ذلك جنبه؟ خطمه؟ أكان يودعها؟ أم هل ألقى إليها بلسانه؟

تكمل تقدمها في الحانة فتصل أخيرا إلى الباب الذي دخلا منه هي فيكتور. كان باب القبو المفتوح قريبا منها لكنها لم تكن تعلم أين هو بالضبط.

«لا تقترب مني! لا تقترب مني!»

وهي تصارع لتحمل المعدات، خطت مالوري خطوة فلم تلمس قدمها الأرض.

ترنحت.

كادت أن تسقط.

وتمالكت نفسها.

رن صوتها كأنه صوت غريبة إذ صرخت قبل أن تخرج من الحانة.

كانت الشمس حارة على بشرتها.

تحركت بسرعة لتعود إلى السيارة.

كانت أفكارها مستثارة ، والأحداث تتسارع . انزلقت على الرصيف الإسمنتي فارتطمت بشدة بالسيارة . هائجة شحنت ما جلبته من أشياء في مؤخر السيارة على عجل . وعندما جلست خلف المقود ولولت .

الوحشية . هذا العالم . فيكتور .

وضعت المفتاح في مكانه وكانت على وشك إدارته .

ثم توقفت وشعرها الأسود يتصبب عرقا .

ما هو احتمال أن يكون دخل شيء ما معها إلى السيارة؟ ما هو احتمال أن يكون شيء ما جالسا بجانبها على المقعد الأمامي؟

إن كان شيء دخل معها ، ستكون هي من تحمله إلى الطفلين .

لكي تصلي إلى المنزل ، قالت لنفسها (وحتى الصوت في عقلها ارتعش ، حتى الصوت في عقلها رنَّ كالبكاء) ،*لا بد لك عن النظر إلى عداد المسافات* .

لوحت بشدة واهتياج حول السيارة ، ذراعاها تضربان لوحة القيادة بوحشية وتصطدمان بالسقف وبالنوافذ .

نزعت عنها عصابتها .

رأت الزجاج الأمامي الأسود . كانت لوحدها في السيارة .

باستعمال عداد المسافات ، قادت لميلين ونصف الميل ثم أربعة أميال أخرى إلى شيلينغهام ، ثم ربع ميل آخر إلى المنزل وصدمت كل رصيف وكل إشارة في الطريق . قادت بسرعة لا تزيد عن خمسة أميال كالساعة ، وبدا لها ذلك كأنه الأبد .

بعد أن ركنت سيارتها ، جلبت كل ما وجدته . داخل المنزل ، بعد أن تأكدت من أنها أغلقت الباب وراءها ، فتحت عينيها وهرعت إلى غرفة الطفلين .

كانا مستيقظين . وجهاهما محمرين . يبكيان . جائعين .

بعد ذلك بمدة طويلة استلقت مستيقظة على أرض المطبخ الرطبة الباردة ، تحدق بالميكروفونات وبمكبري الصوت الصغيرين أمامها ، وتتذكر صوت فيكتور .

الكلاب ليست محصنة . الكلاب أيضا تجن . الكلاب ليست محصنة .

وكلما ظنت أنها ستتوقف عن البكاء ، راحت تبكي من جديد .

الفصل الرابع والثلاثون

مالوري في حمام الطابق العلوي . الوقت متأخر والمنزل يخيم عليه الصمت . الرفاق نيام .

تفكر في محفظة غاري .

قال لها توم أن تتصرف تصرف القادة في غيابه . لكن المحفظة تزعجها . كما يزعجها اهتمام دون المفاجئ بغاري . كما يزعجها كل ما يقوله غاري بأسلوبه الفخم المتكلف .

التجسس مذموم . عندما يضطر الناس إلى العيش معا في مكان واحد ، يصبح احترام حيزهم الشخصي أمرا في غاية الأهمية . لكن أليس هذا واجبها؟ في غياب توم ، أليس منوطا بها هي أن تعرف هل أصابت في ظنها أم لا؟

تلقي مالوري بسمعها إلى الرواق . لا حركة في المنزل . تخرج من الحمام ، وتلتفت إلى غرفة شيريل فترى انحناءات جسدها الممدد . تلقي نظرة على غرفة أوليمبيا فتسمع شخيرها الخفيف . بهدوء تنزل مالوري الدرج ويدها على الدرابزين .

تتجه إلى المطبخ وتضيء المصباح فوق الموقد . النور خافت ويئز أزيزا خفيفا ، لكنه يكفي . تدخل غرفة الجلوس فترى عيني فيكتور تنظران إليها . فيلكس نائم على الأريكة . المكان الذي يشغله توم عادة على الأرض شاغر .

تقطع المطبخ وتقترب من غرفة الطعام . نور الموقد الخافت يبلغ

مداه ما يكفي لترى جسد غاري ممددا على الأرض . هو مستلق على ظهره . نائم .

تفكر .

المحفظة مسندة إلى الجدار ، على بعد ذراع من جسده .

بلطف وروية ، تدخل مالوري غرفة الجلوس . لوحات الأرض الخشبية تصر تحت قدميها . تتوقف وتحدق في فمه الفاغر الملتحي . أنفاسه البطيئة المنتظمة تصدر أزيزا خفيفا . تحبس أنفاسها وتخطو خطو أخيرة نحوه وتتوقف . تنحني فوقه وتنظر إليه عن كثب دون أن تتحرك .

تركع .

غاري يشخر . قلبها يخفق . تنتظر .

لتحصل على المحفظة عليها أن تمد يدها فوق صدره . ذراعها تتدلى على بعد سنتيميترات من قميصه وهو نائم . تمسك أصابعها بيد المحفظة وإذ به ينخر . تلتفت .

هو يحدق بها .

تتجمد مالوري وتتفحص كلتا عينيه .

تزفر بهدوء . عيناه ليستا مفتوحتين . لقد خدعتها الظلال .

بسرعة ترفع المحفظة ، وتقوم وتغادر الغرفة .

عند باب القبو تتوقف وتنصت . لا تسمع حركة من غرفة الطعام . ينفتح باب القبو بهدوء وبطء ، لكنها لا تستطيع تجنب أنين المفاصل . صوتها يبدو أعلى مما هو في العادة ، كما لو أن المنزل كله يصِر وهو ينفتح ببطء .

وإذ ينفتح الباب بما يكفي فقط لدخولها ، تنزلق إلى الداخل . الصمت يخيم على المنزل من جديد .

ببطء تنزل السلالم إلى الأرض الترابية .

أعصابها مشدودة . يطول بها الأمر قبل أن تجد خيط المصباح . وعندما تجده ، تنبجس الغرفة بنور أصفر فاقع . فاقع أكثر مما ينبغي . إلى درجة أنه قد يوقظ شيريل النائمة فوقها بطابقين .

تسرح بصرها في الغرفة وتنتظر .

بإمكانها أن تسمع أنفاسها الثقيلة . ولا شيء آخر .

جسدها يؤلمها . هي بحاجة للراحة . لكن كل ما تريده الآن هو أن ترى ما أحضره غاري معه .

تتجه إلى الدكة الخشبية وتجلس .

تفتح المحفظة .

بداخلها ترى فرشاة أسنان بالية .

جوارب .

قمصانا .

مزيلا للروائح .

وأوراقا . دفترا .

تلقي مالوري نظرة إلى باب القبو . تنصت لتسمع هل ثمة خطوات قادمة . لا شيء . تخرج الدفتر من تحت الثياب وتضع المحفظة على الأرض .

الدفتر مغلف بغلاف أزرق نظيف . حرفه ليس منثنيا . كما لو أن غاري أبقاه ، حافظ عليه في أفضل حالة ممكنة .

تفتحه .

وتقرأ .

الخط متقن إلى حد يخيفها . لقد كُتب بعناية بالغة . أيا يكن من كتب هذا ، فلقد كتبه بشغف . بفخر واعتزاز . وإذ تنتقل بين الصفحات ، ترى جملا مكتوبة كما هي العادة من اليسار إلى

اليمين، وأخرى في الاتجاه المعاكس من اليمين إلى اليسار. لكن ثمة جملٌ أخرى، في عمق الدفتر، تبدأ من أعلى الصفحة وتمضي نزولا. في نهاية الدفتر، الجمل تدور بوضوح، مكتوبةً مع ذلك بخط متقن هي أيضا، وترسم رسوما وأنماطا غريبة من كلمات.

إن تَعرفْ سقف عقل الإنسان فستعرفُ قوة هذه المخلوقات كُلّها. إن كانت المسألة مسألة فهم، فلا شك في أن نتيجة أي لقاء معها لا بد أن تختلف اختلافا كثيرا من شخص لآخر. فسقفي يختلف عن سقفك. وهو يختلف كثيرا عن سقف عقول القرود التي تعيش في هذا المنزل. الآخرون الغارقون في هراعهم وتهاويلهم أحرى بأن تسري عليهم القواعد التي قررناها للمخلوقات. بكلمات أخرى، هؤلاء السذج، بعقولهم الصبيانية، لن ينجوا. أما شخص مثلي أنا، حسنا، لقد سبق وبرهنت على وجاهة رأيي.

تقلب مالوري الصفحة.

أي رجل ينكمش ويجبن عندما تأتي نهاية العالم؟ عندما يقتل أخوته بعضُهم بعضا، عندما يفشو القتل في شوارع ضواحي المدن الأمريكية... أي رجل هذا الذي يختبئ وراء البطانيات وعصابات الأعين؟ الجواب هو معظم الرجال. لقد قيل لهم إنهم سيُجَنُّون. فإذا بهم يجنون.

تنظر مالوري إلى درج القبو. النور فوق الموقد يُرى من الشق في أعلى باب القبو. تقول لنفسها إنه كان عليها أن تطفئه. تفكر في أن تفعل الآن. ثم تقلب الصفحة.

نحن من نفعل هذا بأنفسنا نحن من نفعل هذا بأنفسنا نحن من نفعل هذا بأنفسنا. بكلمات أخرى، (و تذكروا كلامي):
الإنسان هو المخلوق الذي يخشاه.

هذا دفتر فرانك . ولكن لم يحتفظ به غاري؟

لأنه كتبه بالطبع .

لأن فرانك ، مالوري على يقين من ذلك ، لم ينتزع الستائر في منزل غاري القديم .

غاري هو من فعل .

تقف مالوري ، وقلبها تتسارع دقاتُه .

توم ليس في المنزل . توم ذهب إلى منزله على مسيرة ثلاثة أميال .

تحدق إلى أسفل باب القبو . النور من المصباح فوق الفرن . تتوقع أقداما تغطيه فجأة . تنظر إلى الرفوف بحثا عن سلاح . إن جاء ، بماذا ستقتله؟

لكن لا حذاء يغطي النور ، فتقرب مالوري الدفتر من وجهها أكثر وتقرأ .

إن تكلمنا بعقلانية ، ولكي أبرهن لهم على كل هذا ، لا خيار أمامي . سأكتب هذا الكلام ألف مرة حتى أقنع نفسي بفعلها . ألفي مرة . ثلاثة آلاف . هؤلاء الرجال لا يعبأون بالكلام . وحدها الحجة الدامغة ستغيرهم . ولكن كيف أثبت لهم؟ كيف أجعلهم يصدقون؟ سأزيل الستائر وأفتح الأبواب .

في الهوامش ملاحظات مرقمة والأرقام الموافقة لها مكتوبة بدقة وعناية في الأعلى . هنا الملاحظة ٢٣٤٣ ، وهنا ٢٣٤٤ ، بلا انقطاع ، بلا نهاية ، بوحشية .

تقلب مالوري الصفحة .

تسمع صوتا قادما من الأعلى .

تنظر إلى الباب . هي خائفة من أن تطرف بعينيها أو تتحرك . تنتظر وتحدق ببصرها .

دون أن تفارق عيناها الباب ، تمد يدها إلى المحفظة وتدس الدفتر تحت ثياب غاري . هل هو في وضعه الصحيح؟ هل خبأه غاري هكذا؟

هي لا تعلم . لا تعلم .

تغلق المحفظة وتسحب خيط اللمبة .

تغمض مالوري عينيها وتتحسس الأرض تحت قدميها . تفتح عينيها . الظلام المطلق لا يشقه إلا نور الفرن من تحت باب القبو .

تراقبه مالوري وتنتظر .

تقطع القبو وتتكيف عيناها مع العتمة إذ ترقى السلالم بحذر وتضع أذنها على الباب .

تنصت وهي تتنفس بلا انتظام . المنزل غارق في صمته من جديد .

غاري واقف على الطرف الآخر من المطبخ ، يراقب باب القبو . عندما ستفتحينه سيحييك .

تنتظر وتنتظر ، ولا تسمع شيئا .

تفتح الباب وتصر مفاصله .

والمحفظة في يدها ، تلقي مالوري نظرة إلى المطبخ . الصمت يكاد ضجيجُه يصم آذانها .

لكن لا أحد هنا . لا أحد ينتظرها .

يدها على بطنها . تضغط نفسها عبر إطار الباب وتغلق الباب وراءها .

تنظر إلى غرفة الجلوس . إلى غرفة الطعام .

إلى غرفة الجلوس .

إلى غرفة الطعام .

على أطراف أصابعها ، تمر عبر المطبخ وتدخل غرفة الطعام أخيرا .

غاري لا يزال ممددا على ظهره . صدره يعلو وينخفض . يئن أنينا خفيفا .

تتقدم . يتحرك . تنتظر .

لقد تحرك . . .

كانت تلك ذراعه فقط .

تراقبه مالوري . تنظر إلى وجهه ، إلى عينيه المغمضتين . بسرعة ، تنحني على جسده ، على بعد سنتيمترات من بشرته ، وتعيد المحفظة إلى مكانها بإزاء الجدار .

أكانت هذه هي الجهة التي وضعت عليها؟

تتركها . تقف وتسرع بالخروج من الغرفة . في المطبخ ، وفي وهج النور تلتقي عينا شخص آخر بعينيها .

تتجمد مالوري .

إنها أوليمبيا .

«ما الذي تفعلينه؟» تهمس أوليمبيا .

«لا شيء» ، تقول بأنفاس مقطوعة ، «ظننت أني نسيت شيئا هنا» .

«رأيت كابوسا مرعبا» ، تقول أوليمبيا . تتجه مالوري إليها وتمد إليها يدها . تقود أوليمبيا إلى الطابق العلوي . يصعدان الدرج معا ، وعندما يصلان ، تنظر مالوري إلى الأسفل .

«علي أن أخبر توم» ، تقول

«عن حلمي؟»

تنظر مالوري إلى أوليمبيا وتهز برأسها .

«لا لا ، أنا آسفة ، لا»

«مالوري؟»

«أجل»

«هل أنت بخير؟»

«أوليمبيا ، أنا بحاجة لتوم»

«حسنا ، هو ليس هنا»

تنظر مالوري مليا إلى أسفل الدرج . النور فوق الفرن لا يزال مضاء . أشعته منثورة بما يكفي على مدخل غرفة الجلوس فلو دخل أحد إلى المطبخ من غرفة الطعام فسترى ظله .

تحدق بتمعن في الغرفة الخافتة . تنتظر . تنتظر ظلا . واثقة من أنه سيأتي .

وبينما هي تراقب ، تفكر في ما قالته أوليمبيا لتوها .

توم *ليس هنا* .

تتخيل المنزل صندوقا كبيرا . تريد الخروج من هذا الصندوق . توم وجولز ، وهما في الخارج ، لا يزالان داخل هذا الصندوق . الكرة الأرضية كلها محبوسة . العالم محدود بعلبة الكرتون نفسها التي تأوي الطيور في الخارج . مالوري تدرك أن توم يبحث عن طريقة يفتح بها غطاء الصندوق . يبحث عن مخرج . لكنها تتساءل أليس ثمة غطاء ثان فوق الغطاء الأول ، ثم ثالث فوق الثاني .

محبوسون في صندوق ، تقول لنفسها ، إلى الأبد .

الفصل الخامس والثلاثون

مضى أسبوع منذ أن غادر توم وجولز لرحلة الثلاثة أميال مع الكلبين . ما تريده مالوري الآن ، أكثر من أي شيء آخر ، هو أن يعودا . تريد أن تسمع طرقا على الباب وأن تشعر براحة وجودهما في المنزل من جديد . تريد أن تسمع منهما ماذا لقيا وما الذي جلباه معهما . تريد أن تخبر توم بما قرأته في القبو .

لم تعد للنوم في الليلة الماضية . في عتمة غرفتها ، لم تفكر إلا بدفتر غاري . هي الآن في العُلِّيَّة . تختبئ فيما يبدو من بقية من في المنزل .

لا يمكنها أن تخبر فيلكس . قد يفعل شيئا . قد يقول شيئا . مالوري تريد توم وجولز هنا في حال حصل هذا . فيلكس سيكون بحاجتهما .

من يدري علام قد يقدم غاري . من يدري *ماذا فعل* .

لا يمكنها أن تخبر شيريل . شيريل حادة المزاج وقوية . تغضب بسهولة . ستتصرف قبل أن يفعل فيلكس .

أما أوليمبيا فلن يزيدها هذا إلا رعبا .

لا يمكنها أن تحدث غاري . لن تفعل . ليس في غياب توم .

لكن مالوري ، رغم أنه بدل معسكره ورغم أنه متقلب المزاج ، تفكر في أنها قد تخبر دون .

دون فيه طِيبة ، تقول لنفسها . لطالما كانت فيه .

لقد كان غاري شيطانا يوسوس لدون لأسابيع . دون كان بحاجة

لشخص مثله في المنزل . شخص يرى العالم كما يراه هو . لكن ألا يمكن لطبيعة دون المتشككة أن تكون عونا لها في هذا الأمر؟ ألم يخطر له ، خلال كل أحاديثه مع غاري ، أنه ربما ثمة خطب ما مع الوافد الجديد؟

غاري ينام والحقيبة على بعد ذراع منه . الحقيبة تهمه . ويهمه ما فيها من كتابات ويصدقها .

كل شيء في هذا العالم الجديد قاس ، تقول لنفسها ، لكن لا شيء أقسى من اكتشافها لدفتر غاري في غياب توم .

قد يطول غيابه .

كفى .

قد يغيب إلى الأبد .

كفى .

لعله مات . لعلهما قتلا في الشارع غير بعيد عن المنزل . لعل الرجل الذي تنتظرينه ميت منذ أسبوع ، على بعد مربع عشب منك .

كلا . سيعود .

ربما .

سيعود .

ربما .

لقد خططوا للأمر مع فيلكس .

ماذا يعرف فيلكس؟

كلهم اشتركوا في رسم الخطة . لم يكن توم ليخاطر لو لم يعلم أن بإمكانه إنجاز الأمر .

هل تذكرين شريط الفيديو الذي شاهده جورج؟ توم يشبه جورج كثيرا .

كفى!
هو كذلك . كان يعبد الرجل . وماذا بشأن الكلاب؟
نحن لا نعرف إن كانت الكلاب تتأثر بكل هذا .
كلا . لكنها قد تتأثر . هل تتخيلين كيف سيكون الأمر؟ كلب يجن جنونا مطبقا؟
أرجوك . . .كلا .
أفكار لا بد منها . رؤى لا بد منها . قد لا يعود توم أبدا .
سيعود سيعود سيعود . . .
وإن لم يعد ، سيكون عليك أن تخبري أحدا آخر .
توم عائد .
لقد مضى أسبوع .
سيعود!
لا يمكنك أن تخبري غاري . تحدثي مع أحد غيره أولا .
دون .
لا . لا . ليس هو . فيلكس . دون سيقتلك .
ماذا؟؟
لقد تبدل دون يا مالوري . لم يعد كما كان . لا تكوني بهذه السذاجة .
دون لن يؤذينا .
بلى ، سيفعل . سيرفع الفأس في وجوهكم جميعا .
كفى!!
الحياة لا تهمه . لقد أشار عليك بأن تعمي طفلك يا مالوري .
لن يؤذينا .
بل سيفعل . تحدثي إلى فيلكس .

فيلكس سيخبر الجميع .

قولي له ألا يفعل . تحدثي إلى فيلكس . قد لا يعود توم أبدا .

تغادر مالوري العلية . شيريل وغاري في المطبخ . غاري جالس إلى الطاولة يستخرج شرائح إجاص من علبة .

«عمتِ مساء» ، يقول ، بطريقته في جعل الأمر يبدو وكأنه المسؤول عمّا في المساء من نعيم .

تقول مالوري لنفسها إنه سيتكلم . وإنه يعلم .

كان مستيقظا كان مستيقظا كان مستيقظا .

«عمتَ مساء» تقول ، وتتركه وتتجه إلى غرفة الجلوس .

فيلكس جالس أمام الهاتف في غرفة الجلوس . الخريطة مفتوحة على المائدة .

«لا أفهم» ، يقول مرتبكا . فيلكس لا يبدو بخير . لم يأكل كثيرا في المدة الأخيرة . الضمانات التي منحها لمالوري منذ أسبوع زالت واختفت .

«إنها مدة طويلة يا مالوري . أعلم أن توم سيتدبر أمره في الخارج – لكنها مدة طويلة» .

«عليك أن تفكر بشيء آخر» ، تقول شريل وهي تطل برأسها من مجلسها ، «صدقا يا فيلكس . فكر بشيء آخر . أو اخرج وعيناك مفتوحتان . في كلتا الحالتين أنت تقود نفسك للجنون» .

يطلق فيلكس زفرة عالية ويمرر أصابعه في شعره .

لا يمكنها أن تخبر فيلكس . شيء ما يضيع منه . شيء ما قد ضاع منه . عيناه كامدتان بليدتان . إنه يُضيع حِسَّه وأفكاره . وقوته .

دون أن تنبس بكلمة ، تتركه مالوري . تمر بدون في الرواق . الكلمات ، ما اكتشفته ، تنبعث فيها ، فتكاد تنطق بها .

دون ، غاري لا يصلح . إنه خطير للغاية . هو يحتفظ بدفتر فرانك في محفظته .

ماذا يا مالوري؟

ما سمعته مني .

هل كنت تتلصصين؟ تفتشين في أشياء غاري؟

نعم .

لم تخبرينني بكل هذا؟

دون ، أنا بحاجة إلى أن أخبر أحدا ما . ألا تفهم هذا؟ ألا تفهم؟

ولِم لم تسألي غاري وحسب؟ يا غاري!

كلا ، لا يمكنها أن تخبر دون . لقد أضاع دون شيئا هو أيضا . قد يَعنُف في ردة فعله . وكذلك غاري .

دَفعة واحدة ، تقول لنفسها ، وستفقدين طفلك .

تتخيل غاري في أعلى درج القبو ، وجسدها المحطم المضرج بالدماء مجعَّدا في أسفله .

تحبين القراءة في القبو ، أليس كذلك؟؟ فموتي فيه إذًا أنت وطفلك .

خلفها ، تسمع أصوات الرفاق المجتمعين كلهم في غرفة الجلوس . شيريل تتحدث مع فيلكس . غاري مع دون .

تلتفت مالوري إلى أصواتهم وتقترب من غرفة الجلوس .

ستخبرهم جميعا .

تدخل الغرفة فتشعر بجسدها وكأنه خلق من ثلج . ثلج يذوب . كأن قطعا منها تنهار وتغرق تحت الضغط الذي لا يحتمل لما هو آت .

شيريل وأوليمبيا جالستان على الأريكة . فيلكس ينتظر أمام الهاتف . دون على الكرسي . وغاري واقف ينظر إلى النوافذ المغطاة .

تفتح فمها ، فينظر غاري ببطء من وراء كتفه وتلتقي عيناه بعينيها .

«مالوري» ، يقول بحدة ، «أثمة ما يشغل بالك؟»

فجأة ، وبوضوح ، تدرك مالوري أن الجميع يحدقون بها . ينتظرون أن تتكلم .

«أجل يا غاري» ، تقول ، «ثمة ما يشغل بالي»

«ما هو؟» يسأل دون .

الكلمات عالقة في حلقها . تتسلق كأرجل أم أربع وأربعين ، تتطلع للوصول إلى شفتيها وتسعى للخروج أخيرا .

«هل يتذكر أحدكم ما جلبه غاري -»

تتوقف . الرفاق وهي يلتفتون إلى النافذة .

الطيور تهدل .

«إنه توم» ، يقول فيلكس بيأس ، «يجب أن يكون هو!»

ينظر غاري إلى عيني مالوري من جديد . ثمة طرق على باب المنزل .

يتحرك الرفاق بسرعة . يهرع فيلكس إلى الباب ، بينما مالوري وغاري يبقيان في مكانيهما .

إنه يعلم يعلم يعلم يعلم .

بينما توم ينادي ، مالوري ترتعد خوفا .

إنه يعلم .

ثم يتركها غاري إذ يسمع صوت توم ويتجه إلى البهو .

تُطرح الأسئلة ويعصب الرفاق أعينهم ثم تسمع مالوري الباب

يُفتح . يدخل الهواء البارد ومعه حقيقة أن مالوري كانت قاب قوسين أو أدنى من مواجهة غاري بينما توم غائب عن المنزل .

الكلبان يكشطان بلاط البهو بحوافرهما . يصطدم شيء ما بإطار الباب . يغلق الباب بسرعة . ثمة أصوات مكانس تخدش الجدران . يتكلم توم . وصوتُه الخلاص .

«كنت أريد أن أخابركم من منزلي يا رفاق ، لكني وجدت الهاتف اللعين معطلا»

«توم» ، يقول فيلكس بصوت متحمس غير أنه ضعيف ، «كنت أعلم أنكما ستفعلانها . كنت أعلم ذلك!» .

تفتح مالوري عينيها ولا تفكر بغاري . لا ترى الرسائل المدبجة بإتقان والقابعة في محفظته .

كل ما تراه هو أن توم وجولز عادا إلى المنزل . . .

«لقد أغرنا على محل بقالة» ، يقول توم ، وكلماته تبدو مستحيلة . «لقد سبقنا إليه أحدهم لكننا جلبنا معنا الكثير من الأغراض الجيدة» .

يبدو متعبا ، لكنه يبدو بحال جيدة .

«لقد أدى الكلبان ما عليهما» ، يقول ، «قادانا» . يبدو فخورا وراضيا . «لكني حصلت على شيء من منزلي آمل أنه سيساعدنا جميعا «

يساعده فيلكس على إنزال حقيبته . يفتح توم السحَّاب ويخرج شيئا . ثم يتركه يقع على أرض البهو .

إنه دليل هاتف .

«سنتصل بكل رقم فيه» ، يقول ، «كل رقم . وسيجيبنا أحدهم

»

ليس إلا دليل هاتف ، لكن توم جعل منه منارة .

«والآن» ، يقول توم ، «لنأكل «

ينكب الآخرون بحماسة على تهيئة غرفة الطعام . تحضر أوليمبيا الأواني . يملأ فيلكس كؤوس الماء من الدلاء .

لقد عاد توم .

لقد عاد جولز .

«مالوري» ، تنادي أوليمبيا ، «إنه لحم سلطعون معلب!»

تنتبه مالوري ، وقد بوغتت في مكان ما بين عالمين ، فتدخل المطبخ وتساعد الرفاق على تحضير العشاء .

الفصل السادس والثلاثون

ثمة من يتبعهم .

لا جدوى من أن تسأل نفسها كم بقي أمامهم ليقطعوه . هي لا تعلم متى ستسمع التسجيل الصوتي الذي يخبرها بأنها وصلت . لا تعلم إن كان لا يزال موجودا . هي الآن تجذف وحسب ، تواصل وحسب .

قبل ساعة مرُّوا بما بدا وكأنها أسود تتقاتل . كان هنالك زئير . الطيور الجارحة تطلق زعقات تحذير من السماء . ثمة أشياء تزمجر وتنخر في الغابة . تيار النهر يتسارع . تتذكر الخيمة التي وجدها توم وجولز في الشارع قبالة المنزل . هل يمكن لشيء كهذا ، شيء في غير محله إلى حد يثير الدهشة ، أن يكون هنا ، على هذا النهر؟ أيمكن أن يصطدم قاربهم به ويتحطم . . .الآن؟

هنا ، هي على يقين من ذلك ، كل ما يمكن تخيله يمكن أن يحدث .

لكن في هذه اللحظة ، ما يقلقها ليس محض خيال بل هو شيء حقيقي ملموس إلى أبعد الحدود .

ثمة من يتبعهم . أجل ، لقد سمعه الصبي أيضا .

صدى كالشبح . تجذيف ثان ، متناغم مع إيقاع تجذيفها هي .

من تراه يفعل؟ وإن كان ينوي إيذاءها والطفلين ، فلم لم يفعل عندما كانت غائبة عن الوعي؟

هل هو شخص يفر من منزله هو أيضا؟

«يا صبي» ، تقول بهدوء ، «أخبرني بما تستطيع أن تخبرني عنه»

الصبي ينصت .

«لا أعلم يا ماما»

في صوته خجل .

«هل مازال خلفنا؟»

«لا أعلم!»

«أنصت» .

تفكر مالوري في أن تفكر وتستدير وتواجه الضجيج الذي تسمعه خلفها .

سيُشغَّل التسجيل بلا انقطاع . ستسمعينه ، فصوته عال وواضح . وعندما تسمعينه ، فتلك هي اللحظة التي سيكون عليك أن تفتحي فيها عينيك .

ما الذي يتبعهم؟

«يا صبي» ، تقول من جديد ، «أخبرني بما تستطيع أن تخبرني عنه» .

تتوقف مالوري عن التجذيف . الماء يندفع حولهم .

«لا أعلم ما هو» يقول

ثابتةً في مكانها ، تنتظر مالوري . ينبح كلب على الضفة اليمنى ، فيجيبه نباح آخر .

كلاب وحشية ، *تقول لنفسها مالوري ، ذئاب أخرى* .

تعود للتجذيف ، وتسأل الصبي مرة أخرى عما سمعه .

«أنا آسف يا ماما» ، يصرخ . صوته متهدج من البكاء . من الخجل .

هو لا يعلم .

لسنوات لم يعجز الطفل أبدا عن التعرف على صوت . ما يسمعه الآن هو شيء لم يسمعه أبدا من قبل .

لكن مالوري واثقة من أنه لا يزال قادرا على مساعدتها .

«كم يبعد عنا؟» تسأل مالوري

لكن الصبي لا يزال يبكي

«لا يمكنني فعلها!»

«*أبق صوتك منخفضا!*» تهِسّ .

ينخر شيء ما على الضفة اليسرى . كأن صوته صوت خنزير . ثم آخر . ثم آخر .

كأنها بالنهر ضيق جدا ، وبالضفتين قريبتان من بعضهما جدا .

هل ثمة ما يتبعهما؟

تجذف مالوري .

الفصل السابع والثلاثون

لأول مرة منذ مجيئها إلى المنزل ، مالوري تعلم أمرا لا يعلمه الآخرون .

توم وجولز عادا لتوهما . وبينما كان الرفاق يحضّرون طعام العشاء ، أخذ توم المخزون الجديد من الأغذية المعلبة إلى القبو . لحقت به مالوري هناك . ربما احتفظ غاري بالدفتر لأنه أراد أن يدرس كتابة فرانك ، أو ربما لأنه هو من كتبه . لكن توم كان عليه أن يعرف . الآن .

في ضوء القبو ، بدا متعبا لكن منتصرا ظافرا . كان شعره الفاتح اللون متسخا . وبدت قسماته أكبر سنا مما كانت عليه في أول مرة كانت هنا معه فيها . كان يفقد وزنه . بتنظيم ، أخرج العلب من حقيبته وحقيبة جولز ووضعها على الرفوف . وراح يتحدث عن محل البقالة وكيف كان الأمر هناك ، عن رائحة الطعام الفاسد ، وعندها وجدت مالوري فرصتها .

لكنها ما كادت تهم بالحديث حتى انفتح باب القبو .

كان ذلك غاري .

«أود أن أساعدك إن كان باستطاعتي ذلك» ، قال لتوم من أعلى السلالم .

«حسنا » ، قال توم . «تعال إذاً»

خرجت مالوري عندما وصل غاري إلى الأرض الترابية .

الجميع الآن جلوس إلى طاولة غرفة الطعام . ومالوري لا تزال تبحث عن فرصتها .

يصف جولز وتوم أسبوعهما ببطء . ما يرويانه من أحداث لا يصدق لكن ذهن مالوري معلق بغاري . تحاول أن تتصرف بطبيعية . تستمع لما يقولان . كل دقيقة تمر هي دقيقة لا يعلم فيها توم أن غاري قد يكون خطرا على البقية .

يكاد الأمر يبدو وكأنهم دخلاء على حيز غاري ومكانه . وكأن غاري ودون تكرما بدعوتهم إلى غرفة الطعام الخاصة بهما ، مكانهما الأثير حيث يتهامسان . لقد أمضيا الكثير من الوقت هنا حتى أن المكان صار يعبق برائحتهما . هل كانا سيلتحقان بالمجموعة لو قدم طعام العشاء في غرفة الجلوس؟ مالوري لا تظن أنهما كانا سيفعلان .

بينما توم يصف كيف مشى ثلاثة أميال معصوب العينين ، يتصرف غاري بتهذيب ويبدي فضولا ولا يتوقف عن الكلام . وكلما يفتح فمه تنتاب مالوري رغبة عارمة في أن تصرخ به أن توقف . *قل الحقيقة أولا* ، تريد أن تقول له .

لكنها تتريث .

«هل تقول إذا» ، يقول غاري وفمه ممتلئ بلحم السلطعون ، «أنك صرت مقتنعا بأن الكلاب لا تتأثر بكل هذا؟»

«كلا ، لا يمكنني أن أجزم بهذا» ، يقول توم ، «ليس بعد . لعلنا فقط لم نمر بأي شيء ليرياه» .

«هذا مستبعد» ، يقول غاري .

تكاد مالوري تصرخ .

عندئذ يقول توم إن لديه مفاجأة لهم جميعا .

«إن حقيبتك سيارة مهرجين[١] حقيقية» ، يقول غاري وهو يبتسم .

يعود توم وهو يحمل علبة بنية صغيرة ، يخرج منها ثمانية أبواق دراجات .

«حصلنا على هذه من محل البقالة» ، يقول ، «في جناح اللعب»

يناولهم إياها .

«البوق الذي أحمله كتب عليه اسمي» ، تقول أوليمبيا

«جميعها كذلك» ، يقول توم ، «لقد كتبت أسماءكم ، وعيناي معصوبتان ، بقلم لباد» .

«لم هذه؟» يسأل فيلكس

«نحن نتجه إلى طريقة في العيش نمضي فيها وقتا أكبر خارج المنزل» ، يجيبه توم وهو يجلس ، «يمكننا أن نتواصل مع بعضنا باستخدام هذه الأبواق» .

فجأة يطلق غاري بوقه . صوته يشبه صوت إوزة ، ثم صار الصوت أشبه بسرب من الإوز إذ يطلق الجميع أبواقهم في فوضى عارمة .

الهالات حول عيني فيلكس تتمدد إذ يبتسم .

«أما هذه» ، يقول توم ، «فَبِها أختم» . يمد يده إلى الحقيبة ويخرج منها زجاجة . إنها زجاجة رُمّ .

«توم!» تقول أوليمبيا

---

(٩) في السيرك هي سيارة صغيرة يخرج منها عدد لا يصدق من المهرجين لإضحاك المتفرجين . [المترجم]

«لأجل هذه أردت أن أعود إلى منزلي» ، يقول مازحا .

مالوري ، إذ تسمع ضحكات الرفاق وترى وجوههم الباسمة ، لم تعد تحتمل .

تقف وتضرب الطاولة بكفيها .

«لقد فتشت في محفظة غاري» ، تقول ، «ووجدت الدفتر الذي حدثنا عنه . الدفتر الذي يتحدث عن إنزال الستائر . الدفتر الذي قال لنا إن فرانك أخذه معه» .

يحل الصمت على الغرفة . الرفاق كلهم ينظرون إليها . يتورد خداها من الحرارة والعرق يخز جذور شعرها .

يتفرس توم وهو لا يزال يمسك بزجاجة الرُّمّ ، في وجه مالوري ، ثم يلتفت ببطء إلى غاري .

«غاري؟»

غاري ينظر إلى الطاولة .

إنه يحاول كسب الوقت ، تقول مالوري لنفسها ، *اللعين يحاول كسب الوقت ليفكر* .

«حسنا» ، يقول ، «لا أعرف كيف أجيب» .

«فتشت في أغراض غيرك؟» تقول شيريل وهي تقف .

«أجل فعلت . أعرف أن في هذا خرقا لقواعد المنزل ، لكن علينا الآن أن نتحدث فيما اكتشفته»

يحل الصمت على الغرفة من جديد . مالوري لا تزال واقفة ، مستثارة .

«غاري؟» يلح جولز .

ينحني غاري على كرسيه . يتنفس نفسا عميقا . يشبك ذراعيه على صدره ، ثم يسدلهما . يبدو جادا . مستاءً . ثم يبتسم ابتسامة

عريضة ، ويقف ويذهب إلى المحفظة . يحملها ويضعها على الطاولة .

الآخرون يحدقون بالمحفظة ، لكن مالوري لا تفارق وجه غاري .

يفتح المحفظة ، ثم يخرج الدفتر .

«أجل» ، يقول غاري ، «ما زلت أحتفظ به . ما زلت أحتفظ بدفتر فرانك» .

«دفتر فرانك؟» تردد وراءه مالوري .

«أجل» ، يقول غاري وهو يلتفت إليها . ثم يضيف ، بنفس النبرة النبيلة المسرحية «أيتها المتلصصة الوضيعة» .

فجأة ، يتكلم الجميع دفعة واحدة . فيلكس يطلب الدفتر . شيريل تريد أن تعرف متى وجدته مالوري . دون يشير إلى مالوري بإصبعه ويصرخ .

في خضم هذه الفوضى العارمة ، يقول غاري وهو لا يزال ينظر إلى مالوري ، «أيتها *العاهرة* الحبلى المجنونة» .

يثب جولز عليه . الكلبان ينبحان . يفصل توم بينهما ويصرخ بالجميع أن توقفوا . توقفوا . مالوري لا تتحرك . تحدق بغاري .

يتراجع جولز .

«عليها أن تفسر لنا ما فعلته و*فورا*» ، ينفجر دون . انتصب على قدميه وهو الآن يشير إلى مالوري بغضب .

ينظر إليها توم .

«مالوري « ، يقول .

«لا أثق به»

الرفاق يريدون منها أكثر من هذا .

تقول أوليمبيا «ماذا كتب في الدفتر؟»

«أوليمبيا!» ، تقول مالوري ، «هو ذا الدفتر *أمامك* . اقرئي الدفتر اللعين بنفسك» .

لكن فيلكس سبقها إليه .

«لم تحتفظ بتذكار من رجل عرض حياتك للخطر؟» يسأل .

«لأجل هذا *تحديدا* أحتفظ به» ، يقول غاري بإلحاح ، «أردت أن أعرف كيف كان فرانك يفكر . عشت معه عدة أسابيع ولم يخطر ببالي أبدا أنه قد يحاول قتلنا . لعلي تمسكت به لأحذر نفسي . لأكون على يقين من أنني لم أكن أفكر مثله ، وأن لا أحد منكم يفكر مثله .»

تهز مالوري رأسها بعنف .

«قلت لنا إن فرانك أخذ الدفتر معه» ، تقول .

يهم غاري بالإجابة ، ثم يتوقف .

«لا إجابة مقنعة عندي على هذا» ، يقول غاري ، «ربما ظننت أنكم ستخافون إن علمتم أن الدفتر معي . ظنوا بي ما شئتم ، لكني أتمنى أن تثقوا بي . أنا لا ألومك على أنك فتشت في حقيبة غيرك ، رغم الظروف التي نعيش فيها جميعا ، فلا أقل من أن تدعيني أدافع عن نفسي» .

الدفتر بين يدي توم الآن . الكلمات تزحف تحت ناظريه .

يستلمه منه دون . قسمات وجهه الغاضبة تتحول بهدوء إلى حيرة .

عندئذ ، وكأنها تدرك أن الأمر أعظم من أن يحله أي اقتراع ، تشير مالوري بإصبعها إلى غاري وتقول «لم يعد بإمكانك البقاء هنا . عليك أن *ترحل*»

«مالوري» ، يقول دون وهو لا يعني حقا ما يقول ، «بحقك ، الرجل يحاول أن يفسر لنا ما فعل»

«دون» ، يقول فيلكس ، «هل فقدت صوابك؟»
الدفتر لا يزال بين يديه . يلتفت دون إلى غاري
«غاري» ، يقول ، «أنت تدرك ولا شك كم يبدو موقفك سيئا»
«أجل ، بالطبع أدرك»
«هذا ليس خط يدك؟ أيمكنك أن تثبت ذلك؟»
يخرج غاري قلما من المحفظة ويخط اسمه على ورقة في الدفتر .
يلقي توم إليه نظرة سريعة .
«غاري» ، يقول توم ، «علينا نحن أن نتشاور . يمكنك أن تجلس هنا إن شئت . ستسمعنا على أي حال من الغرفة الأخرى»
«أفهم ما تعنيه» ، يقول غاري ، «أنت ربان هذه السفينة فالأمر إليك»
تنتاب مالوري رغبة في صفعه .
«حسنا» ، يقول توم بهدوء للباقين ، «ما العمل؟»
«عليه أن يرحل» ، تقول شيريل دون تردد .
عندئذ يبدأ توم بجمع الأصوات .
«جولز؟»
«لا يمكنه أن يبقى هنا يا توم»
«فيلكس؟»
«أود لو أقول لا . أود لو أقول إنه لا يمكننا أن نقترع لإخراج أحدنا من المنزل ، لكنني لا أرى سببا يبرر احتفاظه بالدفتر» .
«توم» ، يقول دون ، «نحن الآن لا نقترع لخروج أحدنا بمحض إرادته . نحن نقترع لإجباره على الخروج . هل تريد أن يبكتك ضميرك بسبب هذا؟»

يلتفت توم إلى أوليمبيا .
«أوليمبيا؟»
«توم» ، يقول دون .
«لقد أدليت بصوتك يا دون»
«لا يمكنك أن تجبر أحدا على الخروج يا توم»
الدفتر لا يزال على الطاولة . مفتوحا . الكلمات مبسوطة كاملة نقية .
«أنا آسف يا دون» ، يقول توم .
يلتفت دون إلى أوليمبيا ، وكله أمل .
لكنها لا تجيب . وهذا لا يهم كثيرا ، فلقد أصدر المنزل حكمه .
يقوم غاري . يتناول الدفتر ويعيده إلى المحفظة . يقف خلف كرسيه ويرفع ذقنه . يومئ برأسه .
«توم» ، يقول غاري ، «هل يمكنني الحصول على واحدة من خوذك؟ أطلب منك هذا كما يطلب جار من جاره»
«طبعا» ، يقول توم بهدوء .
يغادر توم الغرفة . يعود ومعه خوذة وبعض الطعام ، ويناول غاري كلَّ ذلك .
«هكذا توضع إذا؟» يقول غاري وهو يسوي رباط الخوذة .
«ما أفظع هذا» ، تنوح أوليمبيا .
يعين توم غاري على ارتداء الخوذة . ثم يقوده إلى باب المنزل ، يتبعهما الرفاق مجتمعين .
«أظن أن منازل هذا الحي كلها فارغة من سكانها» ، يقول توم ، «و بالنظر لما اكتشفناه جولز وأنا ، يمكنك أن تختار أي واحد منها»

«أجل» ، يقول غاري مبتسما بتوتر خلف عصابته ، «أعتقد أن هذا مشجع للغاية» .

والنار تضطرم في داخلها ، تراقب مالوري غاري بعناية .

وإذ تغمض عينيها ، وإذ يفعلون جميعُهم ، تسمع باب المنزل يفتح ويغلق . وبين فتحه وغلقه يخيل إليها أنها تسمع وقع خطواته على العشب . تفتح عينيها فلا ترى دون واقفا مع الآخرين في البهو . تظن أنه غادر مع غاري ، ثم تسمع شيئا يتحرك في المطبخ .

«دون؟»

ينخر . تعلم أنه هو .

يغمغم شيئا قبل أن يفتح باب القبو ويصفقه .

شتيمة أخرى . كالها لمالوري .

وإذ يتفرق الآخرون في صمت ، تدرك قسوة ما فعلوه .

كأن غاري في كل مكان بالخارج .

لقد أُبعد . نُبذ .

طُرد .

ما الأسوأ؟ تسأل نفسها . *أن نبقيه هنا تحت أعيننا أم أن نخرجه فلا نعود نراه؟*

الفصل الثامن والثلاثون

هل يتبعك غاري؟

صوت شخص ما خلفهم، بعيدٍ ومع ذلك ضمن مجال سمعهم، لا يزال يُسمع.

إنه يريد إخافتك، فهو قادر على أن يلحق بك متى شاء.

غاري.

كان ذلك منذ أربع سنوات!

أيعقل أنه انتظر أربع سنوات لينتقم؟

«ماما»، يهمس الصبي.

«ما الأمر؟»

هي خائفة مما سيقوله.

«الصوت، إنه يقترب»

أين كان غاري طوال هذه السنوات الأربع؟ كان يراقبك. ينتظر خارج المنزل. شاهد الطفلين يكبران. شاهد العالم يزداد برودة وحلكة إلى أن جاء ضباب ظننتِ بسذاجة أنه قادر على تغطيتك. ولقد رأى خلاله. خلال الضباب. رأى كلَّ ما فعلته. لقد رآك، يا مالوري. وكلَّ ما فعلته.

«اللعنة!»، تصيح، *«هذا مستحيل!»*، ثم تلتفت، وعضلاتها تقاوم الألم، وتصرخ «دعنا وشأننا!»

التجذيف ليس كما كان. ليس كما كان عندما انطلقوا في الصباح. آنئذ، كان لديها كتفان قويتان. وقلب ممتلئ حماسا

وطاقة . وأربع سنوات تدفعها إلى الأمام .

بسبب كل ما خاضته ، هي لا تريد أن تصدق أنه من الممكن أن يكون مَن خلفها هو غاري . سيكون ذلك انقلابا قاسيا . إنسان رابض خارج المنزل طوال كل هذه السنوات . لا واحد من تلك المخلوقات . *بل إنسان .*

الإنسان هو المخلوق الذي يخشاه .

هذه الجملة ، جملة غاري ، خمس كلمات لا أكثر ، لم تفارقها منذ الليلة التي قرأتها فيها في القبو . وهل هي إلا صحيحة؟ عندما سمعت عودا ينكسر عبر مكبرات الصوت التي جلبتها عندما خرجت مع فيكتور ، وعندما سمعت خطواتٍ على العشب خارج المنزل ، ما أكثر ما خافته؟ حيوان؟ مخلوق؟

أم الإنسان؟

غاري . دائما غاري .

كان بوسعه الدخول في أي وقت . كان بوسعه أن يكسر نافذة . أن ينقض عليها وهي تجلب الماء من البئر . ترى لم انتظر؟ دائما يتبعها ، دائما يتربص ، وليس جاهزا للانقضاض .

هو مجنون . *على الطريقة القديمة .*

الإنسان هو المخلوق الذي يخشاه

«يا صبي ، هل هو بشر؟»

«لا أعرف يا ماما»

«هل يجذف؟»

«نعم ، ولكن بيده عوضا عن المجذاف»

«أمسرع هو؟ أم أنه ينتظر؟ أخبرني أكثر . أخبرني بكل ما تسمعه» .

من الذي يتبعك؟

غاري .

من الذي يتبعك؟

غاري .

من الذي يتبعك؟

غاري غاري غاري غاري .

«لا أظنه يركب قاربا» ، يقول الصبي فجأة ، وصوته يرن بنبرة فخرٍ أنه استطاع أخيرا أن يميز شيئا .

«ما الذي تعنيه؟ تعني أنه يسبح؟»

«كلا يا ماما . هو لا يسبح ، بل يمشي»

بعيدا خلفها ، تسمع ما لم تسمعه من قبل . كأنه البرق . من نوع جديد . أو كأنها الطيور ، جميعها ، في كل الأشجار ، لم تعد بأيكها تشدو ، أو تهدل ، بل صارت تصرخ .

ويرجع صداه ، مرة ، قاسيا ، عبر النهر ، وتشعر مالوري ببرد لا تستطيع أي ريح خريفية أن تأتي به .

تجذف .

الفصل التاسع والثلاثون

دون في القبو . دون دائما في القبو . صار ينام هناك الآن . هل هو يحفر نفقا حيث التربة مكشوفة؟ هل هو يحفر في الأرض نفقا أعمق وأخفض وأبعد؟ أبعد عن الآخرين؟ أم تراه يكتب؟ يكتب دفترا كالذي وجدته مالوري في محفظة غاري؟

غاري .

مرت خمسة أسابيع منذ رحيله . ما الذي فعله بدون؟

هل كان بحاجة لشخص مثل غاري؟ هل كان بحاجة لأذن أخرى تسمعه؟

دون يغرق في نفسه كما يغرق أبعد فأبعد في المنزل ، والآن هو في القبو .

هو دائما في القبو .

الفصل الأربعون

هي ما ستعتبرها مالوري بعد ذلك آخر ليلة لها في المنزل ، رغم أنها ستمضي السنوات الأربع القادمة هنا . بطنها يبدو في المرآة كبيرا إلى حد يخيفها ، كأنه قد يقع من جسدها . تتحدث إلى الجنين .

«من الآن فصاعدا ، قد تخرج في أي لحظة . ثمة الكثير مما أريد ، ومما لا أريد ، أن أخبرك به»

شعرها الأسود لم يكن طويلا هكذا منذ أن كانت بنتا صغيرة . كانت شانون تغار منه .

تبدين كأميرة . وأنا أبدو كأخت الأميرة ، كانت تقول .

لأنها تعيش الآن على المعلبات وماء البئر ، صار بإمكانها أن ترى بعضا من ضلوعها ، رغم انتفاخ بطنها . ذراعاها نحيفتان كعسلوجين . قسمات وجهها حادة قاسية . عيناها ، وقد غارتا أكثر في محجريهما ، تبدوان مدهشتين في المرآة ، حتى بالنسبة لها هي .

الرفاق مجتمعون في غرفة الجلوس في الأسفل . في وقت أبكر من هذا اليوم ، اتُّصل بآخر الأسماء في دليل الهاتف . لم يعد من أسماء غيرها . قال فيلكس إنهم أجروا ما يقرب من خمسة آلاف اتصال . تركوا سبعة عشرة رسالة لا غير . لكن توم متفائل .

الآن ، بينما مالوري تتفحص جسدها في المرآة ، تسمع كلبا يزمجر في الأسفل .

كأنه فيكتور . تتقدم إلى الرواق وتنصت .

«ما الأمر يا فيكتور؟» ، تسمع جولز يقول .

«هو لا يحبه» ، تقول شيريل
«لا يحب ماذا؟»
«لا يحب باب القبو» .

القبو . لم يعد خافيا أن دون لا يريد أن يكون له شأن مع بقية من في المنزل . عندما بدأ توم عملية الاتصال بأرقام دليل الهاتف وأسند لكل من الرفاق عددا من حروف الأبجدية ، رفض دون الاشتراك وتحجج «بعدم اقتناعه» بجدوى العملية من أساسها . وخلال الأسابيع السبعة التي مضت منذ أن أوصد الباب خلف غاري ،لم يتناول دون معهم طعامه قط ، وهو لا يكاد ينطق بكلمة .

تسمع مالوري كرسيا يُجر على الأرض .

«فيكتور هل أنت بخير؟» ، يقول جولز .

تسمع مالوري باب القبو يفتح ، وجولز ينادي .

«دون؟ هل أنت هنا؟»

«دون؟» تردد شيريل

ثمة جواب مكتوم . يغلق الباب من جديد .

ينتاب مالوري الفضول والقلق فتسدل ثوبها على بطنها وتنزل .

تدخل المطبخ فترى جولز راكعا يواسي فيكتور الذي يذرع الغرفة وينوح . تبحث مالوري في غرفة الجلوس ، فترى توم ينظر إلى النوافذ المغطاة .

إنه يستمع للطيور ، تقول لنفسها ، *فيكتور يخيفه* .

كما لو أنه أحس بأنها تراقبه ، يلتفت توم إلى مالوري . فيكتور ينوح خلفها .

«جولز» ، يقول توم وهو يدخل المطبخ ، «ما تراه يكون؟ ما الذي يخيفه؟»

«لا علم لي . من الواضح أن شيئا ما هيجه . رأيته يخمش باب القبو آنفا . دون في الأسفل . لكن من المستحيل أن تنتزع كلمة منه ، ناهيك أن تقنعه بالصعود» .

«حسنا» ، يقول توم ، «للنزل نحن إذا»

يرفع جولز عينيه إلى توم ، فترى مالوري الخوف في وجهه .

ما الذي فعله بهم غاري؟

لقد قذف الشك في قلوبهم ، تقول مالوري لنفسها ، *جولز يخشى مواجهة دون* .

«هيا» ، يقول توم ، «حان الوقت لنكلمه» .

يقف جولز ويضع يده على مقبض باب القبو . يزمجر فيكتور من جديد .

«ابق هنا يا صغيري» يقول جولز

«كلا» ، يقول توم ، «لنحضره معنا»

يتوقف جولز لبرهة ، ثم يفتح باب القبو .

«دون؟» ، ينادي توم .

لا إجابة .

ينزل توم أولا . ثم جولز وفيكتور . تتبعهما مالوري .

رغم أن النور مضاء ، يبدو المكان مظلما . في البداية ، تعتقد لمالوري أنهم لوحدهم . كانت تتوقع أن تجلس دون جالسا على الكرسي ، يقرأ ، أو يفكر ، أو يكتب . تكاد تقول ألا أحد هنا ، ثم تصرخ .

دون واقف أمام البساط الرفيع ، متكئا على آلة الغسيل في العتمة .

«ما الذي دهى الكلب؟» يسأل بهدوء .

يجيب توم منتقيا كلماته بعناية .

«لا نعلم يا دون . كأن شيئا ما هنا في الأسفل يزعجه . هل كل شيء على ما يرام؟»

«ماذا تقصد بكلامك؟»

«لقد مكثت هنا في الفترة الأخيرة أكثر منا جميعا» ، يقول توم ، «أنا فقط أريد أن أعرف هل كل شيء على ما يرام» .

يتقدم دون إلى النور فتشهق مالوري بهدوء . هو لا يبدو بخير . شاحب . نحيف . شعره الداكن متسخ ومتساقط . قسمات وجهه تشبه الطين في ملمسها . الهالات الداكنة تحت عينيه تجعله يبدو وكأن العتمة التي ظل ينظر إليها طوال أسابيع قد تلبّسه شيءٌ منها .

«لقد اتصلنا بدليل الهاتف كله» ، يقول توم لعله ، تقول مالوري لنفسها ، يجلب شيئا مبهجا لهذا القبو المظلم الرطب .

«هل حالفكم الحظ؟»

«ليس بعد . ولكن من يدري؟»

«أجل ، من يدري»

يصمتون . تدرك مالوري أن الشقاق الذي شعرته به يزداد بينهم صار الآن مطلقا . إنهم يطمئنون على دون . بل إنهم يستوثقون منه . كما لو أنه صار يعيش في مكان آخر . يبدو أنه لم يعد من الممكن إصلاح الوضع .

«ألا تريد أن تصعد معنا؟» يسأله توم بلطف .

يعتري مالوري دوار خفيف . تضع يدها على بطنها .

الطفل . لم يكن يجدر بها أن تنزل سلالم القبو . لكنها لا تقل قلقا على دون من الآخرين .

«لِمَ؟» يجيب دون أخيرا .

«لا أعلم .» يقول توم ، «لعلك تشعر بتحسن إن أمضيت معنا نحن البقية ولو ليلة واحدة»

دون يهز رأسه ببطء . يلعق شفتيه . يلقي نظرة على القبو . على الرفوف والصناديق والكرسي الذي جلست عليه مالوري قبل سبعة أسابيع عندما قرأت الدفتر الذي استخرجته من محفظة غاري .

«حسنا» ، يهمس دون ، «كما تشاء» .

يضع توم يده على كتف دون . تنتاب دون نوبة بكاء فيرفع يده إلى عينيه ليخفيهما .

«أنا آسف يا رجل» ، يقول ، «أنا في حيرة شديدة من أمري يا توم»

«كلنا كذلك» ، يقول توم بهدوء . «تعال معنا . سيسر الجميع برؤيتك» .

في المطبخ ، يخرج توم زجاجة الرم من خزانة . يصب كأسا له وأخرى لدون . يقرعان كأسيهما بلطف . ثم يحتسيان شرابهما .

لبرهة ، يبدو الأمر وكأن شيئا لم ولن يتغير . الرفاق مجتمعون من جديد . مالوري لا تكاد تتذكر آخر مرة رأت فيها دون هكذا ، دون أن يكون غاري ملتصقا به ، شيطانا على كتفه ، يهمس له بمفاهيمه وفلسفاته ، ويلوث عقله بالكلمات نفسها التي قرأتها في الدفتر .

يتمسح فيكتور بساقي مالوري في طريقه إلى المطبخ . وهي تراقبه ينتابها الدوار مرة أخرى .

أحتاج إلى أن أستلقي ، تقول في نفسها .

«فافعلي إذا» ، يقول توم .

لم تدرك مالوري أنها قالت ذلك بصوت عال .

لكنها لا تريد أن تستلقي . تريد أن تجلس مع توم ودون والآخرين وتصدِّقَ ، للحظة ، أن المنزل لا يزال بإمكانه أن يكون كما أريد له أن يكون . مكانا يلتقي فيه غرباء ، يسهم كل منهم بسهمه ويجمعون قواهم على صعيد واحد ، ليواجهوا العالم الخارجي الذي لا يطاق ولا ينفك يتبدل .

ثم إذا بالأمر يبلغ حدا لا تستطيع احتماله . تعصف بمالوري وهي تقف موجةُ غثيان ثالثة فتتعثر . فجأة يظهر جولز إلى جانبها . هو ذا يساعدها على صعود الدرج . تدخل إلى غرفتها وتستلقي على سريرها فترى الآخرين معها في الغرفة . جميعهم ، حتى دون . هم أولاء يحيطونها برعايتهم ، وقد استبد بهم القلق عليها . ينظرون . يسألون هل هي بخير . أيلزمها شيء؟ ماء؟ قطعة قماش مبللة؟ تقول لا ، أو تعتقد أنها تقول لا ، لكنها تنجرف . وبينما هي تغفو ، تسمع صوتا ، يأتيها من خلال الفتحة ، صوت فيكتور من جديد ، يزمجر لوحده في المطبخ .

آخر ما تراه قبل أن تغمض عينيها هم الرفاق متحلقين حولها . ينظرون إليها عن قرب . ينظرون إلى بطنها .

هم يعلمون أن موضع وضعها قد حان .

يزمجر فيكتور من جديد . ينظر دون إلى الدرج .

يغادر جولز الغرفة .

«شكرا يا توم» ، تقول مالوري ، «على أبواق الدراجات» .

يخيل إليها أنها تسمع صوت صندوق الطير يصطدم اصطداما خفيفا بالمنزل ، لكن ذلك ليس إلا صوت هبوب الريح على النافذة .

ثم إذا هي نائمة ، وتحلم بالطيور .

الفصل الواحد والأربعون

الطيور على الأشجار لا تهدأ . كأن آلاف الأغصان تهتز في وقت واحد . كأن ريحا خطيرة تهب هناك فوق . لكن مالوري لا تشعر بها هنا في الأسفل على مستوى على النهر . كلا ، لا ريح تهب . لكن ثمة ما يزعج الطيور ويشوشها .

لقد بلغ الألم في كتف مالوري حدا لم تَخبَره من قبل . تلعن نفسها لأنها لم تنتبه أكثر إلى جسدها في هذه السنوات الأربع الأخيرة . وبدلا من ذلك ، أنفقت وقتها في تدريب الطفلين . إلى أن تجاوزت قدراتهما ما اخترعته لهما من تمارين .

ماما ، لقد سقطت ورقة في البئر!

ماما ، ثمة مطر خفيف على الشارع وهو قادم باتجاهنا!

ماما ، لقد حط عصفور على الغصن وراء نافذتنا!

هل سيسمع الطفلان الصوت المسجل قبل أن تسمعه هي؟ يجب عليهما أن يفعلا . وعندما سيحصل ذلك ، سيحين الوقت لتفتح عينيها . لتنظر إلى حيث يتفرع النهر إلى أربع قنوات . عليها أن تسلك القناة الثانية من اليمين . هذا ما قيل لها أن تفعله .

وقريبا سيكون عليها أن تفعل ما قيل لها .

الطيور تهدل في الأشجار . ثمة حركة على الضفتين . هل هو إنسان ، حيوان ، أم وحش . لا تعلم .

الخوف الذي تشعر به يتخذ مكانته المكينة في وسط روحها .

والطيور على الأغصان فوقهم مباشرة بدأت تهدل الآن .

تفكر بالمنزل . بآخر ليلة أمضتها مع الرفاق ، كلّهم مجتمعين . كانت الريح تهب بعنف على النوافذ . كانت عاصفة تتحضر . عاصفة هوجاء . لعل الطيور في الأشجار تعلم بها . أو لعلها تعلم شيئا آخر .

«لا أستطيع أن أسمع» ، تقول البنت فجأة ، «الطيور ، يا ماما . صوتها عال جدا!»

تتوقف مالوري عن التجذيف . تفكر بفيكتور .

«كيف تبدو لكما من أصواتها؟» تسأل الطفلين .

«خائفة!» تقول البنت

«مجنونة!» يقول الصبي

كلما أرهفت مالوري سمعها للأشجار ، بدا لها الأمر أسوأ .

كم منها هناك في الأعلى؟ كأنها كثيرة لا حصر لها . كأنها اللانهاية .

هل سيسمع الطفلان التسجيل في خضم كل هذا النشاز الذي يخيم عليهم؟

جن فيكتور . الحيوانات أيضا تجن .

أصوات الطيور لا تنبئ بأنها بخير .

ببطء ، ودون أن ترى شيئا ، تنظر خلف كتفها نحو ذلك الذي يتبعهم .

عيناك مغمضتان ، تقول لنفسها . تماما كما كانتا مغمضتين في كل مرة ذهبت فيها لجلب الماء من البئر . وفي كل مرة حاولت فيها أن تقودي سيارتك لتحضري مكبرات الصوت . كانت عيناك مغمضتين بينما عينا فيكتور لم تكونا كذلك . ما الذي يقلقك؟ ألم

يسبق لك أن اقتربت؟ ألم يسبق لك أن اقتربت من أحدها حتى ظننت أنك ستشمين رائحته؟

بلى .

أضيفي التفاصيل ، تقول لنفسها . فهي فكرتك عن شكلها كيف هو ، والتفاصيل تضاف إلى جسد وإلى شكل لا فكرة لك عنهما . إلى وجه قد لا يكون له وجه على الإطلاق .

المخلوقات كما تتخيلها تمشي ولا أفق يحدها والمدى أمامها مفتوح . تقف خارج نوافذ ما كان قبل ذلك مساكنَ وتحدق في زجاجها بفضول . تدرس . تفحص . تراقب . تفعل ما لا تستطيع مالوري أن تفعله .

تنظر .

هل تدرك المخلوقات أن الأزهار في الحديقة جميلة؟ هل تعرف في أي تجاه يجري النهر؟ هل تعرف؟

«ماما» ، يقول الصبي .

«ما الأمر؟»

«الضجيج ، يا ماما ، كأنه صوت شخص يتكلم»

تفكر بالرجل على القارب . تفكر بغاري . حتى الآن ، وهي بعيدة كل البعد عن المنزل ، تفكر بغاري .

تحاول أن تسأل الصبي ماذا يعني ، لكن أصوات الطيور ترتفع في موجة عجيبة ، تكاد تكون سيمفونية ، من الزعيق .

كأن الطيور أكثر مما تستطيع الأشجار أن تحمله .

كأنها تغطي السماء كلها وتحل محلها .

الجنون يرن في أصواتها . الجنون يرن في أصواتها . يا إلهي الجنون يرن في أصواتها .

من جديد تلتفت مالوري إلى ما وراء كتفها رغم أنها لا تستطيع أن ترى. لقد سمع الصبي صوتا. لقد جنت الطيور. من الذي يتبعهم؟

لكنهم الآن لا يشعرون بأن شيئاما يتبعهم، بل بأن ذلك الشيئ قد لحق بهم.

«إنه صوت إنسان!» يصيح الصبي، كما لو أنه يفيق من حلم، وصوته يخترق الضجيج الذي لا يحتمل من فوقه.

مالوري على يقين من ذلك. لقد رأت الطيور شيئا ما في الأسفل.

نشيد الطيور المشترك يتضخم ويبلغ ذروته قبل أن ينبسط ويلتوي والحدود تنفجر. تسمع مالوري ذلك كأنها داخله. كأنها صيدت في مَطْيَرة كبير به ألف طائر مجنون. كأن قفصا كبيرا قد أنزل عليهم جميعا. صندوق من الكرتون. صندوق طير. يحجب عنهم الشمس إلى الأبد.

ما هو؟ ما هو؟ ما هو؟

اللانهاية.

من أين جاء؟ من أين جاء؟ من أين جاء؟

اللانهاية.

الطيور تصرخ. والضجيج الذي تصدره ليس شدوا.

تصيح البنت.

«شيء ما أصابني يا ماما! شيء ما وقع!»

مالوري تشعر به أيضا. تحسبه مطرا.

إلى حد لا يطاق، يرتفع صوت الطيور أكثر. صار يصم الآذان، زعيقا. تضطر مالوري إلى سد أذنيها. تنادي الطفلين وتهيب بهما أن يفعلا.

يحط شيء ما بعنف على كتفها الجريحة فتعوي وتنتفض ألما .

بوحشية ، ويدها ممسكة بعصابة عينيها ، تفتش القارب بحثا عما ضربها .

تصيح البنت من جديد .

«ماما! «

لكن مالوري تجده . ما بين إبهامها وسبابتها ليس قطرة مطر ، بل الجسد المكسور لعصفور صغير . هي تشعر بجناحه الطري .

مالوري تعلم الآن .

في السماء فوق ، حيث لا يمكنها أن تنظر ، الطيور تتحارب . الطيور تتقاتل .

«غطيا رأسيكما! تمسكا بعصابتيكما! « .

ثم إذا هي تضرب كموجة . أجساد مجنحة تنهمر من السماء . ينفجر النهر تحت ثقل آلاف الطيور التي تخر في الماء . تضرب القارب . تغطس . تصاب مالوري . الطيور تصيب رأسها ، ذراعها . تصاب مرارا وتكرارا .

إذ يسيل دم الطيور على خديها ، مالوري تستطيع أن تذوقها .

يمكنك أن تذوقيه أيضا . الموت . الهلاك . التعفن . السماء تقع ، السماء تموت . السماء ميتة .

تنادي مالوري الطفلين ، لكن الصبي يسبقها إلى الكلام ويحاول أن يخبرها شيئا .

«ريفربريدج» ، يقول ، «رقم مائتين وثلاثة وسبعين شيلينغهام . . .اسمي . . .»

«ماذا؟»

جائمة تميل مالوري إلى الأمام . تضغط شفتي الصبي على أذنها ضغطا شديدا .

«ريفربريدج» ، يقول ، «رقم مائتين وثلاثة وسبعين شيلينغهام .اسمي توم» .

تقف مالوري ، جريحة ، وهي تشد على عصابتها .

اسمي توم .

الطيور تضرب جسدها . تسقط على القارب بصوت مكتوم .

لكنها لا تفكر بها ولا تلقي لها بالا .

بل تفكر بتوم .

مرحبا! أنا أتصل من ريفربريدج . رقم مائتين وثلاثة وسبعين شيلينغهام . اسمي توم . أنتم بالطبع تدركون مدى سعادتي بأني توصلت بمجيبكم الآلي . هذا يعني أن الكهرباء لم ينقطع عنكم بعد . وكذلك نحن . . .

تهز مالوري برأسها .

لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا .

«لا!»

لقد سمعه الصبي أولا . صوت توم . مسجلا ومشغلا بلا انقطاع . لقد شغل الشريط . لأجلها . لأجل مالوري . إن قررت يوما أن تركب النهر . متى يحن ذلك اليوم . توم ، توم الحبيب ، يتكلم هنا طوال سنوات . يحاول أن يجري اتصالا . يحاول أن يصل إلى أي كان . يحاول أن ينشئ جسرا بين حياتهم في المنزل وحياة أخرى أفضل من هذه ، في مكان آخر .

لقد استعملوا صوته لأنهم كانوا يعلمون أنك ستتعرفين عليه . حان الوقت يا مالوري .

هذه هي اللحظة التي يفترض فيها أن تفتحي فيها عينيك .

كم هو العشب أخضر؟ كم هي أوراق الشجر ملونة؟ كم هو أحمر دم الطيور المنتشر في النهر تحتها؟

«ماما!» ينادي الصبي .

ماما عليها أن تفتح عينيها ، تريد أن تقول له ، *ماما عليها أن تنظر* .

لكن الطيور جنت .

«ماما!» ينادي الصبي من جديد .

تجيب . ولا تكاد تعرف صوتها .

«ما الأمر يا صبي؟»

«شيء ما معنا يا ماما ، شيء ما هنا» .

يتوقف القارب .

شيء ما أوقفه .

بإمكانها أن تسمعه يتحرك في الماء بجانبهم .

هذا ليس حيوانا ، *تقول في نفسها* . *هذا ليس غاري* . *إنه الشيء الذي كنت تختبئين منه أربع سنوات ونصف السنة* . *إنه الشيء الذي سيمنعك من أن تنظري* .

تستعد مالوري .

شيء ما في الماء على يسارها . على بعد سنتيمترات من ذراعها .

الطيور في الأعلى تبتعد . كما لو أنها ترتفع وترتفع في اندفاع مجنون إلى تخوم السماء .

بإمكانها أن تشعر بحضور شيء بجانبها .

الطيور تزداد هدوءا . وإذ تهدأ ، تختفي . ترتفع . لقد ذهبت .

يستمر صوت توم . النهر يجري حول القارب .

تصرخ مالوري إذ تشعر بعصابة عينيها تنتزع من وجهها .

لا تتحرك .

تتوقف العصابة على بعد بوصة من عينيها المغمضتين .

أيمكنها أن تسمعه؟ يتنفس؟ هل هذا هو ما تسمعه؟ أهذا هو؟

توم ، تقول في نفسها ، *توم يرسل لي رسالة .*

صدى صوته يرجع عبر النهر ، محملا بالأمل ، حيا .

توم . *سيكون علي أن أفتح عيني . كلمني أرجوك . قل لي ماذا أفعل . توم ، سيكون علي أن أفتح عيني .*

صوته يأتي من أمامها . كأنه الشمس ، النور الوحيد في كل هذه الظلمات .

تُسحَب العصابة قليلا بعد عن وجهها . العقدة تضغط رأسها من الخلف .

توم ، سيكون علي أن أفتح عيني .

وكذلك . . .

الفصل الثاني والأربعون

. . . تفعل .

تجلس مالوري على سريرها وتمسك ببطنها قبل أن تدرك أنها تنوح منذ مدة . السرير مبتل .

يهرع رجلان إلى داخل الغرفة . كل شيء خيالي للغاية

(هل أنا حقا أضع طفلا؟ طفلا؟ كنت حبلى كل هذا الوقت؟)

ومخيف للغاية

(أين شانون؟ أين أمي؟)

أنها ، في البداية ، لم تعرف أنهما فيلكس وجولز .

«اللعنة» ، يقول فيلكس . «أوليمبيا في الأعلى . لقد بدأ مخاض أوليمبيا منذ ساعتين»

أين في الأعلى؟ تقول مالوري في نفسها . *أين في الأعلى؟*

يمسكها الرجلان بحذر ويعينانها على التحرك إلى حافة السرير .

«هل أنت مستعدة لهذا؟» يسأل جولز بقلق .

تنظر إليه مالوري . شعر حاجبها مجعد ، ووجهها متورد وشاحب في الوقت نفسه .

«كنت نائمة» ، تقول ، «كنت فقط . . .أين في الأعلى يا فيلكس؟»

«هي جاهزة» ، يقول جولز وهو يتكلف الابتسام محاولا طمأنتها . «تبدين رائعة يا مالوري . تبدين جاهزة» .

تهم بالسؤال «أين -»

لكن فيلكس يجيبها قبل أن تتم جملتها

«سنقوم بهذا في العلية . توم يقول إنها آمن مكان في المنزل . في حال حدث حادث ما . لكن لن يحدث شيء . لقد سبقتك أوليمبيا إلى هناك . مخاضها بدأ منذ ساعتين . توم وشيريل معها الآن . لا تخشي شيئا يا مالوري ، سنبذل قصارى جهدنا» .

لا تجيب مالوري . الإحساس بأن بداخلها شيئا يجب إخراجه هو أشد الأحاسيس التي عرفتها في حياتها غرابة وإثارة للرعب . يمسك بها الرجلان ، كل من جهة ويسيران بها إلى خارج الغرفة ، إلى العتبة وعبر الرواق إلى مؤخرة المنزل . تُسحب سلالم العلية بينما يحاولان أن يسنداها ، وترى مالوري البطانيات التي تغطي النافذة في آخر الرواق . تتساءل أيُّ وقت من النهار يكون . أم هل هي الليلة الموالية ، أم أن أسبوعا كاملا قد مرّ .

هل أنا حقا على وشك أن أضع طفلي؟ الآن؟

يساعدها فيلكس وجولز على صعود السلالم الخشبية القديمة . تسمع أوليمبيا في الأعلى . وصوت توم الدافئ يقول أشياء مثل تنفسي ، ستكونين بأحسن حال ، أنت بخير .

«لعل الأمور لن تكون مختلفة كثيرة في نهاية المطاف» ، تقول (حمدا لله ، الرجلان يساعدانها على صعود السلالم التي تَصِرّ تحت قدميها) . «لعل الأمور لن تكون مختلفة كثيرة عما أملت أن تكون» .

المكان هنا أوسع مما تخيلته . ثمة شمعة واحدة تضيئه . أوليمبيا على منشفة في الأرض . شيريل بجانبها . ركبتا أوليمبيا مرفوعتان وملاءة خفيفة تغطيها من الحوض فما تحت . يقودها جولز إلى حيث منشفة أخرى مقابلة لأوليمبيا . يقترب توم من مالوري .

«مالوري! تقول أوليمبيا . أنفاسها مقطوعة وجزء منها فقط

يتعجب بينما باقي أجزائها تضغط وتتلوى . «كم أنا سعيدة بمجيئك!»

الدهشة تستبد بمالوري وينتابها رغما عنها الشعور بأنها لا تزال نائمة إذ تنظر فوق ركبتيها المغطاتين وترى مالوري قبالتها كأنها انعكاس لها .

«منذ متى أنت هنا يا أوليمبيا؟»

«لا أعرف ، أظنني هنا منذ الأزل!»

فيلكس يتكلم بهدوء مع مالوري ، يسألها عما يلزمها ثم ينزل ليحضره لها . يذكر توم شيريل بأن تحافظ على نظافة الأشياء . ستكونان بخير ، يقول ، طالما تبقيان نظيفتين . سيستخدمون في توليدهما ملاءات ومنشفات نظيفة ، معقما لليدين من منزل توم ، ودلوي ماء من البئر .

يبدو توم هادئا ، لكن مالوري تعلم أنه ليس كذلك .

«مالوري؟» ، يسأل توم .

«نعم؟»

«أيلزمك شيء؟»

«ماء ، وبعض الموسيقى كذلك يا توم»

«موسيقى؟»

«أجل . موسيقى هادئة وخفيفة ، أعني ، موسيقى لعلها-» موسيقى لتغطي صوت جسدي الملقى على أرض علية خشبية- «موسيقى الناي . نعم ، ذلك الشريط»

«حسنا» ، يقول توم ، «سأذهب لإحضاره» .

ويفعل ، متخطيا إياها إلى الدرج الذي يبدأ نزوله خلفها مباشرة . تركز اهتمامها على أوليمبيا . لا تزال تجد صعوبة في تبديد

ضباب النعاس عنها . ترى مدية صغيرة إلى جانبها على منشفة ورقية ، على بعد أقل من قدم عنها . لقد غطستها شيريل لتوها في ماء الدلو .

«يا إلهي!» تصرخ فجأة أوليمبيا ، فيركع فيلكس ويأخذ بيدها .

مالوري تشاهد .

هؤلاء الناس ، تقول في نفسها ، من يردون على إعلان كهذا منشور في صحيفة . هؤلاء الناس هم من ذلك النوع الذي يتخطى المحن وينجو .

تغمرها موجة سلام عابرة . تعلم أنها لن تطول . الرفاق يتخايلون لها ، بوجوههم ، واحدا واحدا . تشعر تجاه كل واحد منهم بما يشبه الحب .

يا إلهي ، تقول لنفسها ، *كم كنا شجعانا* .

«*يا إلهي!*» ، تصرخ أوليمبيا فجأة ، وتهرع إليها شيريل .

ذات مرة ، بينما كان توم هنا في العلية يبحث عن شريط ، بقيت مالوري تشاهد من أسفل السلالم . لكنها لم تصعد إلى هنا أبدا . هي الآن تتنفس بصعوبة وتنظر إلى الستائر التي تغطي النافذة الوحيدة وتنتابها رِعدة . حتى العُلية تمت حمايتها . غرفة لا يكاد يدخلها أحد ومع ذلك احتاجت إلى بطانية . تسافر عيناها على إطار النافذة الخشبي ، ثم على الجدران المغطاة ، والسقف المسنون ، وصناديق الأشياء التي خلفها جورج وراءه . وتمضي عيناها إلى رزمة من البطانيات المكومة . صندوق أخر من القطع البلاستيكية . كتب قديمة . ملابس قديمة .

أحدهم واقف أمام الملابس القديمة .

إنه دون .

تشعر مالوري بانقباض .

يعود توم بكأس من الماء وبالجهاز الصغير الذي يشغلون فيه الأشرطة .

«ها هو يا مالوري» ، يقول ، «لقد وجدته» .

تنبعث أصوات كمنجات كالطقطقة من مكبرات الصوت الصغيرة . مالوري تعتبرها ممتازة .

«شكرا» ، تقول .

يبدو وجه توم متعبا للغاية . عيناه متورمتان وبالكاد مفتوحتان . كأنه لم ينم إلا ساعة أو أقل من ساعة .

تشعر مالوري بتشنج حاد حتى أنها في البداية لا تصدق أنه حقيقة . كأن فخا للدببة قد أطبق على خصرها .

تأتي أصوات من خلفها ، في أسفل سلالم العلية . إنها شيريل . وجولز . هي لا تكاد تعرف من معها هنا ومن ليس هنا .

«يا إلهي!» تنادي أوليمبيا .

توم معها . وفيلكس بجانب مالوري من جديد .

«ستفعلينها» ، تنادي مالوري أوليمبيا .

وفي اللحظة نفسها ، يهزِم الرعد في الخارج . يهطل المطر شديدا على السقف . المطر ، بشكل ما ، هو الصوت الذي كانت تبحث عنه بالضبط . العالم في الخارج يرن كما تشعر هي في داخلها . عاصفا . منذرا . منفرا . الرفاق ينبثقون من الظلال ، ثم يختفون من جديد . توم يبدو قلقا . أوليمبيا تتنفس بصعوبة وتلهث . السلالم تصِر . شخص آخر هنا . إنه جولز مرة أخرى . توم يصرخ به ويقول له إن أوليمبيا متقدمة أكثر من مالوري . الرعد يدوي في الخارج . وإذ يضرب البرق ، ترى دون بارزا ، قسماته مكفهرة وعيناه غائرتان

عميقا وتحتهما حلقات داكنة .

ضغط لا يحتمل يحكم قبضته على خصرها . كأن جسدها يتحرك لوحده ، ويرفض رغبة عقلها في أن ينعم ببعض السكينة .

تصرخ فتترك شيريل أوليمبيا وتأتي إليها . مالوري لم تكن حتى تعلم بأن شيريل لا تزال هنا .

«هذا فظيع» ، تهس أوليمبيا .

تفكر مالوري في النساء اللواتي تتبادلن دوراتهن . النساء اللواتي تتناغم إيقاعات أجسادهن . لفرط ما تحدثتا عمَّن ستلد أولا ، لم تفكر لا هي ولا أوليمبيا ولو على سبيل المزاح في أن المخاض قد يأتيهما في وقت واحد .

كم تمنت مالوري أن تلد كما تلد كل النساء!

رعد أكثر .

صار المكان معتما أكثر . يحضر توم شمعة ثانية ويضيئها ويضعها على الأرض على يسار مالوري . على شعلتها المرتعشة ترى فيلكس وشيريل لكنها لا تستطيع تبين أوليمبيا . صدرها ووجهها تغطيهما ظلال مرتعشة .

ينزل أحدهم السلالم من خلفها . هل هو دون؟ لا تريد أن تمد عنقها . يتقدم توم عبر ضوء الشمعة ثم يخرج من مجاله . ثم فيلكس ، يخيل لها ، ثم شيريل . الأخيلة تتحرك منها إلى أوليمبيا كالأشباح .

المطر يهطل أشد على السقف .

ثمة اضطراب وصخب مفاجئان في الأسفل . مالوري ليست على يقين من ذلك لكنها تعتقد أن أحدهم يصرخ . هل يخلط عقلها المتعب بين الأصوات؟ من الذي يجادل؟

الأصوات في الأسفل هي فعلا أصوات جدال .
مالوري لا يمكنها أن تفكر في هذا الآن . ولن تفعل .
«مالوري؟» ، تصرخ مالوري إذ يظهر وجه شيريل بجانبها ، «اضغطي على يدي . اكسريها إن لزم الأمر» .
مالوري تريد أن تقول ، *أنيروا المكان . إيتوني بطبيب . أخرجوا هذا الشيء مني .*
بدل ذلك تجيب بنخير .
إنها تضع مولودها الآن . لم يعد مجال لطرح السؤال متى .
هل سأرى الأشياء مختلفة الآن؟ كنت أرى الأشياء كلها بمنظار هذا الطفل . هكذا كنت أرى المنزل . والرفاق . والعالم . هكذا كنت أرى الأخبار عندما بدأ هذا الأمر وهكذا كنت أراها عندما انتهى . كنت مرعوبة ، شكاكة ، غاضبة ، وأكثر من ذلك . عندما سيسترد جسدي شكله الذي كان عليه عندما كنت أمشي في الشارع بحرية ، هل سأرى الأشياء مختلفةً مرة أخرى؟
كيف سيبدو توم؟ وأي وقع سيكون لأفكاره؟
«مالوري!» تنادي أوليمبيا في العتمة . «لا أظنني أستطيع أن أفعل هذا!»
شيريل تقول لأوليمبيا إنها تستطيع وأنها تكاد تصل .
«ما الذي يجري في الأسفل؟» تسأل مالوري فجأة .
دون في الأسفل . بإمكانها سماعه وهو يجادل . جولز أيضا . أجل ، دون وجولز يتجادلان في الرواق تحت العلية . هل توم معهما؟ أم فيلكس؟ كلا . فيلكس يخرج من العتمة ويمسك يدها .
«هل أنت بخير يا مالوري؟»
«كلا» ، تقول ، «ما الذي يجري بالأسفل؟»

يسكت ، ثم يقول ، «لا أعلم . لكن أمامك أمورا لتقلقي بشأنها أهمَّ بكثير من أشخاص يتواجهون»

«أهو دون؟» تسأل .

«لا تشغلي بالك بهذا يا مالوري»

المطر يشتد . كأن لكل قطرة ثقلا خاصا بها يُسمع .

ترفع مالوري رأسها لترى عيني أوليمبيا تحدقان بها في العتمة .

في هذه اللحظة ، يخيل لمالوري أنها سمعت صوتا آخر .

ما وراء المطر ، والجدال ، والهرج والمرج في الأسفل ، تسمع مالوري شيئا . أعذب من عزف الكمنجات .

ما هو؟

«اللعنة!» ، تصرخ أوليمبيا . «كفى!»

مالوري تجد صعوبة أكبر في التنفس . كأن الطفل يقطع عنها الهواء . كأنه يتسلق حلقها بدل الهواء .

توم هنا . بجانبها .

«أنا آسف يا مالوري»

تلتفت إليه . والوجه الذي تراه ، تلك النظرة في عينيه ، هي شيء ستظل تتذكره بعد سنوات من هذه الصبيحة .

«آسف على ماذا يا توم؟ آسف على أن الأمور تجري على هذا النحو؟»

عينا توم تبدوان حزينتين . يومئ أن نعم . كلاهما يعلم ألاَّ داعي له ليعتذر ، لكن كلاهما يعرف أيضا أنه لا يفترض بأي امرأة أن تضع حملها في علية منزل لا تسميه سَكَنَها إلا لأنها لا تستطيع مغادرته .

«أتعلمين؟» يقول بلطف وهو ينحني ليمسك بيدها ، «أظن أنك

ستكونين أما رائعة . وأنك ستربين هذا الطفل أحسن تربية فلا يعود مُهمًا إن استمر العالم كما هو الآن أم لا « .

بالنسبة لمالوري الأمر أشبه بِملزمة فولاذية صدئة تحاول الآن أن تخرج الطفل منها . سلسلةُ شاحنة قَطر تجرها من العتمة أمامها .

«توم» ، تقول بعد جهد ، «ما الذي يجري في الأسفل؟»

«دون غاضب . هذا كل ما في الأمر» .

تريد أن تفيض أكثر في الحديث عنه . هي لم تعد غاضبة من دون ، بل إنها قلقة بشأنه . وبشأن كل رفاق السكن . العالم الجديد أثّر فيه أكثر منهم جميعا ، فتاه فيه على غير هدى . في عينيه ما هو أشد خواءً من اليأس . مالوري تريد أن تقول لتوم إنها تحب دون وإنهم جميعا يحبونه وأنه بحاجة للمساعدة وحسب . لكن الألم هو كل ما بوسعها أن تفكر فيه ، والكلمات الآن مستحيلة . الجدال الدائر في الأسفل يبدو لها الآن كنكتة ، كما لو أن أحدا يمازحها . كما لو أن المنزل يقول لها ، *أترين؟ تحلي بشيء من حس الدعابة رغم الألم الهائل الذي يعتصرك هنا ، في عليتي* .

لقد عرفت مالوري الإنهاك والجوع . الألم الجسدي والإعياء الذهني الحاد . لكنها لم تعرف أبدا الحالة التي هي عليها الآن . إن لها الحق في أن لا تهتم بمشاجرات الرفاق الصبيانية ، بل إنها تستحق أن يخرجوا من المنزل جميعا ويقفوا معصوبي الأعين في الفناء مهما طال الوقت حتى ينجز جسدها وجسد مالوري ما يجب عليهما إنجازه .

يقف توم .

«سأعود حالا» ، يقول ، «أآتيكِ بمزيد من الماء؟»

تهز مالوري رأسها أن لا وترجع بصرها إلى الظلال وإلى الملاءة

حيث تخوض أوليمبيا صراعها أمامها .

«نحن نفعلها!» فجأة تقول أوليمبيا ، بهوس . «الأمر يحصل فعلا!» .

أصوات كثيرة . الأصوات في الأسفل ، الأصوات في العلية (الصادرة من الظلال والصادرة من الوجوه التي تصدر من تلك الظلال) ، درجات السلم التي تصر كلما صعد واحد من الرفاق أو نزل ليتفقد الوضع هنا ثم الوضع (هي تعلم أن ثمة خطبا ما في الأسفل ، كل ما في الأمر أنها لا تملك أن تهتم له الآن) الدائر في الطابق السفلي الذي يلي العلية . المطر يهطل لكن ثمة شيئ آخر . صوت آخر ، آلة موسيقية ربما . من أعلى خانات بيانو غرفة الجلوس .

فجأة ، ولدهشتها ، تغمر مالوري موجة سلام أخرى . رغم آلاف النصال التي تخترق رئتيها ، تدرك أنه مهما تفعل ومهما يكن ، فالطفل سيخرج . هل يهم أيّ عالم ستأتي بالطفل إليه؟ أوليمبيا على حق . الأمر يحصل فعلا . الطفل قادم . الطفل على وشك أن يولد . وهو ينتمي للعالم الجديد منذ البداية .

هو يعرف القلق ، والخوف وهوس الشك . لقد قلق عندما خرج جولز وتوم يبحثان عن كلاب . وتنفس الصعداء حتى الألم عندما رجعا . أخافه تبدل دون . وتبدل المنزل ، إذ تحول من مرفأ مفعم بالأمل إلى مكان يخيم عليه القلق والمرارة . كان قلبه مثقلا عندما قرأتُ الإعلان الذي قادني إلى هنا ، تماما كما كان مثقلا عندما قرأت الدفتر في القبو .

عند كلمة «قبو» ، تسمع مالوري صوت دون في الأسفل .

يصرخ .

لكن شيئا ما من وراء صوته يخيفها أكثر .

«أتسمعين ذلك الصوت يا أوليمبيا؟»

«ماذا؟» ، تقول مالوري بتأفف .

«ذلك الصوت ، كأنه صوت . . .»

«إنه المطر» ، تقول أوليمبيا .

«لا ، ليس هذا ، ثمة صوت آخر ، كأني بنا قد وضعنا طفلينا» .

«ماذا؟»

بالنسبة لمالوري ، الصوت كأنه فعلا صوت طفل . شيء من هذا القبيل ، يتجاوز الرفاق على سفح الدرج ، وربما حتى الطابق الأرضي ، وغرفة الجلوس ، بل ربما حتى -

ربما حتى خارج المنزل .

لكن ما معنى هذا؟ ما الذي يجري؟ أثمة من يبكي على سقيفة المدخل؟

هذا مستحيل . إنه شيء آخر .

لكنه حي .

يبرق البرق . تضاء العلية كلها للحظة قصيرة فتبدو مرعبة . تظل البطانية التي تغطي النافذة ملتصقة بذهن مالوري بعد وقت طويل من مرور البرق ودوي الرعد . تصرخ أوليمبيا عندما يحصل الأمر فتبصر مالوري ، وعيناها مغمضتان ، تعابير الخوف في وجه صديقتها متجمدة في ذهنها .

لكن اهتمامها يرتد من جديد إلى الضغط الذي لا يحتمل في خصرها . يبدو أن أوليمبيا تولول لأجلها . في كل مرة تشعر مالوري بالسكاكين المرعبة تطعنها في خصرها ، تندب أوليمبيا .

هل أنوح لأجلها أنا أيضا؟

يتوقف الشريط . وكذلك الهرج والمرج في الأسفل .

حتى المطر يهمد .

الأصوات الخفيفة في العلية تسمع بشكل أفضل الآن . تنصت مالوري لأنفاسها . خطوات الرفاق الذين ساعدوهما هي وأوليمبيا صارت واضحة .

تنبعث وجوه . ثم تغيب .

هنالك توم (هي على يقين من ذلك)

هنالك فيلكس (تظن ذلك)

هنالك جولز بجانب أوليمبيا الآن .

أهو العالم ينحسر؟ أم أني أبحر أبعد فأبعد في هذا الألم؟

من جديد تسمع ذلك الصوت . كطفل على عتبة الباب . شيء شاب وحي يأتي من الأسفل . إلا أنه الآن أوضح . إلا أنها الآن لم تعد مضطرة إلى أن تشق طريقها إليه عبر الجدال والموسيقى والمطر .

نعم ، هو الآن أوضح ، وأبين . وبينما يمشي توم في العلية ، بإمكانها أن تسمع الصوت بين قدميه ، إذ تلتصق قدمه بالأرض ثم ترتفع فتكشف الأصواتَ الفتية الصادرة من الأسفل .

وإذ بمالوري تتعرف عليها بوضوح تام .

إنها الطيور . يا إلهي . إنها الطيور .

صندوق الورق المقوى وهو يصطدم بجدار المنزل الخارجي وهديل الطيور الخفيف العذب .

«شيء ما خارج المنزل» ، تقول .

بهدوء في البداية .

شيريل على بعد أقدام منها .

«*شيء ما خارج المنزل!*» ، تصرخ .

يطل جولز من وراء كتف أوليمبيا .

يدوي اصطدام في الأسفل . يصرخ فيلكس . يتخطى جولز مالوري مسرعا . خطواته على درجات السلم خلفها ثقيلة وسريعة .

تبحث مالوري باهتياج عن توم في العلية . هو ليس هنا . هو في الأسفل .

«أوليمبيا» ، تقول مالوري ، وهي تخاطب نفسها أكثر مما تخاطب أوليمبيا ، «نحن بمفردنا هنا!»

أوليمبيا لا تجيب .

تحاول مالوري ألا تستمع لكنها لا تستطيع . كأنهم الآن مجتمعون كلهم في غرفة الجلوس . في الطابق الأرضي بلا شك . الجميع يصرخون . هل قال جولز لتوه «لا تفعل»؟

تشتد الجلبة ويشتد معها الألم في خصر مالوري .

مولية ظهرها إلى الدرج ، تشرئب مالوري . تريد أن تعرف ما الذي يجري . تريد أن تقول لهم كفى . ثمة امرأتان حبليان في العلية بحاجة لكم . كفى أرجوكم .

وهي تهذي ، تترك مالوري ذقنها يقع على صدرها . تُغمَض عيناها . ينتابها شعور بأنها لو تشتت ذهنها وفقدت تركيزها فقد يغمى عليها . أو قد يحصل لها ما هو أسوأ .

ينهمر المطر من جديد . تفتح مالوري عينيها . ترى أوليمبيا . رأسها مرفوع للسقف وشرايين عنقها بارزة . ببطء ، تسرح مالوري عينيها في العلية . بجانب أوليمبيا صناديق . ثم النافذة . ثم صناديق أخرى . كتب قديمة . والملابس القديمة .

يبرق البرق فيضيء وميضه العلية . تغمض مالوري عينيها . وفي عتمتها ، ترى صورة جامدة لجدران العلية .

النافذة . الصناديق .

ورجل . واقفا حيث كان دون يقف عندما صعدت إلى هنا .

هذا غير ممكن ، تقول في نفسها .

لكنه ممكن .

وقبل أن تفتح عينيها بشكل كامل ، تعرف من الذي يقف هناك ، من معها في العلية .

«غاري» ، تقول مالوري ، ومئات الأفكار تتبادر إلى ذهنها ، «كنت مختبئا في القبو» .

تفكر فيكتور وهو يزمجر عند باب القبو .

تفكر في دون ومبيته في القبو .

بينما تحدق مالوري في عيني غاري ، يتصاعد الجدل في الأسفل . جولز مبحوح الصوت ، ودون مستشيط غضبا . كأنهما كانا يتبادلان الضربات .

يخرج غاري من الظلال . هو ذا يقترب منها .

عندما أغمضنا أعيننا وفتح توم باب المنزل ، تقول لنفسها وهي واثقة من أن ذلك هو ما حصل ، *سربه دون خلسة إلى داخل المنزل* .

«ما الذي تفعله هنا؟!» تصرخ أوليمبيا فجأة . غاري لا ينظر إليها ، بل يتجه إلى مالوري .

«*ابتعد عني!*» تصرخ مالوري .

يركع إلى جانبها .

«أنت» ، يقول ، «وأنت الضعيفة في حالتك هذه . ظننت أنني سأجد عندك من التعاطف ما يمنعك من أن تطردي أحدا إلى عالم مثل هذا»

من جديد يبرق البرق .

«*توم! جولز!*»

طفلها لم يولد بعد ، لكنه بالتأكيد على وشك أن يفعل .

«لا تصرخي» ، يقول غاري ، «أنا لست غاضبا»

«أرجوك دعني وشأني . أرجوك اتركنا»

يضحك غاري .

«لا تزالين تقولين هذا! ما زلت تريدينني أن أرحل!»

يدوي الرعد في الخارج . ويعلو صوت الرفاق .

«لم تغادر أبدا» ، تقول مالوري ، وكل كلمة كأنها صخرة صغيرة تنتزع من صدرها .

«هذا صحيح ، لم أغادر أبدا»

تغرورق عينا مالوري بالدموع .

«لقد طاوع دون قلبُه على أن يمد لي يد العون ، وسمحت له بصيرتُه بأن يتوقع أنكم ستصوتون لإخراجي» .

دون ، تقول في نفسها ، *ماذا فعلت؟*

ينحني غاري عليها أكثر .

«هل تمانعين أن أروي لك قصة بينما تنهين أنت عملك؟»

«*ماذا؟*»

«قصة . شيء أصرف به ذهنك عن كل هذا الألم . ودعيني أخبرك بأن تبلين بلاء حسنا . أحسن بكثير مما أبلت زوجتي» .

أنفاس أوليمبيا تبدو مريضة ، متعبة أكثر مما ينبغي ، كما لو أن أوليمبيا قد لا تنجو من محنتها هذه .

«ما يجري هنا هو أحد أمرين» ، يقول غاري ، «إما -»

«أرجوك» ، تصيح مالوري ، «*أرجوك دعني وشأني*»

«إما أنني مصيب في ما أذهب إليه ، أو أنني ، وأنا لا أحب أن أستخدم هذه الكلمة ، أو أنني محصَّن» .

تشعر بالطفل كأنه على حافة جسدها . لكنها تشعر أيضا أنه أكبر من أن يستطيع الخروج . تشهق مالوري وتغمض عينيها . لكن الألم في كل مكان ، حتى داخل ظلمتها .

هم لا يعلمون بأنه هنا في العلية . يا إلهي هم لا يعلمون بأنه هنا في العلية .

«لقد راقبت هذا الحي لمدة طويلة .» ، يقول غاري ، «شاهدت توم وجولز يشقان طريقهما في الحي عشرة عشرة . لم تكن بيني وبين توم إلا بضع سنتيمترات عندما كان يتفحص الخيمة التي كانت تؤويني»

«كفى . كفى!»

لكن الصراخ لا يزيدها إلا ألما . تستجمع مالوري شتات فكرها . تدفع . تتنفس . لكنها لا تستطيع منع نفسها من أن تسمع .

«وجدت الأمر ساحرا ، كل تلك المسافة التي كان الرجل مستعدا لقطعها ، بينما كنت أنا أشاهد ، دون أن يصيبني أي أذى ، المخلوقاتِ تمر ليلا نهارا ، في مجموعات أحيانا . لأجل هذا مكثت في هذا الحي ، يا مالوري . لا يمكنك أن تتخيلي كم هي الحركة كثيفة في الخارج» .

أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك أرجوك .

من الطابق أسفل العلية تسمع صوتَ توم .

«جولز! أنا بحاجة إليك!»

ثم دويٌّ خطوات تنزل .

«توم! النجدة! غاري هنا في العلية! توم!»

«توم مشغول» ، يقول غاري ، «ثمة مشكلة حقيقية بالأسفل»

يقف غاري . يتجه إلى باب العلية وبهدوء يغلقه . ثم يوصده .

«هل هذا أفضل؟» يسأل .

«ما الذي فعلته» ، تقول مالوري بصوت كالفحيح .

صراخ أكثر في الأسفل الآن . كأن الجميع يتحركون في وقت واحد . للحظة ، يخيل لها أنها فقدت صوابها . رغم كل ما توختته من حذر ، يبدو لها أنه لا مهرب من الجنون الذي يحمله العالم الجديد .

يصرخ أحدهم في الرواق تحت باب العلية الموصد . مالوري تظن أنه فيلكس .

«لم تكن زوجتي متهيئة» ، يقول غاري ، وقد صار بجانبها فجأة ، «شاهدتها وهي ترى أحد تلك المخلوقات . لم أنبهها إلى أنه قادم ، و-»

«لِمَ *لم تخبرنا بهذا؟*» تسأل مالوري وهي تبكي وتدفع .

«لأنه» ، يقول غاري ، «مثل كل الآخرين ، لا أحد منكم كان سيصدقني ، إلا دون»

«أنت مجنون» .

يضحك غاري ويبتسم ابتسامة عريضة .

«ما الذي يجري في الأسفل؟!» تصيح أوليمبيا ، «مالوري! ما الذي يجري في الأسفل؟!»

«*لا أعلم!*»

«إنه دون» ، يقول غاري ، «يحاول أن يقنع الآخرين بما علّمته»

«إنه دون!»

الكلام في الأسفل يُسمع بوضوح كما لو أنه يقال هنا في العلية .

«لقد أزالها دون! لقد أزال دون الستائر!»

«لن تؤذينا « ، يهمس غاري ، ولحيته المبتلة تلمس أذن مالوري .

لكنها لم تعد تستمع له .

«مالوري؟» ، تهمس أوليمبيا .

«لقد أزال دون الستائر وفتح الباب! إنها في المنزل! هل سمعتم! إنها في المنزل!»

الطفل قادم الطفل قادم الطفل قادم .

«مالوري؟»

«أوليمبيا» ، تقول ، مهزومة ، خاوية من كل أمل (حقا؟ أحقا يشي صوتها بكل هذا؟) ، «أجل ، إنها في المنزل الآن»

العاصفة في الخارج تجلد الجدران .

الفوضى في الأسفل لا تحتمل .

«إنهم يعوون كالذئاب ،» تصرخ أوليمبيا ، «إنهم يعوون *كالذئاب!*»

دون دون دون دون دون دون دون

أزال الستائر .

أدخل المخلوقات .

أحدهم رآها .

أدخلها .

أحدهم فقد صوابه من هو؟

لا تدخلها

دون أزال الستائر

دون لا يعتقد أنها ستؤذينا

دون يعتقد أن كل ذلك أوهام نصنعها نحن

غاري مال على أذنه وهو جالس في غرفة الطعام
غاري كلمه من وراء السجاد في القبو
دون أزال الستائر
غاري قال له إنها أوهام . غاري قال له إنها مسالمة لا تؤذي أحدا
أحدهم جن ربما ، من هو من يكون؟
(ادفعي يا مالوري ، ادفعي ، لديك طفل لتقلقي بشأنه ، أغمضي عينيك إن لزمك ذلك ولكن ادفعي ادفعي)
هي الآن داخل المنزل
وكل من فيه
يعوون كالذئاب .

الطيور ، تقول في نفسها مالوري بشكل هيستيري ، *كانت فكرة سديدة يا توم . بل فكرة عبقرية .*

تسأل أوليمبيا باهتياج لكن مالوري لا تستطيع الإجابة ، فذهنها ممتلئ بما يكفي .

«أحقا؟ أحقا أن واحدا من تلك المخلوقات بداخل من المنزل؟ لا يعقل هذا . لم نكن أبدا لنسمح لذلك بأن يحدث! أحقا أن واحدا من تلك المخلوقات بداخل من المنزل؟ *الآن؟*»

يرتطم شيء ما بالجدار في الأسفل . ربما هو جسد . الكلاب تنبح .

أحدهم رمى كلبا على الجدار .

«لقد أزال دون الستائر!»

من ممَّن بالأسفل أغمض عينيه؟ من حضرته البديهة ليفعل؟ أكانت مالوري ستفعل؟ أكانت مالوري ستستطيع أن تغمض عينيها بينما الرفاق يجنون؟

يا إلهي، تقول في نفسها مالوري، *سيموتون*.

الطفل يقتلها.

غاري لا يزال يهمس في أذنها.

«ما تسمعينه في الأسفل، هو ما أعنيه بكلامي يا مالوري. هم يظنون أنهم يُجَنون. لكنهم ليسوا مضطرين لذلك. لقد أمضيت شهورا في الخارج. وشاهدت المخلوقات لأسابيع متوالية».

«*مستحيل*»، تقول مالوري. هي لا تعلم إن كانت تخاطب غاري، أو تقصد الجلبة في الأسفل، أو الألم الذي لا تظنه سيزول أبدا.

«أول مرة رأيت فيها واحدا من تلك المخلوقات، حسبت أنني سأجن». يضحك غاري بعصبية. «لكن ذلك لم يحصل، وعندما أدركت ببطء أنني لم أزل عاقلا، بدأت أفهم ما الذي يجري. لأصدقائي. لعائلتي. لكل الناس».

«*لا أريد أن أسمع شيئا آخر!*» تصرخ مالوري. تشعر بأنها قد تنقسم حتى عمقها. ثمة خطأ ما، تقول في نفسها. الطفل الذي يحاول أن يهرب منها كبير جدا وقد يشقها.

إنه صبي، تعتقد ذلك.

«أتدرين؟»

«*كفى!*»

«أتدرين؟»

«*لا! لا! لا!*»

مالوري تولول، السماء تولول، والكلاب تولول في الأسفل. مالوري تعتقد أنها تسمع صوت جولز بالتحديد. تسمعه يركض تحتها بطابق. تسمعه يحاول أن يمزق شيئا في الحمام.

«ربما أنا محصن يا مالوري . أو ربما أنا مُدرِكٌ وحسب»

تريد أن تقول ، *هل تعلم كم بإمكانك أن تنفعنا؟ هل تدرك إلى أي حد كنت قادرا على حمايتنا؟*

لكن غاري مجنون .

ولعله كان كذلك منذ البداية .

لقد أزال دون الستائر .

غاري مال على أذنه في غرفة الطعام

غاري كلمه من وراء سجاد في القبو

غاري الشيطان على كتف دون الرقيقة

يدوي طرق كالرعد على الباب في أسفل سلالم العلية .

«أدخلوني!» يصرخ أحدهم .

إنه فيلكس ، تقول في نفسها مالوري ، *أو دون* .

«*بحق الرب أدخلوني!*»

لكنه ليس فيلكس ولا دون .

بل توم .

«*افتح له الباب!*» ، تصيح مالوري بغاري .

«أواثقة أنت من أن هذا هو ما تريدين؟ لا أظنها فكرة مأمونة العواقب» .

«*أرجوك أرجوك أرجوك! أدخله!*»

إنه توم ، *يا إلهي* ، إنه توم ، إنه توم ، *يا إلهي* ، إنه توم .

تدفع بقوة . *يا إلهي* كم تدفع بقوة .

«تنفسي» ، يقول لها غاري ، «تنفسي ، تكادين تصلين»

«أرجوك» ، تصرخ مالوري ، «*أرجوك!*»

«أدخلوني! دعوني أصعد!»

أوليمبيا تصرخ الآن هي أيضا .
«افتح له الباب! إنه توم!»
الجنون القادم من الأسفل يطرق الباب .
توم .
لقد جن توم . لقد رأى توم واحدا من تلك المخلوقات .
لقد جن توم .
هل سمِعْته؟ هل سمعت صِوته؟ كان ذلك الصوتَ الذي أصدره . كذلك يرن صوته عندما يغادره عقله ، عندما يغادره عقله النير .
يقف غاري ويقطع العلية . المطر يدق على السقف .
وإذ بالطرق على الباب يتوقف .
تنظر مالوري إلى أوليمبيا .
يختلط شعر أوليمبيا الأسود بالظلال ، وعيناها تتوهجان من داخلهما .
«نكاد . . .نصل» ، تقول .
طفل أوليمبيا يخرج . على ضوء الشمعة ، ترى مالوري نصفه .
بحركة غريزية ، تمد يدها له ، رغم أنه على الطرف الآخر من العلية .
«أوليمبيا! لا تنسي أن تغطي عينِي طفلك . لا تنسي أن -»
يتحطم باب العلية بعنف . لقد كُسر قفله .
تصرخ مالوري لكنها لا تسمع إلا دقات قلبها ، أعلى من كل الأصوات في العالم الجديد .
ثم تصمت .
يقف غاري ويتراجع إلى النافذة .

خلفها خطوات ثقيلة .

يبدأ طفل مالوري بالخروج .

تئن السلالم .

«من هناك؟» تصرخ . «من هناك؟ هل الجميع بخير؟ هل هذا أنت يا توم؟ من هناك؟»

شخص ما لا تستطيع رؤيته صعد السلالم وهو معهم في العلية .

تنظر مالوري ، والسلالم وراءها ، إلى أوليمبيا وتشاهد تعابير وجهها وهي تنتقل من الألم إلى الرهبة .

أوليمبيا ، تقول في نفسها . *لا تنظري . لقد أبلينا بلاء حسنا حتى الآن . كنا شجاعتين . لا تنظري ، بل مدي يدك إلى طفلك . أخفي عينيه عندما يخرج كاملا . أخفي عينيه . وعينيك أنت أيضا . لا تنظري ، يا أوليمبيا ، لا تنظري .*

لكنها تدرك أن الأوان قد فات على صديقتها .

تنحني أوليمبيا للأمام . تتسع عيناها وينفتح فمها . وجهها الآن ثلاث دوائر كاملة . للحظة ترى مالوري قسماتها تتلوى وتتشوه ، ثم تشرق بعد ذلك .

«ما أجملك» ، تقول أوليمبيا وهي تبتسم . ابتسامتها محطمة عصبية . «لا بأس بك حقا . أتريدين أن تري طفلي؟ أتريدين أن تري طفلي؟»

الطفل الطفل ، تقول في نفسها مالوري ، *الطفل لا يزال بداخلها ولقد جنت . يا إلهي ، لقد جنت أوليمبيا ، يا إلهي ، ذلك الشيء خلفي وهو خلف طفلي .*

تغمض مالوري عينيها .

وإذ تفعل ، تبقى في ذهنها صورة غاري ، وهو لا يزال واقفا على تخوم نور الشمعة . لكنه لا يبدو واثقا من نفسه كما ادعى أنه سيكون . يبدو كطفل خائف .

«أوليمبيا» ، تقول مالوري ، «عليك أن تغطي عيني طفلك . عليك أن تمدي ذراعيك لتمسكي بطفلك» .

مالوري لا تستطيع أن ترى تعابير وجه صديقتها ، لكنها صوتها يشي بما أصابها من تحول .

«ماذا؟ هل ستعلمينني كيف أربي طفلي؟ أيُّ *عاهرة* أنت؟ أيُّ -»

تتلاشى كلمات أوليمبيا وتتحول إلى زمجرة جشّاء .

صخب مجنون .

كلمات غاري المريضة ، الخطيرة .

أوليمبيا الآن تنبح .

طفل مالوري يطل برأسه . تدفع .

بقوة لم تعهدها في نفسها ، تتقدم مالوري قليلا على منشفتها . تريد طفل أوليمبيا . ستحميه .

عندئذ ، وفي خضم كل هذا الألم والجنون ، تسمع مالوري صرخة طفل أوليمبيا الأولى .

أغمضي عينيه .

ثم يخرج طفل مالوري أخيرا فتتلقفه يدها وتغمض له عينيه . رأسه ناعم الملمس . مالوري تعتقد أنها وصلت إليه في الوقت المناسب .

«تعال» ، تقول وتحمل الطفل إلى صدرها ، «تعال وأغمض عينيك» .

يضحك غاري بعصبية من أقصى الغرفة .

«أمر لا يصدق» ، يقول .

تبحث مالوري بيدها عن السكين . تجده وتقطع حبلها السري بنفسها . ثم تشق قِطعتين من المنشفة المخضبة بالدماء تحتها . تتحسس فرجه بيدها فتعلم أنه صبي ولا أحد بجانبها لتخبره . لا أختها ولا أمها ولا أبوها ولا ممرضة ولا توم . تضمه بشدة إلى صدرها .

ببطء ، تربط قطعة المنشفة حول عينيه .

كم هو مهم أن يرى الطفل عيني والدته عندما يجيء إلى العالم .

تسمع المخلوق يتحرك خلفها .

«طفل» ، تقول أوليمبيا ، لكن صوتها ألَوَث . كأنها تتكلم بصوت امرأة عجوز . «*طفلي* أنا» ، تنغو مبتهجة .

تتزحلق إلى الأمام . عضلات جسدها تقاوم . تمد يدها لطفل أوليمبيا .

«هنا» ، تقول وهي لا ترى شيئا . «هنا يا أوليمبيا . دعيني أحمله . دعيني أراه» .

تنخر أوليمبيا .

«ولم؟ لم تريدين طفلي؟ هل أنت مجنونة؟»

«لا . أريد فقط أن أراه»

لا تزال عينا مالوري مغمضتين . العلية هادئة . المطر ينزل خفيفا على السقف . تتزحلق مالوري بجسدها قدما ، على بركة من الدماء .

«أيمكنني؟ أيمكنني فقط أن أراها؟ هي بنت ، أليس كذلك؟

أرأيت أنك كنت محقة بشأن ذلك؟»

تسمع مالوري شيئا يدهشها حتى أنها تتوقف في منتصف الطريق .

أوليمبيا تقرض شيئا ما . وتدرك مالوري أنه حبل طفلتها السري .

تصاب بالغثيان . تبقي عينيها مغمضتين بشدة . هي على وشك أن تتقيأ .

«أيمكنني أن أراها؟» ، تسأل أخيرا بعد جهد .

«*إليك ، إليك!*» تقول أوليمبيا ، «انظري إليها . *انظري إليها!*»

أخيرا ، تمسك يدا مالوري بطفل أوليمبيا . إنها بنت .

تقف أوليمبيا . تسمع مالوري خطوات كأنها على بركة ماء . لكنها تعلم أنه دم . مشيمة ، وعرق ، ودم .

«شكرا» ، تهمس مالوري ، «شكرا لك يا أوليمبيا» .

هذا الفعل ، أنها سلمت لها طفلها ، سيظل يسطع في ذهن مالوري . تلك اللحظة التي فعلت فيها أوليمبيا الصواب مع طفلتها رغم ذهاب عقلها .

تربط مالوري قطعة القماش الثانية حول عيني الطفلة .

تجرجر أوليمبيا خطاها إلى النافذة المغطاة ، إلى حيث يقف غاري .

الشيء ينتظر خلف مالوري ثابتا لا يتحرك .

تقبض مالوري على كلا الطفلين وتغطي عينيهما أكثر بأصابعها الدامية المبللة . الطفلان يبكيان .

فجأة ، هي ذي أوليمبيا تصارع شيئا ما ، تجر شيئا ما .

كأنها الآن تتسلق .

«أوليمبيا؟»

كأنها تركّب شيئا ما .

«أوليمبيا؟ ما الذي تفعلينه؟ غاري ، امنعها . *أرجوك يا غاري*» .

لا جدوى من كلماتها . غاري مجنون أكثر من كل الآخرين .

«سأخرج يا سيدي» ، تقول أوليمبيا لغاري القريب منها ولا شك . «لقد مكثت بالداخل لوقت طويل جدا» .

«أوليمبيا ، توقفي»

«سأخرج» ، تقول ، وصوتها في الوقت نفسه صوت طفلة وعجوز طاعنة في السن على فراش الموت .

«*أوليمبيا!*»

قضي الأمر . تسمع مالوري زجاج نافذة العلية يتحطم . يصطدم شيء ما بجدار المنزل .

صمت . في الأسفل . في العلية . ثم يتكلم غاري .

«*إنها معلقة! معلقة بحبلها السُّري!*»

لا ، *أرجوك* ، *يا إلهي* ، لا تدعه يصف *لي الأمر* .

«معلقة بحبلها! هذا أغرب شيء رأيته في حياتي! معلقة بحبلها!»

ثمة ضحك ، فرح ، في صوته .

يتحرك الشيء خلفها . مالوري في وسط كل هذا الجنون . الجنون القديم . من نوع الجنون الذي كان يصيب الناس في الحرب والطلاق والفقر وأشياء أخرى كأن تعرفي أن صديقتك –

«معلقة بحبلها! *بحبلها!*»

«أسكت!» ، تصرخ مالوري وهي لا ترى شيئا . «*أسكت!*»

لكن كلماتها مبحوحة ، إذ تشعر بالشيء يميل عليها .جزء منه

(أهو وجهه؟) يتحرك أمام شفتيها .
تتنفس مالوري ، وفقط . لا تتحرك . الصمت مطبق في العلية .
بإمكانها أن تشعر بدفء ، بحرارة الشيء القريب منها .
شانون ، تقول في نفسها ، *انظري إلى الغيوم . إنها تشبهنا ، أنا وأنت .*
تحكم قبضتها على أعين الطفلين .
تسمع الشيء يتراجع خلفها . كأنه يبتعد عنها . أبعد فأبعد .
عندما تسمع صرير السلالم الخشبية ، وعندما تستيقن من أنه صوت شخص ينزل ، تشهق شهقة عميقة كما لم تفعل أبدا من قبل .
تصمت الخطوات شيئا فشيئا ، ثم تغيب .
«لقد تركنا» تقول للطفلين
تسمع غاري يتحرك .
«إياك أن تقترب منا!» تصرخ وعيناها مغمضتان . «إياك أن *تلمسنا!*»
لا يلمسها . يمر أمامها وتصر السلالم من جديد .
لقد نزل . سيذهب ليرى من نجا منهم . ومن لم ينج .
تلهث ، وتتألم من الإنهاك . من النزيف . يقول لها جسدها أن تنام ، نامي . هم لوحدهم في العلية ، مالوري والطفلان . تشرع في الاستلقاء . هي بحاجة لأن تفعل . وبدلا من ذلك ، تنتظر . تنصت . تستريح .
كم مر من الوقت؟ كم من الوقت حملت الطفلين؟
لكن صوتا آخر يقطع عليها استراحتها . الصوت قادم من الأسفل . إنه صوت كثيرا ما كان يسمع في العالم القديم .

أوليمبيا معلقة *(هكذا قال هكذا قال)* ، تتدلى من نافذة العلية .

جسدها يرتطم بالمنزل في الريح .

والآن ثمة شيء يرن بالأسفل .

إنه الهاتف . الهاتف يرن .

مالوري تكاد تصاب بالذهول من صوت الهاتف . متى كانت آخر مرة سمعت فيها شيئا كهذا؟

أحدهم يتصل بهم .

أحدهم يرد على اتصالهم .

تدور مالوري على نفسها وتنزلق على المشيمة . تضع البنت على حضنها ثم تغطيها بلطف بقميصها . بيدها الفارغة ، تبحث عن السلالم . السلالم وعرة ، وقديمة ، ولا يجدر بأي امرأة وضعت للتو حملها أن تخاطر أبدا بنزولها .

لكن الهاتف يرن . أحدهم يرد لهم الاتصال ، ومالوري عازمة على أن تجيب .

ترررررررررررررررررررررررررررررررررن

رغم أن أعينهما معصوبة بالمنشفة ، تأمر مالوري الطفلين بأن يبقياها مغمضة .

سيصبح هذا الأمر أكثر شيء ستقوله لهما طوال السنوات الأربع القادمة . ولن يردعها رادع عن تكراره ، مهما كانا صغيرين على إدراكه .

تررررررررررررررررررررررررررررررررررررن

تزحلق مؤخرتها إلى حافة الطابق وترفع رجليها لتضع قدمها على الدرجة الأولى . جسدها يصرخ بها لتتوقف .

لكنها تواصل نزولها .

وإذ تصل إلى أسفل الدرج ، تسند الصبي إلى ذراعها اليمنى وكفها يغطي وجهه . البنت تحت قميصها . عيناها مغمضتان والعالم أسود حالك وهي بحاجة ماسة إلى النوم حتى أنها قد تقع فيه ومن الدرج في آن واحد . لكنها تمشي ، تخطو ، مهتدية بصوت الهاتف .

ترررن

تلمس قدماها البساط الأزرق الفاتح في بهو الطابق الأول الأبيض . عيناها مغمضتان ، فلا ترى هذه الألوان ، كما لا ترى جولز مجندلا بجانب الجدار الأيمن ، وجهُه إلى الأرض ، وخمسة خطوط دامية تشطب الجدار نزولا من مستوى رأسها إلى حيث تستقر يده معصورة على الأرض .

عند أعلى الدرج ، تتوقف . تتنفس بعمق ، وكلها ثقة بأنها تستطيع فعل ذلك . ثم تواصل .

تمر بجانب شيريل لكنها لا تعلم ذلك . ليس بعد . رأس شيريل يواجه الطابق الأرضي وقدماها الطابق الأول . جسدها ملتو بشكل مرعب ، عجيب .

دون أن تعلم ، تمر مالوري على بعد سنتيمترات منها .

تكاد تلمس فيلكس عند أسفل الدرج . لكنها لا تلمسه . بعد ذلك ، ستشهق عندما تتحسس الثقوب في وجهه .

ترررن .

لا تعلم أنها تمر بواحد من كلبي الهسكي . الكلب مرمي بجانب الجدار ، والجدار ملطخ باللون الأرجواني الداكن .

تريد أن تقول ، *أما من أحد هنا*؟ تريد أن تصيح بها . لكن الهاتف يرن وهي تؤمن بأنه لن يتوقف حتى ترفع السماعة .

تتبع الصوت ، مستندة إلى الجدار .

الريح والمطر يدخلان من النوافذ المحطمة .

علي أن أرد على الهاتف .

لو فتحت عينيها ، فلن يستطيع عقلها استيعاب كمية الدم التي تدمغ المنزل .

ترررن .

سترى كل ذلك لاحقا . لكن الهاتف يرن الآن ، عاليا ، قريبا .

تدور مالوري ، تسند ظهرها إلى الجدار ، ثم تنزلق ، بجهد جهيد ، إلى البساط . الهاتف على طاولة صغيرة . جسدها يؤلمها ويكويها ، كله . تضم الصبي مع البنت إلى حضنها وتمد يدها وتتلمس بحثا عن الهاتف الذي ما زال يرن بلا انقطاع .

«مرحبا؟»

«مرحبا»

إنه رجل . صوته هادئ جدا . في غير محله إلى حد مرعب .

«من أنت؟»

هي لا تكاد تدرك أنها تمسك بسماعة هاتف .

«اسمي ريك . وصلتنا رسالتكم منذ بضعة أيام . يمكنك أن تعتبري أننا كنا مشغولين . ما اسمك؟»

«من أنت؟»

«أكرر ، اسمي ريك . لقد ترك رجل اسمه توم رسالة على مجيبنا الآلي»

«توم»

«أجل ، هو يسكن معك ، أليس كذلك؟»

«اسمي مالوري»

«هل أنت بخير يا مالوري؟ تبدين من صوتك محطمة»
تتنفس مالوري بعمق . هي لا تظن أنها ستصبح بخير من جديد أبدا .
«نعم» ، تجيب ، «أنا بخير»
«لا نملك الكثير من الوقت الآن . هل تريدين أن تخرجي من حيث أنت الآن؟ إلى مكان آمن؟ أفترض أن الجواب هو نعم»
«نعم»
«إليك إذا ما ستفعلينه . دوني ما سأقوله إن استطعت . ألديك قلم؟»
تقول مالوري نعم وتمد يدها إلى القلم الذي كان توم يتركه أمام دليل الهاتف .
يبكي الطفلان .
«أهذا صوت طفل الذي أسمعه؟»
«نعم»
«أتصور أن هذا هو ما يدفعك إلى البحث عن مكان أفضل . إليك التعليمات يا مالوري . اركبي النهر» .
«ماذا؟»
«اركبي النهر . هل تعلمين أين هو؟»
«ن-نعم . أعلم . خلف المنزل مباشرة . على بعد ثمانين ياردة من البئر ، هذا ما قيل لي» .
«حسنا . اركبي النهر . إنه أخطر أمر يمكنك أن تفعليه ، لكن إن كنت أنت وتوم قد نجحتما في البقاء إلى الآن ، أعتقد أنك ستنجحين في هذا أيضا . لقد وجدت موقعكم على الخريطة ويبدو لي أن أمامك مسافة عشرين ميلا على الأقل لتقطعيها . والآن انتبهي ، النهر سيتفرع -»

«النهرُ ماذا؟»

«أنا آسف . لعلي أسرع كثيرا ، لكن المكان الذي أدلك عليه أطيب عيشا»

«وكيف ذلك؟»

«حسنا . أولا لا توجد نوافذ . ولدينا مياه جارية . ونحن نأكل مما نزرع . نحن مكتفون إلى أقصى حد ممكن في أيامنا هذه . ثمة غرف نوم عديدة . غرف جميلة ومريحة . ومعظمنا يعتبر أنه يبلي الآن أحسن مما كان يفعل من قبل» .

«كم عددكم؟»

«مائة وثمانية»

قد لا يعني هذا الرقم شيئا لمالوري ، وقد يعني لها اللانهاية .

«لكن دعيني أصف لك الطريق إلى هنا أولا . سيكون أمرا محزنا لو انقطع الاتصال قبل أن تعرفي أي طريق تسلكين» .

«حسنا»

«سينقسم النهر إلى أربع قنوات . القناة التي تعنيك هي الثانية من اليمين ، فلا يمكنك إذاً أن تلزمي الضفة اليمنى وتنتظري . الأمر أعقد من ذلك . وسيكون عليك أن تفتحي عينيك .»

ببطء تهز مالوري رأسها . لا .

يواصل ريك .

«و هكذا ستعرفين أن الوقت قد حان ،» يقول لها الرجل . «ستسمعين تسجيلا . صوتا . لا يمكننا أن نلزم النهر طول اليوم . الأمر خطير جدا . بدلا من ذلك ، وضعنا مكبرا للصوت هناك . سيُشغَّل التسجيل بلا انقطاع . نحن نتابع ما يجري في الغابة والنهر الذي يجري خلف المكان الذي نعيش فيه بفضل أجهزة كهذه .

عندما تنطلق مكبرت الصوت ، سيشغل التسجيل لثلاثين دقيقة ، بلا انقطاع . مقطع صوتي مدته أربعون ثانية سيتكرر . ستسمعينه ، فصوته عال وواضح . وعندما تسمعينه ، فتلك هي اللحظة التي سيكون عليك أن تفتحي فيها عينيك .»

«شكرا لك يا ريك . لكني لا أستطيع أن أفعل هذا»

صوتها خائر . مدمر .

«أدرك أن الأمر مخيف . طبعا هو كذلك . لكن لا بد لكل شيء من عيب يُنقِصه . ولا حل آخر ممكن .»

تفكر مالوري في إنهاء المكالمة ، لكن ريك يواصل .

«أشياء جميلة كثيرة تحصل هنا . نحن نتقدم كل يوم . طبعا ، لا نزال بعيدين جدا عمَّا نريد ، لكننا نحاول .»

تبدأ مالوري بالبكاء . الكلمات ، ما يقوله لها هذا الرجل - أهو الأمل يلوح لها به؟ أم هل هو شكل أعمق من أشكال اليأس الذي تشعر به؟

«إن فعلت ما تطلبه مني» ، تقول مالوري ، «كيف سأجدكم هناك؟»

«تقصدين حيث يتفرع النهر؟»

«نعم»

«لدينا نظام إنذار . إنها التكنولوجيا نفسها التي نستخدمها لإطلاق التسجيل الذي ستسمعينه . عندما ستسلكين القناة الصحيحة ، ستقطعين مسافة مائة ياردة تقريبا ، وعندئذ ستطلقين نظام الإنذار . ستعلقين ، وسنأتي لنرى ما علق في حاجزنا .»

مالوري ترتجف .

«حقا؟»

«نعم . في صوتك نبرة شك .»

تتدافع رؤى من العالم القديم في ذهنها ، لكن مع كل ذكرى يأتي رباط ، سلسلة ، وشعورٌ غريزي يقول لها إن هذا الرجل وهذا المكان قد يكونان جيدين ، وقد يكونان سيئين ، وقد يكونان أفضل أو أسوأ من حيث هي الآن ، لكنها لن تكون حرة من جديد أبدا .

«كم عددكم هناك؟» يسأل ريك .

تنصت مالوري للصمت في المنزل . النوافذ مكسورة . ولعل الباب مفتوح . عليها أن تقف . أن تغلق الباب . أن تغطي النوافذ . لكنها تشعر بأن كل هذا يجري مع شخص غيرها .

«ثلاثة» ، تقول ، جامدة ، «إن تبدل عددنا –»

«لا عليك من ذلك يا مالوري . أيا يكن عددكم فلا بأس . لدينا من الأماكن ما يكفي لبضع مئات ونحن نعمل على التوسع أكثر . كل ما عليك فعله هو المجيء بأسرع وقت ممكن .»

«ريك ، هل يمكنك أن تأتي لساعدتي الآن؟»

تسمع ريك يتنفس بعمق .

«أنا آسف يا مالوري . الأمر أخطر مما يمكنني احتماله . الناس بحاجة لي هنا . أدرك كم يبدو هذا أنانيا ، لكن أخشى أنه سيكون عليك أن تأتي أنت إلينا .»

تهز مالوري برأسها في صمت . في خضم الدم والخسارة والألم ، هي تحترم حرص هذا الرجل على توخي الحذر .

إلا أني لا أستطيع أن أفتح عيني الآن ولدي وليدان في حضني لم يريا العالم بعد والغرفة تعبق برائحة البول والدم والموت . الهواء يهب سريعا من الخارج ، وهو بارد . وأنا أعلم أن هذا يعني أن النوافذ مكسورة أو أن باب المنزل مفتوح . مع كل ما يعني ذلك من خطر .

وإذًا ، فكل ما تقوله يا ريك يبدو رائعا ، حقا ، لكني لا أعرف كيف سأصل إلى الحمام ناهيك عن الوصول إلى النهر وركوبه مسافة أربعين ميلا أو كما قلتَ .

«مالوري ، سأطمئن عليك . سأعاود الاتصال بك . إلا إذا كنت تظنين أنك قادمة من فورك؟»

«لا أعلم . لا أعلم متى سيكون بوسعي أن آتي»

«حسنا»

«ولكن شكرا»

تشعر بأنها أصدق كلمة شكر قالتها في حياتها .

«سأتصل بك بعد أسبوع يا مالوري»

«حسنا»

«مالوري؟»

«نعم؟»

«إن لم أتصل ، فقد يعني هذا أن خطوط الهاتف عندنا قد تعطلت أخيرا ، أو أن هاتفكم هو الذي تعطل . فقط صدقيني عندما أقول لك إننا سنكون في انتظارك . تعالي في أي وقت ، وستجديننا في انتظارك .»

«حسنا» ، تقول مالوري

يملي عليها ريك رقم هاتفه ، فتخربش مالوري الأرقام بالقلم على صفحة من صفحات دليل الهاتف المفتوح ، وهي لا ترى شيئا .

«إلى اللقاء يا مالوري»

«إلى اللقاء»

مجرد حديث عادي بسيط على الهاتف .

تضع مالوري السماعة . ثم تطأطئ رأسها وتبكي . يتحرك الطفلان على صدرها . تبكي عشرين دقيقة أخرى ، بلا انقطاع ، إلى أن تصرخ إذ تسمع شيئا ما يخدش باب القبو . إنه فيكتور ، ينبح ليخرجوه . يبدو أنه حُبس في القبو لحسن حظه . ربما يكون جولز هو من فعل ذلك عندما أدرك ما الذي كانوا مقبلين عليه .

بعد أن تعيد تعليق البطانيات على النوافذ وإغلاق الأبواب ، ستستعمل عصا مكنسة لتفتش المنزل شبرا شبرا بحثا عن المخلوقات . وستمضي ستُ ساعات كاملة قبل أن تطمئن بما يكفي لتفتح عينيها ، لترى ما حصل في المنزل بينما كانت هي تضع حملها .

ولكن قبل ذلك ، وعيناها مغمضتان بشدة ، ستقف وتعود أدراجها إلى أن تصل إلى باب القبو .

وهناك تدوس على جسد توم .

لن تعلم أنه جسد توم . ستظن أن ما تلكزه بقدمها كيسُ سكَّر إذ تجثو أمام الدلو وتبدأ المهمة المتعبة ، مهمة غسل الطفلين ونفسِها .

ستتحدث مع ريك عدة مرات في الأشهر القادمة ، لكن سرعان ما سيتعطل هاتف المنزل .

سيلزمها ستة أشهر لكي تغسل المنزل وتنظفه من الدم والجثث . ستجد دون على أرض المطبخ ، متوجها إلى القبو . كما لو أنه تسابق إلى هناك ، مجنونا ، ليسأل غاري أن يعيد إليه عقله . ستبحث عن غاري ، في كل مكان . لكنها لن تجد له أثرا . ستظل دائما تشعر به . بإمكانية وجوده . هناك في الخارج . في العالم .

ستدفن معظم الرفاق متحلقين في نصف دائرة حول البئر خلف المنزل . ستظل تشعر بالحدبات غير المستوية ، بالقبور التي حفرتها

وملأتها معصوبة العينين ، كلما ذهبت لتجلب الماء لها أو للطفلين .

سيكون قبر توم أقرب إلى المنزل . قطعة العشب التي تأخذ الطفلين إليها ، وأعينهما معصوبة ، ليتنفسا هواء منعشا . مكان تأمل أن روحيهما تسريان فيه بحرية أكبر .

ستمضي أربع سنوات قبل أن تجيب بنعم عمًّا إن كانت ستأتي قريبا إلى المكان الذي وصفه لها ريك على الهاتف أم لا .

لكنها الآن تغسل وحسب . هي الآن تنظف الطفلين وحسب . والطفلان يبكيان .

الفصل الثالث والأربعون

يصدح صوت توم المسجل مرارا وتكرارا .

هو يترك رسالة .

« . . . رقم مائتين وثلاثة وسبعون شيلينغهام . . . اسمي توم . . . . أنتم بالطبع تدركون مدى سعادتي بأني توصلت بمجيبكم الآلي . . .»

العصابة لا تزال على بعد بوصة من عينيها المغمضتين .

ترفع يدا وتمد أصابعها إلى القماش الأسود . للحظة ، تمسك هي والمخلوق بعصابة العينين نفسها . هذا المخلوق ، أو مخلوقات أخرى مثله ، سرق منها شانون وأمها وأباها وتوم . هذا الشيء ، وأمثاله ، سرقوا من الطفلين طفولتهما .

بطريقة ما ، مالوري ليست خائفة . لقد فعلوا بها كل ما يمكنهم أن يفعلوه .

«كلا» ، تقول وهي تجذب العصابة ، «هذه لي»

للحظة ، لا يحدث شيء . ثم يلمس شيء ما وجهها . تتجهم مالوري . لكنها العصابة فقط ، تعود إلى مكانها على أنفها وصدغيها .

سيكون عليك أن تفتحي عينيك .

هذا صحيح . صوت توم المسجل يعني أنها وصلت إلى حيث قال ريك إن النهر سيتفرع إلى قنوات . توم يتكلم كما فعل ذات

يوم ، في غرفة الجلوس ، عندما قال *لعلها لا تقصد إيذاءنا . لعلها مندهشة لما تفعله بنا . لقد حدث تداخل يا مالوري . بين عالمهم وعالمنا . مجرد حادث . لعلها لا تحب إيذاءنا أبدا* .

لكن مهما تكن نواياها ، يجب على مالوري أن تفتح عينيها ، وواحد منها على الأقل قريب .

لقد شاهدت الطفلين يفعلان الأعاجيب . ذات مرة ، بعد أن قلبت صفحات دليل الهاتف ، ناداها الصبي وقال إنها بلغت الصفحة السادسة بعد المائة . ولم يشطط في إجابته كثيرا . ومالوري تعلم أنها ستحتاج إلى مآثر مثل هذه منهما ، والآن .

ثمة حركة في الماء إلى يسارها . إما أن المخلوق لم يعد مهتما بعصابة مالوري ويهم بالمغادرة وإما أنه يتربص ليرى ما الذي ستفعله مالوري .

«يا صبي؟» ، تقول ، ويكفيها هذا ، فلقد فهم السؤال .

يصمت مرهفا سمعه ، ثم يجيب .

«إنه يتركنا يا ماما»

رغم المسافة ، والطيور المتصارعة ، والصوت الهادئ الآتي من المسجلة ، يبدو وكأن الصمت يخيم للحظة . صمت قادم من هذا الشيء .

أين هو الآن؟

وإذ تحرر ، ينجرف القارب مع التيار . مالوري تعلم أن صوت الماء أمامها هو صوت النهر إذ يتفرع . لم يبق أمامها الكثير من الوقت .

«يا صبي» ، تقول بحلق جاف ، «هل تسمع شيئا آخر؟»

الصبي صامت .

«يا صبي؟»

«لا يا ماما ، لا أسمع شيئا .»
«هل أنت واثق من ذلك؟ تمام الثقة؟»
صوتها يشي بحالتها الهيستيرية . سواء أكانت مستعدة أم لا ، لقد حان الوقت .
«نعم يا ماما ، نحن لوحدنا من جديد»
«إلى أين ذهب؟»
«لقد ابتعد»
«في أي اتجاه؟»
صمت ، ثم «إنه خلفنا يا ماما» .
«يا بنت؟»
«أجل ، إنه خلفنا يا ماما»
مالوري صامتة .
قال الطفلان إن الشيء خلفهما .
إن كان هناك ما يمكنها أن تعتمد عليه في العالم الجديد ، فهو أنها أحسنت تدريبهما .
هي تثق بهما .
لا مناص لها من ذلك .
الآن هم على مستوى صوت توم . كأنه على القارب معهم .
فجأة ، يبدو لها الأمر كعلامة . توم هنا ، توم معها . ولأجل ذلك ، ستنجو .
تبتلع ريقها بصعوبة .
تمسح الدموع من على شفتيها .
تتنفس بعمق .
ثم تَحضرُها . تماما كما حضَرتْها عندما سمحوا لتوم وجولز

بالدخول إلى المنزل بعد خروجهما . تماما كما حضَرتْها عندما ظنوا أنهم يخرجون غاري .

اللحظة الوسطى .

ما بين اتخاذها القرار بأن تفتح عينيها وتنفيذها إياه .

تستدير لتواجه القنوات وتفتح عينيها .

في البداية ، تنظر بعينين نصف مغلقتين . ليس بسبب نور الشمس ، بل بسبب *الألوان* .

تشهق وتضع يدها على فمها .

عقلها مفرغ من الأفكار والمخاوف والهواجس والآمال . ولا تجد كلمات لتصف بها ما تراه .

المنظر كاليدوسكوبيّ . لا ينتهي . عظيم .

شانون ، انظري! تلك الغيمة تشبه زميلتنا آنجيلا ماركل!

في العالم البائد ، كانت تستطيع أن تنظر إلى منظر بضعف بريق ما تراه الآن دون أن يطرف لها جفن . أما اليوم ، فالجمال يؤلمها .

ستظل تنظر بلانهاية لو أمكنها ذلك ، أو لبضع لحظات بكل تأكيد . لكن صوت توم يستحثها .

كما لو أنها تتحرك بالتصوير البطيء ، تميل إلى حيث مصدر صوت توم ، مستمتعة بكل كلمة يقولها . كأنه يقف بنفسه هناك . يقول لها إنها صارت قريبة . تدرك مالوري أنها لا تستطيع أن تحتفظ بالألوان التي تراها . عليها أن تغمض عينيها مرة أخرى . عليها أن تفصل نفسها عن كل هذه الروعة ، وعن هذا العالم .

تغمض عينيها .

تعود إلى العتمة التي صارت الآن تعرفها حق المعرفة .

تبدأ بالتجذيف .

بينما تقترب من القناة الثانية من اليمين ، ينتابها شعور بأنها تجذف مع السنين . مع الذكريات . تجذف مع مالوري التي كانتها عندما علمت بأنها حبلى ، وعندما وجدت أختها ميتة ، وعندما أجابت على الإعلان المنشور في الصحيفة . تجذف مع مالوري التي كانتها عندما وصلت إلى المنزل ، والتقت الرفاق لأول مرة ، ووافقت على إدخال أوليمبيا . تجذف مع مالوري التي كانتها عندما وصل غاري . تجذف مع نفسها على منشفة في العلية بينما دون ينزل الستائر من على النوافذ في الأسفل .

هي الآن أقوى . أشجع . لقد ربت طفلين ، لوحدها ، في *هذا* العالم .

لم تعد مالوري كما كانت .

يهتز المركب فجأة إذ يلمس إحدى ضفتي القناة . تدرك مالوري أنها قد دخلتها .

انطلاقا من هنا ، تجذف باعتبارها مالوري التي تلقت الطفلين لوحدها . أربع سنوات . تدربهما . تربيهما . تحميهما من عالم خارجي لا شك في أنه ازداد خطرا كل يوم . تجذف مع توم أيضا ومع عشرات الأشياء التي قالها والأمور العديدة التي فعلها وتطلع إليها والتي ألهمتها وشدت من عزيمتها وجعلتها تؤمن بأنه خير لك أن تواجه الجنون وتعد لذلك عدته ، من أن تقعد وتدعه يجرفك شيئا فشيئا .

المركب يتحرك بسرعة الآن . قال ريك إن المسافة إلى مُطلِق الإنذار لا تتجاوز مائة ياردة .

تجذف مع مالوري التي كانتها عندما استيقظت اليوم . مالوري التي ظنت أن الضباب يمكن أن يخفيها وطفليها عن شخص مثل

غاري لعله لا يزال في الخارج يراقبهم وهم يبحرون في النهر . تجذف مع مالوري التي كانتها عندما ضربها الذئب . عندما جُنَّ الرجل على قاربه . عندما جُنَّت الطيور . وعندما لعب المخلوق ، وهو الشيئ الذي تخافه أكثر من أي شيء آخر ، بوسيلة حمايتها الوحيدة .

عصابة العينين .

وإذ تتذكر العصابة ، وكل ما تعنيه لها ، تسمع مالوري صوتا يشبه صوت انفجار معدني كبير .

يصطدم القارب بشيء ما . بسرعة تتفقد مالوري الطفلين .

إنه الحاجز ، مالوري تعلم ذلك . لقد أطلقوا نظام الإنذار الخاص بريك .

ترفع مالوري رأسها إلى السماء ، قلبها يدق بعنف وهي لم تعد بحاجة للتجذيف ، وتصرخ . إنه الفرج . إنه الغضب . إنه كل شيء .

«نحن هنا» ، تنادي بصوت عال ، «نحن *هنا!*»

تسمع حركة على الضفة . شيء ما يتجه إليهم بسرعة .

تمسك مالوري بالمجذافين ، كأن يديها كانتا دائما ممسكتين بهما .

وبينما هي تلتف ، يلمس شيء ذراعها .

«لا بأس!» يقول صوت ، «اسمي كونستانس . لا بأس . جئت مع ريك .»

«هل عيناك مفتوحتان؟!»

«لا . أنا أرتدي عصابة على عيني .»

تغمر ذهن مالوري أصوات تعرفها بشكل مبهم .

هكذا يكون صوت *امرأة* . هي لم تسمع صوت امرأة أخرى منذ أن جنت أوليمبيا .

«معي طفلان . عددنا ثلاثة فقط .»

«طفلان؟» ، تقول كونستانس وقد اجتاحتها الحماسة فجأة . «أمسكي بيدي ، لنخرجكم من هذا القارب . سآخذكم إلى تاكر»

«تاكر؟» تتوقف مالوري .

«أجل ، سأريك - إنه المكان الذي نعيش فيه . مبنانا .»

تساعد كونستانس مالوري على الإمساك بالطفلين أولا . أيديهم مشتبكة ببعضها بينما تُسحب مالوري من القارب .

«عليك أن تعذريني لأني أحمل مسدسا» ، تقول كونستانس بخجل .

«مسدس؟»

«لك أن تتخيلي كل الحيوانات التي اصطدمت بحاجزنا . هل أنت مصابة؟» تسأل كونستانس .

«نعم .»

«لدينا أدوية . ومعنا أطباء .»

تتشقق شفتا مالوري بشكل مؤلم إذ تبتسم ابتسامة واسعة كما لم تفعل طوال أربع سنوات .

«أدوية؟»

«أجل ، أدوية ، وأدوات ، وأوراق . الكثير منها .»

ينطلقون ، ببطء . تقبض مالوري بشدة على كتفي كونستانس . هي لا تستطيع أن تسير لوحدها .الطفلان يمسكان بسروال مالوري ، ويتبعانها بأعين معصوبة .

«طفلان» ، تقول كونستانس ، وصوتها مهدئ . «يمكنني فقط أن أتخيل ما خضتموه اليوم .»

تقول *اليوم* لكن كلتيهما تعلمان أنها تعني سنوات .

يمشون صعودا وجسد مالوري ينبض ألما . ثم تتبدل الأرض تحت أقدامهم ، فجأة . الإسمنت . رصيف . تسمع مالوري صوت طقطقة خفيفة .

«ما ذاك؟»

«ذلك الصوت؟» تسأل كونستانس . «إنها عصا مشي . لكننا لم نعد بحاجة لها . لقد وصلنا .»

تسمعها تطرق طرقا خفيفا على باب .

ينفتح ما يشبه صوت صرير معدن ثقيل وتقودهم كونستانس إلى الداخل .

يصفق الباب من وراءهم .

تشم مالوري روائح لم تشمها طوال سنوات . طعام يطبخ . نشارة الخشب ، كأن أحدهم يبني شيئا . يمكنها أن تسمعها أيضا . آلة تُهمهِم همهمة خفيفة . آلات كثيرة تئز في وقت واحد . الهواء عليل نظيف ، ومن بعيد يأتيها صدى أناس يتحاورون .

«يمكنك أن تفتحي عينيك الآن» ، تقول كونستانس بلطف .

«كلا!» تصرخ مالوري وتمسك الطفلين ، «الطفلان لا! سأفعل أنا أولا .»

يقترب شخص آخر . رجل .

«يا إلهي» ، يقول ، «أهذا أنت حقا؟ *مالوري*؟»

تتعرف على صوت الرجل الخافت الأجش . قبل سنوات سمعت صوته على الطرف الآخر من خط الهاتف . وظلت تقلب الأمر مع نفسها لأربع سنوات طويلة لتقرر هل ستسمع صوته مرة أخرى أم لا .

إنه ريك .

تمسك مالوري بعصابتها وتفتح عينيها ببطء، مبقية إياهما نصف مغمضتين بسبب ضوء المبنى الأبيض القاسي .

هم في رواق فسيح يغمره النور . النور ساطع إلى حد أن مالوري لا تكاد تستطيع أن تبقي عينيها مفتوحتين . إنها مدرسة ضخمة . السقوف عالية، بألواح مقببة مضيئة حتى أن مالوري يخيل إليها أنها في الخارج . ترتفع جدران عالية إلى السقف وتغطيها سبورات للنشرات ومكاتب وعلب زجاجية . لا توجد نوافذ لكن الهواء منعش وبارد، كما في الخارج . الأرض نظيفة وباردة . الرواق من الآجر وطويل جدا . تلتفت من جديد إلى ريك، وتنظر إلى وجهه الذابل وتفهم .

عيناه مفتوحتان لكنها لا تنظران إلى شيء بعينه . هما قابعتان في رأسه، جامدتان ورماديتان، وقد فقدتا وميضهما منذ سنوات . شعره البني يتدلى من رأسه الممتلئ طويلا وكثا على أذنيه لكنه لا يخفي ندبة عميقة وباهتة قرب عينه اليسرى . يلمسها بتخوف، كأنه أحس بنظرة مالوري . تلاحظ عصا مشيه الخشبية البالية الغريبة المصنوعة من غصن شجرة مكسور .

«ريك»، تقول، وهي تسحب الطفلين وراءها، «أنت أعمى» .

يهز ريك برأسه .

«نعم يا مالوري . كثير منا كذلك . لكن كونستانس ترى مثلك تماما . لقد قطعنا طريقا طويلة .»

تنظر مالوري ببطء إلى الجدران، وتتمعن في كل ما عليها . ثمة لافتات دوِّنَت عليها بخط اليد مراحلُ شفائهم، ومطويات تحدد المهام اليومية المتعلقة بالزراعة وتصفية المياه، وجدول زمني للكشف الطبي، مدونةٌ فيه المواعيد .

تتوقف عيناها فوق . بحروف نحاسية محفورة في قوس من الآجر كُتب :

مدرسة جين تاكر للمكفوفين

«الرجل -» ، يتردد ريك ، «صاحب الصوت المسجل - لم يأت معك ، أليس كذلك؟»

تشعر مالوري بضربات قلبها تتسارع وتبتلع ريقها بصعوبة .

«مالوري؟» يقول ، وقد انتابه القلق .

تلمس كونستانس كتف ريك وتهمس له بلطف «كلا يا ريك . لم يأت معهم»

تتراجع مالوري دون أن تفلت الطفلين وتتوجه إلى الباب .

«لقد مات» ، تجيب بصرامة وهي تمسح الرواق بعينيها بحثا عن آخرين . غيرَ مطمئنة . ليس بعد .

يبدأ ريك بقرع عصاه مقتربا من مالوري ومادا يده ليلمسها .

«مالوري - لقد اتصلنا بأناس كثر خلال هذه السنوات . من يدري كم منا لا يزال حيا في الخارج؟ ومن يدري كم لا يزالون محتفظين بعقولهم؟ أنت الوحيدة التي توقعنا منها أن تأتي إلينا عبر النهر . هذا لا يعني طبعا ألا أحد آخر سيفعل ، لكننا بعد أن فكرنا مليا في الأمر ، قررنا أن صوت توم لم يكن ليدلك على أنك وصلت وحسب ، بل إنه كان سيعلم آخرين بأن شكلا ما من أشكال المدنية قريب ، لو أنهم علقوا بالحاجز قبل أن تفعلي . لو كنت أعلم أنه لم يعد معك لكنت ألححت على أن نستعمل صوتا آخر . أرجو أن تقبلي اعتذاري يا مالوري .»

تنظر إليه عن قرب . صوته مفعم بالأمل ، بل بالتفاؤل . لم تسمع نبرة صوت كهذه منذ زمن طويل . لكن وجهه ترتسم عليه

أمارات التوتر والكبر من الحياة في هذا العالم الجديد ، كوجهها تماما . وكما كان الرفاق يبدون ، قبل سنوات .

بينما يشرحان هو وكونستانس لمالوري كيف تسير الأمور في المبنى ، ويحدثانها عن حقول البطاطا والقَرْع ، وعن محصولهم من العنبية في الصيف ، وعن وسيلة لتنقية ماء المطر ، ترى مالوري وجها طيفيا يتحرك خلف رأس ريك .

من غرفة ، تخرج مجموعة من النساء الشابات مرتديات لباسا أزرق بسيطا ، يقرعن عصيا ويلوحن بأيديهن أمامهن . تمر النساء بهدوء كالأشباح من أمام مالوري فتشعر بمعدتها تغور في داخلها إذ ترى أعينهن الفارغة المحفورة كالكهوف . ينتابها الدوار والغثيان كأنها على وشك أن تتقيأ .

حيث يجب أن تكون أعينهن ثمة ندوب هائلة سوداء .

تضم مالوري الطفلين إليها أكثر . ويدفنان رأسيهما في ساقيها .

تمد كونستانس يدها إليها ، لكن مالوري تبتعد ، وتبحث باهتياج عن عصابتها على الأرض وتجر الطفلين معها .

«لقد رأتهن» ، تقول كونستانس لريك .

يهز برأسه .

«ابتعد عني!» تصرخ مالوري ، «إياك أن تلمسنا . إياك أن تقترب منا! ما الذي يجري هنا؟!»

تنظر كونستانس من خلف كتفها وترى النساء يغادرن الرواق . يعم الصمت المكان لولا أنفاس اللاهثة ونحيبها الصامت .

«مالوري ، يقول ريك ، «*كذلك كنّا نفعل . كنا مضطرين لذلك* . لم يكن أمامنا خيار آخر . عندما جئنا إلى هنا ، كنا نتضور جوعا . كمستوطنين منسيين على أرض غريبة عدائية . لم نكن

نملك وسائل الرفاهية التي نملكها الآن . كنا بحاجة للطعام ، فخرجنا للصيد . للأسف ، لم نكن نملك وسائل الأمن كذلك . ذات ليلة ، بينما كان بعضنا في الخارج يبحثون عن الطعام ، دخل مخلوق إلى المبنى . خسرنا عددا كبيرا في تلك الليلة . قامت امرأة ، كانت قبل ذلك بلحظة بكامل قواها العقلية ، فجأة وقتلت أربعة أطفال في سَورة غضب مجنون . استغرقنا شهورا لنتعافى ونقوم من جديد ، فنذرنا على أنفسنا ألاَّ نتعرض لخطر كهذا من جديد . لصالح الجماعة كلها .»

تنظر مالوري إلى كونستانس التي لا ندوب في وجهها .

«لم تكن المسألة مسألة اختيار ،» يواصل ريك ، «أعمينا أنفسنا بأي شيء وقعت عليه أيدينا - بالشوكات والسكاكين وأظافرنا . العمى ، يا مالوري ، كان هو الحماية المطلقة . لكن تلك كانت الطريقة القديمة . لم نعد نفعل هذا . بعد سنة ، أدركنا أننا حصنَّا هذا المكان بما يكفي لنضع هذا الحمل الفظيع عن أكتافنا . وإلى اليوم ، لم تنثلم أي ثلمة في نظامنا الأمني .»

تفكر مالوري في جورج وفي شريط الفيديو ، وفي تجاربه الفاشلة . تتذكر كيف أنها كادت تعمي عيني طفليها في فعل يأس قرباني .

كونستانس ترى . *هي ليست كفيفة . لو أنك وجدت في نفسك الشجاعة قبل أربع سنوات* ، تقول في نفسها مالوري ، *من يدري أيَّ مصيبة كانت ستصيبك . والطفلين .*

يميل ريك على كونستانس بحثا عن دعمها .

«لو أنك كنتِ هنا ، لكنتِ فهمت .»

مالوري خائفة . لكنها تفهم فعلَا . وفي يأسها ، تريد أن تثق

بهؤلاء الناس . تريد أن تصدق بأنها قد قادت الطفلين إلى مكان أفضل . تلتفت ، فتلتقط انعكاسا لها على نافذة أحد المكاتب . هي لا تكاد تشبه المرأة التي كانتها ذات يوم ، عندما تفقدت تسطح بطنها في الحمام ، بينما كانت شانون تصيح بها بشأن الأخبار المعروضة على شاشة التلفزيون في الغرفة الأخرى . شعرها خفيف جدا ، كامد ومتكتل بقذارة ودم كثير من الطيور . جلدة رأسها مسلوخة محمرة تُرى بُقعًا . جسدها هزيل نحيف . عظامُ وجهها جعلت – قسماتها الناعمة استُبدلت بقسمات حادة ذات زوايا – بشرتَها مشدودة مصفرة . تفتح فمها قليلا كاشفة عن سن مكسورة . لا بد أنها كسرتها عندما غابت عن الوعي على النهر . بشرتها مكدومة ومضرجة بالدم وشاحبة . الجرح الغائر من ضربة الذئب يشوه ذراعها المنتفخ . لكنها لا تزال ترى شيئا قويا يضطرم داخل المرأة على النافذة . نار ظلت تدفعها طيلة أربع سنوات ونصف ، وتطالبها بالتشبث والنجاة ، وتأمرها بأن تهيئ لطفليها حياة أفضل .

خائرةَ القوى ، وقد تخلصت من المنزل ، ومن النهر ، تجثو مالوري على ركبتيها . تنضو العصابتين عن وجهي الصبيين . أعينهما مفتوحة ، تطرف وتجاهد لتثبت أمام النور الساطع . الصبي والبنت ينظران برهبة ، صامتَين متردِّدَين . هما لا يعرفان أين هما وينتظران من مالوري أن تشرح لهما . هذه هي المرة الأولى التي يفتحان أعينهما فيها خارج المنزل منذ أن وُلدا .

لا بكاء ولا تذمر . يحدقان بريك وينصتان .

«كما قلت ،» ، يقول ريك بحذر ، «نحن ننجز الكثير من الأمور هنا . المبنى أكبر بكثير مما قد يوحي به هذا الرواق . نحن نزرع كل طعامنا ونجحنا في الإمساك ببعض الحيوانات . عندنا دجاجات

بيوضة ، وبقرة نحلبها ، وعنزتان سنستولدهما . ونحن نأمل أن نخرج عما قريب للبحث عن حيوانات أخرى ، لنبني مزرعة صغيرة .»

تتنفس بعمق وتنظر إلى ريك نظرة أمل لأول مرة .

الماعز ، تقول في نفسها . *في ماعدا الأسماك ، الطفلان لم يريا حيوانا حيا قط* .

«في تاكر ، نحن مكتفون اكتفاء كاملا – لدينا فريق طبي كامل يعكفون على إعادة تأهيل المكفوفين من بيننا . هذا المكان سيجلب لك بعض السكينة ، يا مالوري . إنه يفعل ذلك لي كل يوم .»

«وأنتما» ، تقول كونستانس وهي تركع على ركبتيها أمام الطفلين ، «ما اسمكما؟»

وكأن هذه هي المرة الأولى التي تهتم فيها مالوري بهذا السؤال . فجأة تتسع حياتها لبعض الكماليات كالأسماء .

«هذه» ، تقول مالوري وهي تضع يدا مضرجة على رأس البنت «هذه أوليمبيا .»

تنظر البنت إلى مالوري بسرعة . يحمر وجهها . تبتسم . الاسم يعجبها .

«وهذا» ، تقول مالوري وهي تضم الصبي إليها ، «هذا توم .»

يبتسم ، خجِلا سعيدا .

جاثية على ركبتيها ، تضم مالوري طفليها وتذرف دموعا حارة تريحها أكثر من أي ضحك ضحكته في حياتها .

الخلاص .

تجري دموعها بغزارة وحنان إذ تتذكر رفاقها وهم يعملون معا لجلب الماء من البئر ، وينامون على أرض غرفة الجلوس ، ويتحدثون عن العالم الجديد . ترى شانون تضحك وتستخرج من الغيوم

أشكالا ووجوها ، ممتلئةً فضولا ، مع دفء وطيبة ، ومولعةً بمالوري .

تفكر بتوم . كيف كان عقله دائما يعمل ، كيف كان دائما منكبا على مشكلة ما ليجد لها حلا . كيف كان دائما يحاول .

تفكر بحبه للحياة .

في البعيد ، هناك على طرف رواق المدرسة الطويل ، يخرج آخرون من عدة غرف . يضع ريك يده على كتف كونستانس ويسيران باتجاه داخل المبنى . كأن المكان كلّه يعرف كيف يمنح لمالوري وطفليها فسحة من الوقت يختلون فيها بأنفسهم . كأن كلّ فرد وكلّ شيء فيه يدرك أنهم صاروا أخيرا بأمان .

أنهم صاروا بمكان *آمَن* .

الآن ، هنا ، وهي تعانق طفليها ، يبدو المنزل والنهر لمالوري وكأنهما مكانان خرافيان ضاعا في مكان ما من هذه اللانهاية .

لكنهم الآن ، هي تعلم ذلك ، ليسوا ضائعين إلى حد الحد .

وليسوا لوحدهم .

J O S H M A L E R M A N

صندوق طير

"شيء ما في الخارج. شيء مرعب يجب ألاّ يراه أحد. لا أحد يعلم ما هو ولا من أين جاء.
معظم الناس رفضوا أن يصدقوا الأمر. كانت الحوادث تحدث في أماكن بعيدة، دون شهود. لكن الخطر سرعان ما راح يقترب. ثم انقطعت شبكة الإنترنت، وسكتت قنوات التلفزيون و محطات الإذاعة. و لم تعد الهواتف ترن. و ظن بعض الناس أن بإمكانهم النجاة إن استعصموا بمنازلهم وتحصنوا وراء أبوابهم ونوافذهم.
منذ أن ولدا، لم ير طِفْلا مالوري السماء أبدا. لقد ربتهما بمفردها، بمأمن من الخطر الذي حل كالصاعقة على العالم. لقد فقدت أحباء لها، و شاهدتهم يلقون حتفهم بطريقة مروعة. يقال إن نظرة واحدة تكفي ليفقد المرء عقله وتتملكه نزعة إلى العنف جارفة فيقتل من حوله قبل أن يقتل نفسه. وهي تعلم أن جدران المنزل عما قريب لن تعود قادرة على حمايتها وطفليها. لأجل ذلك، سيخرج ثلاثتهم ليواجهوا العالم، و أعينهم معصوبة، و ينطلقوا في رحلة مرعبة عبر النهر، في محاولة يائسة منهم للحاق بمجموعة من الناجين.
هل سيصلون إلى وجهتهم، ولا دليل لهم إلا أسماعهم وحدسهم؟"


ISBN 978-99966-95-37-5

